من الدراسات القرآنية

الدكتور عبد العال سالم مكرم

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الناشر
عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت. ٣٩٢٦٤٠١

القرآن الكريم ، علوم
مكرم ، عبدالعال سالم .
التعريب في التراث اللغوي: مقاييسه وعلاماته/ عبدالعال سالم مكرم. ـ ط ٢ ـ القاهرة : عالم الكتب ٢٠٠١ .
٢٣٩ ص ، ٢٤ سم .
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥)
تدمك: 977 - 232 - 229 - 3
١ ـ العنوان أ ـ رأس الموضوع
(٢٢٠)

عالم الكتب
الإدارة: ١٦ شارع جواد حسني-القاهرة ت: ٣٩٢٤٦٢٦ فاكس: ٣٩٣٩٠٢٧
المكتبة: ٣٨ شارع عبد الخالق ثروت-القاهرة ت: ٣٩٥٩٥٣٤-٣٩٢٦٤٠١
E.mail: alamalkotob59@hotmail. com

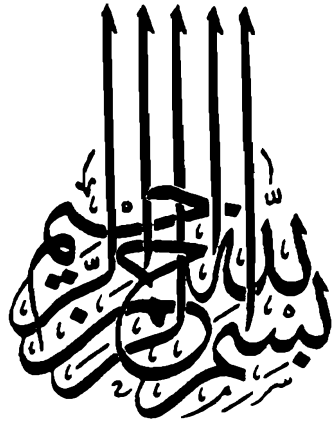
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه بحوث قرآنية، نشرت فى مجلاّت متعدّدة : ببيروت، والكويت، والسعودّية، والمغرب.

وهى بحوث تقوم على دعامتين:

الدعامة الأولى: الدفاع عن كتاب الله تبارك وتعالى، وذلك بكشف سموم المستشرقين التى يدسّونها فى دراساتهم للقرآن الكريم.

الدعامة الثانية: خدمة القرآن الكريم فى نشر هذه البحوث، وتقديمها للقراء للإفادة منها، وبخاصة طلاب الدراسات القرآنية واللغوية.

ولما كانت هذه البحوث متفرقة على صفحات هذه المجلاّت مما يصعب الحصول عليها، والانتفاع بها، والرجوع إليها أحببت أن أجمعها فى إطار واحد يتمثل فى هذا الكتاب ليتسنى للقراء وللطلاب الرجوع إليه، والإفادة منه.

لهذا أرجو أن يكون هذا العمل فى ميزانى «يوم لاينفع مال ولابنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم».

عبد العال سالم مكرم

٣من ربيع الأول سنة ١٤٢١ هـ

الموافق ٦ من يونيو سنة ٢٠٠٠م

زهراء حلوان ـ ت: ٣٦٩٢٦٧٤

١. القراءات السبع والأحرف السبعة(*)

كثير من المسلمين الذين لم يتخصصوا فى الدراسات القرآنية يخلطون بين القراءات السبع والأحرف السبعة، مع أن هناك فرْقًا كبيراً بين الأمرين.

من أجل هذا حاولت فى هذا البحث الموجز أن أزيل هذا اللبس من أذهان هؤلاء الذين لم تتح لهم ظروفهم أن يلموا بمثل هذه الموضوعات فى حقل الدراسة القرآنية من ناحية، وللحفاظ على الدراسة القرآنية من أن يدخل فيها ما ليس منهامن ناحية أخرى فأقول:

١. الأحرف السبعة:

هذه العبارة كانت موضع جدل ونقاش بين علماء المسلمين إلى يومنا هذا، ومازالت فى حاجة إلى المزيد من الدراسات، ذلك لأنها لم تكن عبارة عادية وردت على لسان بعض الصحابة أو التابعين أو بعض الأئمة الذين لمعوا فى سماء الدراسة القرآنية.

ولكنها عبارة جديرة بالنظر والبحث، لأنها وردت على لسان من نزل عليه الوحى محمد رسول الله ﷺ.

يحدثنا البخارى فيقول: «حدثنا سعيد بن عفير ، قال حدثنى ا لليث ، قال حدثنى عقيل عن ابن شهاب، قال : حدثنى عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن القارى حدّثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلبّبته بردائه، فقلت: مَن أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: إنى سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ :أرسله . اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ . فقال رسول الله ﷺ . كذلك أنزلت، ثم

(*) السنة الأولى ـ العدد السابع ـ جمادى الأولى ١٣٩٠ ـ تموز ١٩٧٠ مجلة الفكر الإسلامى ـ بيروت.

قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت . إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه» (١).

وقد تواترت رواية هذا الحديث الشريف، فقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده الكبير أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال يوماً ، وهو على المنبر: أذكر أن رجلاً سمع النبى ﷺ قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لما قام، فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فقال عثمان رضى الله عنه: وأنا أشهد معهم» (٢).

وقد اختلف علماء العربية والإسلام فى هذا الحديث الشريف اختلافاً كبيراً إلى حدّ أن السيوطى أورد له فى كتابه «الإتقان» أربعين وجهاً (٣).

ونحن لانستطيع أن نعرض هذه الآراء جميعاً للموازنة بينها والوصول إلى الصحيح منها، لأن ذلك يحتاج إلى بحث طويل ، ولكننا نكتفى فى هذا المقام بذكر بعض الآراء للمشهورين من علماء اللغة، والنحو، والقراءات.

أ ـ رأى ابن قتيبة:

قال ابن قتيبة : وقد تدبرت وجوه الخلاف فى القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف فى إعراب الكلمة، أو فى حركة بنائها بما لايزيلها عن صورتها فى الكتاب، ولا يغير معناها نحو قول تعالى ﴿وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (٤) .«وهل يُجازى إلاّ الكفور».

ثانيها: أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة، وحركة بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها فى الكتاب نحو قوله تعالى :﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾(٥).، و«﴿ربُّنا بَاعد بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

---

(١) صحيح البخارى حـ ٦ ص ١٨٥، المطبعة الأميرية.

(٢) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى حـ١ ص ٢١.

(٣) الإتقان للسيوطى حـ ١ ص ٤٥، مطبعة الحلبي.

(٤) سبأ : ١٧ (٥) سبأ : ١٩.

ثالثها: أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتاب ، ولا يغير معناها، نحو قوله تعالى ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة﴾ (١) و﴿زَقْيَة واحدة﴾، ﴿وكالصوف المنفوش﴾، و﴿كَالْعِهْنِ﴾(٢).

رابعها: أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها نحو قوله تعالى ﴿وطلع مَّنضُودٍ﴾ فى موضع «وَطَلْحٍ مَنضُودٍ »(٣).

خامسها: أن يكون الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها، نحو قوله تعالى :﴿وانظُرْ إِلَى العظام كَيْفَ نُنشِزُها ﴾(٤). و﴿ننشرها﴾.

سادسها: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله :﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الحقّ بالموْت﴾ فى موضع ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (٥).

سابعها: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله تعالى :﴿وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾(٦) ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾(٧).

رأى ابن قتيبة بين المؤيدين والمعارضين:

من المؤيدين لابن قتيبة : الشيخ محمد بخيتب المطيعى حيث ردّ على ابن عبدالبر الذى أنكر أن يكون معنى الأحرف اللغات لاختلاف عمر وهشام، ولغتهما واحدة.

قال الشيخ بخيت :«وأقول : إن معنى نزوله باللغات المذكورة هو أن الله أذن بقراءته بكل لغة ، فلا مانع أن هشاماً يقرأ بلغة أخرى غير لغة قريش أيضاً، فيكون قد تعلم من النبى ﷺ القراءة بلغة قريش ، وبلغة غيره» (٨).

---

(١) يس: ٢٩. (٢) القارعة: ٥.

(٣) الواقعة: ٢٩. (٤) البقرة: ٢٥٩.

(٥) ق: ١٩. (٦) يس: ٣٥.

(٧) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ٢٨، ٢٩: تلخيص وتصرف.

(٨) الكلمات الحسان فى الحروف السبعة ص ٥٩: الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقاً.

ومن المؤيدين لابن قتيبة الدكتور إبراهيم أنيس لأنه استدل برأى ابن قتيبة فى أن المراد بالأحرف اللغات قال : «وقال ابن قتيبة فى كتابه «المشكل»: «فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيّه ﷺ بأن يقرىء كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم، فالهذلى يقرأ: عتى حين، والأسدى يقرأ «تعلمون» بكسر التاء، والتميمى يهمز، والقرشى لايهمز»(١).

ومن المعارضين لرأى ابن قتيبة ابن عبد البّر:

قال ابن عبد البر :«أنكر أكثر أهل العلم أن يكون معنى الأحرف اللغات لما تقدم من اختلاف هشام وعمر، ولغتهما واحدة »(٢).

وفى رأى ابن عبد البر أن المراد بالأحرف السبعة «سبعة أوجه من المعانى المتفقة بالألفاظ المختلفة نحو: أقبل ـ وهلم ـ وتعال» (٣).

وأراد ابن حجر أن يوفق بين الرأيين: رأى ابن قتيبة، ورأى ابن عبدالبر فقال: «ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد بالأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك فى سبع لغات» (٤).

ب ـ رأى الطبرى:

يقول ابو جعفر بعد عرضه للأحاديث الشريفة فى نزول القرآن على سبعة أحرف:«صحّ وثبت أن الذى نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجميع إذ كان معلوماً أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبعة بما يعجز عن إحصائه.

فإن قال : وما برهانك على أن معنى قول النبى ﷺ : أنزل القرآن على سبعة أحرف، وقوله: أمرت أن اقرأ القرآن على سبعة أحرف، هو ما ادعيته من أنه نزل بسبع لغات، وأمر

---

(١) اللهجات العربية ص ٢٨ الدكتور إبراهيم أنيس.

(٢) لطائف الإشارات فى علم القراءات لشهاب الدين القسطلاني، ورقة ٩ ، مخطوط رقم ١٦١ ـ دار الكتب ـ قراءات.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

(٤) المرجع نفسه والصحفة.

بقراءته على سبعة ألسن دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب، وترهيب، وقصص، ومثل ، ونحو ذلك من الأقوال، فقد علمت أن قائلى ذلك من سلف الأمة، وخيار الأئمة»[1]؟.

ويجيب الطبرى عن هذا الاعتراض بقوله: «إن عمر بن الخطاب، وعبدالله بن مسعود وأبى بن كعب تماروا فى القرآن، فخالف بعضهم بعضاً فى نفس التلاوة دون باقى ذ لك من المعانى، ثمّ احتكموا فيها إلى النبى ﷺ، فاستقرأ كل رجل منهم، ثم صوّب جميعهم فى قراءاتهم على اختلافها.

ثم قال: ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم، والوعد والوعيد، وما أشبه ذلك لكان مستحيلاً أن يصوب جميعهم ﷺ ويأمر كل قاريء منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على الذى هو عليه»[2].

رأى الطبرى بين المؤيدين والمعارضين:

يؤيد الطبرى فى هذا الرأى أبو عبدالله الزنجانى، فقد قال: «المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعانى المتفقة، بالألفاظ المختلفة نحو: أقبل ـ وهلم ، وتعال، وامض، وأسرع، وأخر، ومهل، وامض وأسر، وهذا الوجه هو ما اختاره الطبرى فى مقدمة تفسيره.. ثم يقول الزنجانى :«وهذا الوجه هو الذى لايراه العقل بعيداً، فإن الاختلاف لو كان فى المعنى بسبعة أوجه يفسر بها المعنى، فقد يفضى إلى معنين متضادين. فكيف يجيز النبى ﷺ خلاف ما أراد الله بيانه من الآية. ثم استدلّ بما رواه الأعمش عن أنس أنه قرأ هذه الآية:« إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وأصوب قِيلاً » [3]. فقال له بعض القوم : يا أباحمزة، إنما هى أقوم، فقال: أقوم، وأصوب، وأهدى واحد»[4].

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٥ بتصرف.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦.

(٣) المزمل :٦.

(٤) تاريخ القرآن للزنجانى ص ١٥،١٦.

ويعارض الطبرى فى هذا الرأى الدكتور صبحى الصالح فيقول: «إن علماء الغرب يؤيّدون وجهة الطبرى لحاجة فى نفس يعقوب، وتشبث «بلا شير» بهذا يؤكد أن نظرية القرآن بالمعنى كانت بلا ريب أخطر نظرية فى الحياة الإسلامية لأنها أسلمت النص القرآنى إلى هوى كل شخص يثبته على ما يهواه» (١).

ج - رأى أبى شامة:

نقل العلامة أبو شامة أنه نزل أولاً بلسان قريش، ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن تقرأه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب، ويدل على ما قاله ما ثبت أن ورود التخفيف كان بعد الهجرة، كما يتضح من حديث أبى بن كعب أن جبريل لقى النبى ﷺ وهو عند «أضاة» بنى غفار، فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لاتطيق ذلك»(٢).

رأى ومناقشة:

هذه الآراء السابقة لانستطيع أن نخرج منها بحقيقة نستريح إليها نفوسنا، وتطمئن إليها قلوبنا فكثرة الأفكار، وتنازع الأدلة، وتناقض الحجج قد تؤدى إلى الجدل الذى لانفع وراءه، والحديث يشير معناه إلى حقيقة مؤداها أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش، وفيه من لغات العرب الأخرى الشىء الكثير، بل لاأبالغ إذا قلت إنه لاحتوائه هذه اللهجات غير القرشية يكون تحدّيه للعرب أتمّ، وقدرته فى باب الإعجاز أبلغ من نزوله بلهجة واحدة هى اللهجة القرشية. وقد لمس هذا المعنى ابن الجزرى فأصاب المحزّ حينما قال: «لو جاء القرآن الكريم كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فلا تتم الحجة من الإعجاز، إذ يقال مثلاً.. إنه جاء بما لاقدرة للعرب على جنسه، كما لايصح

---

(١) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح، ص ١٣٧.

(٢) لطائف الإشارات: ورقة ٩.

أن يقول البصير للأعمى: قد غلبتك بنظرى لأن الأعمى يقول له: إنما تتم لك الغلبة إذا كنت قادراً على النظر وكان نظرك أقوى من نظري، أما إذا فقد أصل النظر فكيف تصح المعارضة»[1].

من هذا نرى أن الحديث يريد أن يبين أن القرآن الكريم نزل بهذه اللهجات المتعدّدة للإعجاز كما قلت، وليتيح للعرب من ناحية أخرى التدبر فى معانيه، وكثرة التلاوة فيه، لأنه يحتوى من لهجاتهم ما يتيح لهم هذا النفع الكبير منه، ولكن هذه اللهجات ليست كثيرة للحد الذى يطغى على لهجة قريش، فإن لهجة قريش هى اللهجة الغالبة ومعظمه نزل بها، لأنها قبيل الإسلام «أصبحت اللغة السائدة فى المواسم والأسواق وعلية القوم من الفصحاء الذين لم ينتموا إلى قريش كانوا يتخذون لغة قريش لغة الأدب والشعر.. كذلك كان لابد لأولئك الشعراء الذين جاءوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعجة، أو كشكشة لينالوا إعجاب سامعيهم، ولا يكونوا موضع سخريتهم وهزئهم، وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضل شاعر على شاعر فى تلك المناظرات إذا كان المقياس مختلفاً وأداة القول متباينة، ولهذا توحدّت القبائل فى لغة أدبية ممتازة، مختارة الألفاظ، يعمد إليها الشاعر أو الخطيب كلما عنّ له القول ، وتلك كانت اللغة النموذجية»[2].

ومن حق القارىء أن يسأل : إذا كان الأمر كذلك فى نزول القرآن الكريم بلهجة قريش وغيرها فهل معنى ذلك أن القارىء غير القرشى يقرأ بلغته أو بلهجته التى تعود بها النطق كما يدعى ذلك بعض العلماء من المحدثين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول : لم تكن قراءة القرآن الكريم تجرى على ألسنة العرب على اختلاف قبائلهم باللهجات التى نشأوا عليها، لأن فى ذلك الفوضى التى لاحدّ لها فى كتاب الله الذى تعهد سبحانه بحفظه وصيانته على الرغم من كرِّ الأعوام وتتالى القرون: «إن نحن نزّلنا الذكر، وإنا له لحافظون».

(١) نقلا من مقال للمرحوم الشيخ عبدالجواد رمضان: القرآن واللغة، مجلة الأزهر: المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.
(٢) من كتاب اللهجات العربية: للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢٨،٢٧، بتصرف وتلخيص.

ولعل سائلاً آخر يقول: إن عيوب بعض اللهجات العربية، كالفحفحة وهى ابدال الحاء عيناً قد قرأ بها بعض الصحابة مثل ابن مسعود الذى كان يقرأ «عتّى حين» فى قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١).

وللإجابة عن هذا التساؤل أيضاً أقول: إن ابن مسعود لعله سمع من النبى عليه السلام هذه القراءة فى هذه الآية فحسب بدليل أن هذه القراءة لم تكن فى غير سورة يوسف مع تكرار «حتى حين» فى غيرها. و هذا يدل دلالة واضحة على أن ابن مسعود تقيّد بالقراءة المسموعة من النبى عليه السلام فحسب، ولو كانت القراءة مطلقة من غير قيد الرواية والسماع كما يدعى بعض المحدثين لقرئت «حتي» (عتي) فى كل آية توجد فيها.

ومالى أذهب بعيداً والموقف يشير إلى حل قريب آخر، ذلك ان ابن مسعود قد يكون فى قراءته «عتى حين» غلب عليه لسانه الهذلى فقرأها بلسان قومه كما سمعها، ومن ثمّ تكون إشارة عمر فى هذا المقام إشارة لها دلالتها، تضع النقاط على الحروف فى مجال قراءة القرآن، يقول الرواة: إن عمر حينما سمع هذه القراءة من ابن مسعود نبهه إلى «أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش، لابلغة هذيل»، ومعنى ذلك أن عمر أراد أن يسد باب القراءة الواسع باللغات المختلفة من غير أن تكون هناك رواية تسند إلى النبى عليه السلام فى ذلك.

وأردت أن أتحقق من هذلية ابن مسعود فوجدت ابن الأثير يقول: «هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب.. إلى أن قال: ابن تميم بن سعد بن هذيل. وأمه أم عبد بنت عبدود بن سواء من هذيل أيضاً» (٢).

فالقراءات إذن ليس مصدرها هذه اللهجات المتعدّدة، وإنما مصدرها قراءة النبى عليه السلام.

وإن تعجب فعجب قول من قال: «إن القراءات السبع ليست من الوحى فى قليل ولا

---

(١) يوسف: ٣٥.

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ ٣ ص ٢٥٦ ابن الأثير.

كثير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ولامغتمزاً فى دينه، وإنما هى قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها، وأن ينكروا بعضها وقد حاولوا فيها بالفعل وتماروا، وخطأ فيها بعضهم بعضاً، ولم نعلم أن أحداً من المسلمين كفر أحداً لشىء من هذا، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن» (١).

إن كل كلمة فى هذا النص تحمل دليل زيفها، وحجة بطلانها، وهذا حكم ظالم صدر من غير تروٍّ فى القضية، بل من غير دراسة لها، ولم يكن كما يجب أن يكون.

نعم قد تكلم الباحثون قبله من علماء الفكر الإسلامى فى القراءات، واختلفت آراؤهم حولها، وبخاصة فى معنى الأحرف السبعة، هذا الاختلاف الذى عرضه السيوطى فى كتابه «الإتقان» فبلغ اربعين رأياً، ولكن لم نجد من هذه الآراء المتعدّدة رأياً واحداً يقول مثل هذا القول المجحف.

وثمة دليل آخر يؤيد ما ذهبت إليه من أن القراءات ليس مرجعها اللغات المختلفة للقبائل على الإطلاق من غير أن تقيد بالسند أو الرواية.. أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اختلف مع هشام بن حكيم فى قراءة سورة الفرقان ـ كما سبق بيانه ـ وكلاهما قرشى ، فبم نفسر هذا؟ هل اختلفت قريش وهى قبيلة واحدة فى قراءتها؟.

مرجع ذلك فى رأيي أن أحدهما سمع من النبى ﷺ قراءة بعض آيات من سورة الفرقان بلهجة ما، وسمعها الثانى بلهجة أخرى، فأخذ كل منهما بالقراءة التى سمعها، وهذا لايتنافى فى أنهما قرآ بغير لهجتهما، لأن القرآن الكريم لم تنزل كل كلمة فيه بلهجات متعدّدة، وإنما نزل بعض آياته ببعض اللهجات فحفظها الصحابة كما سمعت بغض النظر عن تلاقيها مع لهجتهم أو عدم تلاقيها.

ويقرر الرافعى أن القراءات ترجع إلى عهد النبى ﷺ، وعهد أصحابه فيقول :«يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم فى التلاوة إلى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، فلقد اشتهر بالإقراء منهم سبعة، عثمان، وعلى، وأبى، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء،

(١) فى الأدب الجاهلى : للدكتور طه حسين ص ٩٥، طبع دار المعارف بمصر.

وأبو موسى الأشعرى، وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين فى الأمصار، وكلهم يسند إلى رسول الله ﷺ»[1].

وفى إشارة ابن حجر فى كتابه «فتح الباري» تأكيد لهذه الحقيقة التى ذهبت إليها فقد نقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال:

«أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته إلى لغة أخرى للمشقة.

قال ابن حجر: وتتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى ﷺ»[2].

أمّا الناحية العددية فى الحديث الشريف (سبعة أحرف) فإنى أوافق أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس على أن المراد مجرّد التعدد، وليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة وذلك «لأن العدد سبعة يعبّر عن الكثرة والتعدد فى الأساليب العربية» [3].

القراءات السبع:

ليست القراءات السبع فى الحقيقة هى الأحرف السبعة الواردة فى الحديث المتقدمّ ذكره، وإنما هى بعض الأحرف ، وقد جمعها الإمام ابن مجاهد باختياره الخاص واشتهرت حتى ظنّ الكثير من الناس أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع.

وقد كان الإمام أبو العباس أحمد بن عمّار المهدى على حق فى نقده لابن مجاهد حيث يقول :«ولقد فعل مسبّع هؤلاء السبعة ما لاينبغى له أن يفعله، وأشكل على العامّة، حتى جهلوا ما لايسعهم جهله، وأوهم كل من قل نظره أن هذه هى المذكورة فى الخبر النبوى لاغير، وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة» [4]

(١) اعجاز القرآن: مصطفى الرافعي، ص ٥١، مطبعة الاستقامة.
(٢) فتح البارى: لابن حجر ، حـ ٩ ص ٢٢، مطبعة البهية.
(٣) اللهجات العربية، ص ٣٩.
(٤) النشر، حـ ١ ص ٣٦.

أما هؤلاء الأئمة السبعة الذين جمع ابن مجاهد قراءاتهم بعد اختيارها من قراءات تعدّدتْ فهم:

«أبو عمرو بن العلاء، المتوفى ١٥٤هـ - عبدالله بن كثير م ١٢٠ هـ - نافع بن نعيم م ١٦٩هـ - عبدالله بن عامر اليحصبى م ١١٨ هـ - عاصم بن بهدلة الأسدى م ١٢٨ هـ - حمزة بن حبيب الزيات م ١٥٦ هـ - على بن حمزة الكسائى م ١٨٩هـ.

وقد أجمعوا على هذه القراءات السبع، لأن أصحاب الأهواء كثروا، وأخذوا يقرءون بما لاتحل تلاوته، تاركين المصحف الإمام، وخوفاً من أن يتسع الخرق على الراقع، وتمتد يد البدعة إلى كتاب الله لتحرّف فيه، نهض قوم «للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا - فى كل مصر وُجه إليها مصحف - أئمة مشهورين بالثقة والأمانة فى النقل، وحسن الدراية، وكمال العلم، أفنوا عمرهم فى القراءة والإقراء واشتهر أمرهم ، وأجمع الناس على عدالتهم، ولم تخرج قراءتهم عن خط مصاحفهم»[١].

وهذه القراءات السبع ليست هى كل القراءات التى نسبت إلى النبى عليه السلام، وإنما هى غيض من فيض، وقد ظن بعض الناس خطأ أن هذه القراءات السبع هى المعتبرة وما عداها شاذ. قال ابن الجزري:«ولست أدرى كيف وصلوا إلى هذا الحكم مع أن أبا عبيدالقاسم بن سلام «جعلهم خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة، وتوفى سنة ٢٢٤هـ»[٢].ويؤكد أبو حيّان الأندلسى هذه الحقيقة فيقول: «ليس فى كتاب ابن مجاهد، ومن تبعه من القراءات المشهورة إلاّ النزر اليسير، فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راوياً»[٣]

وقبل أن أنتهى من هذا البحث، أحب أن أشير إلى أن هذه القراءات السبع متواترة لأن مذهب الأصوليين وفقهاء المذاهب الأربعة، والمحدثين والقراء يؤكدون «أن التواتر شرط فى

(١) اتحاف فضلاء البشر للدمياطي، ورقة ٥، مخطوط دار الكتب رقم ٧٣ - قراءات دار الكتب المصرية.
(٢) النشر، حـ ١ ص ٣٣. (٣) الإتقان، حـ١ ص ٨٠.

صحة القراءة، ولاتثبت بالسند الصحيح غير المتواترة، ولو وافقت رسم المصاحف العثمانية والعربية »[1].

ويرى الزركشى «أنها متواترة عن الأئمة السبعة، أمّا تواترها عن النبى ﷺ ففيه نظر، فإن اسنادهم بهذه القراءات السبع موجود فى كتب القراءات، وهى نقل الواحد عن الواحد»[2].

ولم يشذ من العلماء عن هذا المجال غير ابن الحاجب الذى نص فى كتابه «مختصر المنتهى» : «أن القراءات السبع متواترة فيما ليس من قَبيل الأداء كالمد والإمالة ، وتخفيف الهمزة ونحوها»[3].

ولم يسلم ابن الحاجب من النقد فى هذا الرأى فقال الدكتور/ إبراهيم حمودة: «ليت شعرى من الذى تقدم ابن الحاجب بهذا القول، فقص أثره ؟ فلو فكر الشيخ فيما قاله لما أقدم عليه، ولبيت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وأثرها كما أخلى غيره كتبهم منها، بل ليته سكت عن التمثيل[4].

ولعلىّ بهذا العرض قد وفقت لبسط قضية القراءات السبع والأحرف السبعة، ليتبين القارىء المسلم جوانب الحق فى هذا الموضوع الذى تلعب فيه الأهواء استناداً إلى النظرة القصيرة والأفكار المهوشة، والعقول التى لم تعش فى رحاب الدراسات القرآنية فترة طويلة تؤهلها إلى إلقاء الأحكام فى روية وتبصر، وبخاصة فى مجال هذا القرآن العظيم الذى تولى الله تعالى صيانته، لأنه كما يقول ابن الجزري: «لم يخل الله تعالى عصراً من الأعصار ، ولو فى قطر من الأقطار من إمام حجة قائم، ينقل كتاب الله تعالى يتقن حروفه وروايات ، ويصحح وجوهَه وقراءاته، يكون وجوده سبباً لوجود هذاالسبب القويم على مرّ الدهور، وبقاؤه دليلاً على بقاء القرآن العظيم فى المصاحف والصدور» [5].

* * *

(١) شرح ابن القاصح على الشاطبية، ص ٦، المطبعة الأزهرية.
(٢) الإتقان ، جـ ١ ص ٨٠.
(٣) مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب، ص ٤٩، مطبعة كردستان العلمية.
(٤) القراءات واللهجات: للدكتور إبراهيم حموده، ص ٧٠.
(٥) النشر لابن الجزري، حـ١ ص ٥٤.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ إتحاف فضلاء البشر للدمياطى ـ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٣ ـ قراءات.

٢ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة ثالثة نشر الحلبى.

٣ـ أسد الغاية فى معرفة الصحابة لابن الآثير طبع ١٢٨٦هـ.

٤ـ إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعى ـ مطبعة الاستقامة.

٥ ـ تاريخ القرآن للزنجانى ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٦ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ـ طبع عيسى الحلبى.

٧ـ تفسير الطبرى ـ طبع دار الجيل ـ بيروت.

٨ ـ شرح ابن القاصح على الشاطبية ـ المطبعة الأزهرية.

٩ـ صحيح البخارى ـ المطبعة الأميرية.

١٠ـ فتح البارى لابن حجر ـ المطبعة البهية.

١١ـ فى الأدب الجاهلى ـ الدكتور طه حسين ـ نشر دار المعارف بمصر.

١٢ـ القراءات واللهجات للدكتور إبراهيم حمودة ـ مطبعة السعادة ـ طبعة أولى.

١٣ـ الكلمات الحسان فى الحروف السبعة للشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقاً المطبعة الخيرية.

١٤ـ لطائف الإشارات فى علم القراءات ـ لشهاب الدين القسطلانى ـ مخطوط ورقة ١٦١ دار الكتب المصرية.

١٥ـ اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس ـ مطبعة الرسالة.

١٦ـ مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ـ مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٨.

١٧ـ مجلة الأزهر ـ المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.

١٨ ـ مجلة الفكر الإسلامى ـ مجلة شهرية إسلامية فكرية ـ تصدرها دار الفتوى ـ بيروت.

١٩ـ مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب ـ مطبعة كردستان العلميّة.

٢٠ـ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

* * *

٢. من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم(*)

التقاء الثقافات بين الأمم المختلفة ظاهرة معروفة سجلها التاريخ فى صفحاته الخالدة، وهذا أمر طبيعى، لأن الفكر الإنسانى يدور فى فلك واحد، وهو الإنسان نفسه، من حيث ارتباطه بالحياة، من حيث حاجياته ومطالبه، من حيث تقدمه وتطوره، من حيث نظرته إلى الحياة، وفهمه لطبيعة الوجود، من حيث ارتباطه بقوة هى أعظم من قوته، تسيطر عليه، وترسم له خطوط رسالته فى الحياة.

ولّما فتح المسلمون هذه البلاد المتعدّدة، باسم العقيدة، وباسم الإسلام، لم يبخلوا بثقافتهم الإسلامية على البلاد التى فتحوها، فقدموا لهم من زادها الفكرى ما أنار لهم جوانب الحياة، فكرا وعقيدة، سياسة واجتماعا، أدبا وثقافة، إصلاحا وتهذيبا.

ففى بلاد الأندلس مثلا تحتل الثقافة الإسلامية المكان الأعلى فى نفوس أبناء هذه البلاد، مما هال أحد المفكرين الأسبان، فكتب يقول:

«إن أرباب الفطنة والتذوق ـ سرهم رنين الأدب العربي، فاحتقروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وأنهم يعجبون بشعر العرب، وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح، فأين اليوم من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل غير رجال الدين. إلى أن يقول... إن الجيل الناشئ من المسيحيِّين الأذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربى واللغة العربية، وإنهم ليلتهمون كتب العرب، ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان» (١).

ومن الأندلس سطع نور الحضارة الإسلامية على أوربا، فأنارت أمامها الطريق إلى الحضارة الأوربية التى تمت وتطورت فغزت آفاق الفضاء.

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ يونيو سنة ١٩٧٠، تصدرها وزارة الأوقاف ـ الكويت.

(١) الإسلام والمستشرقون: الأستاذ زكريا هاشم ص ١٧: طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥م.

ولما ضعف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها تطلع الاستعمار باسم هذا الحضارة إلى السيطرة على بلادهم، واغتصاب ثرواتهم، وتبديد ما لديهم من قيم، وسلب ما بقى لهم من تراث.

على أن التراث الإسلامي، وهو أثمن ما تملكه الأمة الإسلامية والعربية، لم ينج من خطر هذا الاستعمار، بل إن عدّة مؤامرات حيكت حوله، من أجل جمعه والاستيلاء عليه، بأى ثمن، وبأية طريقة، ليفقد المسلمون هذا التراث الذى يعتزون به من ناحية، وليقدمه لهم المستشرقون بعد ذلك مشوها من ناحية أخري، ليكون وسيلة تضليل تشكك المسلمين فى هذا التراث لينقطع الخيط الذى يربط الأمة الإسلامية بماضيها التليد، وأمجادها السالفة، فتعيش بلا تاريخ، وتحيا بلا ماض، ومن ثم تهتز ثقتها بنفسها، فتكون كالشجرة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وقد عثر فى مكتبة (دير الشوير) بلبنان على وثائق تثبت هذه الحقيقة، ومن هذه الوثائق الوثيقة التى تنص على أنه (فى سنة ١٦٧١م أرسل عالى الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية) (١).

أليست هذه الوثيقة تثبت فى صراحة ووضوح تآمر الاستعمار الأوربى منذ القرن السابع عشر على تراثنا لتبديده، أو تشويهه، أو مسخه؟ واذا فقدت الأمة تراثها، فقدت أغلى ما تملك، بل فقدت نفسها، ومسحت وجودها من التاريخ.

ولاشك أن تراثنا الإسلامى والعربى مصدره الأول القرآن الكريم، فهو الينبوع الذى استقت منه المعارف والعلوم ما أمدها بالحياة، وما بعث فيها الحركة والازدهار.

وهذا القرآن الكريم هو الخطر الأكبر فى وجه الاستعمار، فما دام المسلمون يحافظون على القرآن حفظا وعلما وعملا فإن مطامحهم تتحطم على صخرته العاتية، لأنه قوة تعمل عملها فى النفوس، فتحول الضعف إلى قوة، والعجز إلى حركة، واليأس إلى أمل: وصدق الله العظيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(٢).

(١) الإسلام والمستشرقون ص ٢١.
(٢) الحشر: ٢١.

من أجل ذلك صاح (فلا دستون رئيس الوزارة البريطانية، وبيده القرآن الكريم فى مجلس العموم البريطانى فى عهد الملكة فكتوريا وهو يقول: (ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم).

لهذا فقد أخذ المستشرقون على عاتقهم التشكيك فى هذا القرآن الكريم وذلك بترجمته، وباقامة الدراسات فى مجاله.

وحينما بدا لى أن أكتب فى هذا الموضوع، وعشت فى المراجع التى كتبت عن المستشرقين فى مجال الدراسات الإسلامية راعنى هذا المجهود الضخم الذى بذل فى ترجمة القرآن الكريم من العربية إلى اللغات الأوروبية منذ سنة ١١٤٣م حيث ظهرت أول ترجمة للقرآن الكريم باللاتينية على يد المستشرق (روبرت أو تشتر) إلى يومنا هذا، وراعنى أكثر هذا السيل المتدفق من الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم، أقول: لقد تملكتنى الدهشة، واستبد بى الألم، كيف جندت هذه النفوس لتحمل هذا العبء الثقيل؟ وما السر وراء هذه الجهود؟ ولماذا وقف علماونا متجمدين أمام هذه الأعمال الضخمة، لِمَ لم تعرض؟ لم لم تنقد؟ لم لم تقم حولها الدراسات، إن الإسلام قوة ويخشى المستعمرون أن يجذب بقوته الكثير من أبناء جلدتهم، فحاول الكثير منهم أن يشوهوا هذا الإسلام فى مصدره الأول ودعامته الأولي، وذلك بإلاجهاز على كتاب الله.

ومن هؤلاء المستشرقين الذين حملوا معاول الهدم المؤرخ (برايس) الذى قال: (إن احتكاك الإسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته).

ومن هؤلاء (لنز) الذى قال: (إن الإسلام قد يبقى إذا ترك لنفسه، أما إذا احتك بالمدينة الحديثة فإنه يموت لا محالة).

ومن هؤلاء (بيشون) الألمانى القائل: (إن انحطاط المسلمين يرجع إلى أسباب متصلة بالإسلام نفسه لعدم موافقته روح التمدن) (١).

وانتشرت حركة الاستشراق فى أوربا وأمريكا، ومازالت فى نمو مستمر ومازالت المطابع،

(١) من مقدمة كتاب «المستشرقون والإسلام».

ودور النشر تخرج لنا الكثير من تراثنا العربى والإسلامى محققا بيد هؤلاء المستشرقين، وأن الكثير منه قدموه لنا ناقص التكوين أو مشوه الولادة، أو محشواً بالأباطيل.

والذى يدعو إلى العجب حقّا أن المثقفين العرب الذين تتلمذوا على هؤلاء المستشرقين عاشوا بأفكارهم، لم يحاولوا أن يجددوا، لم يحاولوا أن يردوا الحق إلى نصابه، بل كانوا مفتونين بآراء هؤلاء المستشرقين يرددونها من غير وعي، كأنها قرآن منزل لا يقبل النقاش أو الجدل.

فباسم حرية التفكير التى يدعونها تحطمت المقاييس، وأوشك التراث على الضياع مع أن حرية التفكير التى تقوم على المنطق، بعيدة عن الهوي، بريئة من النوايا السيئة لا تتعارض مع الإسلام، بل لا أبالغ إذا قلت: إنها مبدأ من مبادئه ودعامة من دعائمه، لأن الإسلام، أتاح للعقل الإنسانى هذه الحرية فى التفكير لأنه ابن الحياة، ومن حقه أن يتعرف عليها معرفة كاملة، وبهذه المعرفة يشتد عوده، ويتسع إدراكه، ومن ثم يستطيع أن يتطلع إلى آفاق أرحب وإلى مجالات أوسع بحيث لا يقف عند ظواهر الأشياء، وإنما يتعمق فى كنهها ليدرك أسرار الوجود، وحقيقة الحياة، وبذلك يساعد الإنسانية فى تقدمها وتطورها.

ولو سار المستشرقون فى بحوثهم ودراساتهم وراء هذه الغاية لأفادوا الإنسانية، وقدموا لها المصباح الذى ينيرلها دياجير الحياة، ولكن التعصب الأعمى وقف حائلا بين الكثير منهم وبين هذه الغاية، فكانت معظم أفكارهم حول الإسلام تحتاج إلى تصحيح أو تعديل حتى لا يقع ناشئة المثقفين فى حبائلها، فتلتوى فى نفوسهم وسائل التفكير.

وهذا الإنتاج الضخم فى مجال الدراسات القرآنية الذى أشرت إليه سابقا قد يجهله الكثير من المثقفين العرب مع أن الواجب يقضى أن نفهم حقيقة ماضينا وحاضرنا، وأن نقرأ ما يكتب لنا أو علينا.

من أجل ذلك أحب أن أضع بين يدى القارئ صورة لهذا المجهودات فى الدراسات القرآنية التى قام بها المستشرقون، وهى تتمثل فى أمرين هما:

(١) ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية.

(٢) الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم.

أولاً: ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية:

كانت أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة اللاتينية: وقام بها المستشرق روبرت أوتشتر: فى عام ١١٤٣م وقد كان روبرت أسقفا فى أسبانيا، وتثقف بالثقافة العربية، واشتغل بالرياضة والفلك ثم صرف عنهما إلى ترجمة القرآن باللغة اللاتينية وقد استعان باثنين من العرب فى هذه البلاد.

اللغة الفرنسية:

وقد ترجم القرآن الكريم باللغة الفرنسية على يد جماعة من المستشرقين الفرنسيين أذكر من هؤلاء: الدكتور (ماردروس) وقد ولد فى القاهرة ١٨٦٨م، وتعلم فى مدرسة الآباء اليسوعيين وترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية عام ١٩٢٦م.

= مونتيه: من أصل سويسري، وانتخب عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق منذ نشأته، وترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية ١٩٢٩م، ونقلت الترجمة إلى اللغة الإيطالية فيما بعد.

= أو كتاف بل: ولد فى الجزائر حيث تلقى علومه هناك، وعين مديرا لمعهد الدراسات العليا، وقد اشترك مع محمد التيجانى فى ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية.

= بلا شر: تلقى دروسه الثانوية فى الدار البيضاء، وتخرج بالعربية من كلية الآداب بالجزائر.

ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية فى ثلاثة أجزاء طبع باريس ١٩٥٢م.

اللغة الأيطالية:

ومن المستشرقين الايطاليين الذين نقلوا القرآن الكريم إلى اللغة الإيطالية: = الأب ماراتش: وقد ولد فى ضاحية (لوكا) بايطاليا، وتعلم العربية، وترجم القرآن الكريم إلى الإيطالية ترجمة حرفية سنة ١٦٩١م.

اللغة الإنجليزية:

ومن المستشرقين الإنجليز الذين ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية: (ج. رودويل) ترجم القرآن الكريم فى ٥٦٢ صفحة طبع لندن ١٨٧٦م.

ادوارد هنرى بالمر: ترجم القرآن الكريم سنة ١٨٨٠م طبع أكسفورد.

جورج سيل: ترجم القرآن الكريم فى ٤٧٠ صفحة ١٨٩٢م.

يقول الأستاذ نجيب عفيفي: «وقد نجح فى ترجمته فذكرها فولتير فى القاموس الفلسفي، وأعيد طبعها مرارا، إلا أنها اشتملت على شروح وحواش، ومقدمة مسهبة هى فى الحقيقة بمثابة مقالة إضافية عن الدين الإسلامى عامة حشاها بالإفك، واللغو، والتجريح وقد نقلها إلى العربية ابن الهاشم العربى ١٩١٣م طبع القاهرة» (١).

ما رمادوك وليم بكثول: ترجم معانى القرآن الكريم سنة ١٩٣٠م قصد بعدها مصر لمراجعة ترجمته مع بعض العلماء، وطبعت طبعة ثالثة فى ٦٩٣ صفحة طبع لندن ١٩٦٢م.

ريتشارد بل: ترجم القرآن الكريم سنة ١٩٤١م وكان جل غرضه من هذه الترجمة تحليل السور المتفرقة بوضع قوانين النقد الأدبى لها.

اللغة الهولندية:

ومن المستشرقين الهولانديين كرامز.

ترجم القرآن إلى الهولندية ١٩٥٦ طبع أمستردام بروكسل.

اللغة الألمانية:

ومن المستشرقين الألمان:

فردريخ شواللى: وهو تلميذ المستشرق نولدكه، وقد أعاد طبع تاريخ النص القرآنى لنولدكه بعد تحقيقه، والتعليق عليه فى مجلدين طبع (ليبزيج ١٩٠٩ ـ ١٩١٩).

---

(١) المستشرقون: نجيب عفيفى جـ ٢ ص ٤٧١.

نولدكه: أشهر آثاره: أصل وتركيب سور القرآن طبع ١٨٥٦م ثم أعاد النظر فيها وترجمها إلى الألمانية ونشرها بعنوان: تاريخ النص القرآنى سنة ١٨٦٠م.

اللغة الدانماركية

يدرسين: ندب فى عام ١٩١٦ إلى جامعة كوبنهاجن محاضرا، فترجم القرآن الكريم إلى الدانمركية، طبع استوكهولم ١٩١٧م.

ثانيا: الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم.

باللغة الفرنسية:

(توافق القرآن والانجيل) بحث نشره المستشرق يوستل الذى ولد فى مدينة بارنتون من أعمال نورمندى ونشر سنة ١٥٤٣م.

(السامريون فى القرآن) بحث للمستشرق جوزيف هاليفى من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بالسوربون ونشر بحثه فى المجلة الآسيوية ١٩٠٨م.

(وجه الشبه بين القرآن وشعر أمية بن أبى الصلت) بحث للمستشرق الفرنسى هيارنافه، وقد نشر بحثه سنة ١٩٠٤م.

(بحث عن القرآن الكريم) للمستشرق البارون كارادى فو وقد نشر بحثه ١٨٩٨م.

(دراسة آية من القرآن الكريم) للمستشرق جيم جريفو وقد نشر بحثة ١٩١٤م فى مجلة الشرق المسيحى.

(القنديل والزيت فى القرآن) للمستشرق الفرنسى كلرمون ـ جانو وقد نشر بحثه فى مجلة تاريخ الأديان ١٩٢٠م.

(النفس فى القرآن) للمستشرق بلاشر وقد نشر بحثه فى مجلة الساميات ١٩٤٨م.

باللغة الإنجليزية:

(سلك البيان فى مناقب القرآن) للمستشرق الإنجليزى بنريس وقد طبع فى لندن ١٨٧٣م.

(التطور التاريخى للقرآن) للمستشرق الإنجليزى كانون ادوارد سل وقد طبع فى مدراس ١٨٩٨م.

(الإعجاز فى القرآن الكريم) للمستشرق الإنجليزى روبسون وقد نشر ١٩٣٣م.

وقد نشر كارل فوللـيرس النمساوى أستاذ اللغات الشرقية بجامعة فينا بحثا بعنوان (القرآن بلهجة مكة الشعبية).

باللغة الألمانية:

(نجوم الفرقان فى أطراف القرآن) بحث للمستشرق الألمانى فلوجيل المولود فى ١٨٠٢م والمتوفى ١٨٧٠م.

(الكلمات الأجنبية فى القرآن) للمستشرق الألمانى فرانكيل وهى رسالته فى الدكتوراه. وقد ولد فى ١٨٥٥ ـ ١٩٠٩م.

(تفسير القرآن وترتيبه) للمستشرق هيرتوريج هير طبع ١٩٠٢م.

(حروف النفى فى القرآن الكريم) طبعت ١٩١١م، والطبعة الثانية بتوسع ١٩١٤م.

(معجم قراء القرآن وتراجمهم) طبع ١٩١٢م.

(تحقيق القراءات الشاذة فى كتاب المحتسب لابن جنى طبع ١٩٣٣م.

(كتاب مختصر القراءات) لابن خالويه طبع ١٩٣٣م.

وهذا الانتاج للمستشرق الألمانى برجستر اسر وبعض الكتب المحققة من التراث، فقد طبعت باللغة العربية.

(كتب تفاسير القرآن) للمستشرق الألمانى زايبولد المولود ١٨٥٩م والمتوفى ١٩٢١م.

(التوراة فى القرآن) للمستشرق الألمانى فايل طبع ١٨٣٥م.

(مذهب الطبيعة الواحدة النصرانى فى القرآن) للمستشرق بومشتارك.

وله كتاب (النصرانية واليهودية فى القرآن) طبع ١٩٢٧م.

(مراجع القرآن وعلومه).

(رسالة فى تاريخ علم قراءة القرآن).

وهذان البحثان للمستشرق الألمانى بريتسل المولود عام ١٨٩٣ ـ المتوفى ١٩٤١م.

(الشرع فى القرآن) للمستشرق الألمانى ريجلين.

(دليل القرآن) للمستشرق الألمانى مالير.

(نفسير القرآن) للمستشرق الألمانى كومبرت وقد نشر ١٩٤٨م.

(الصلاة فى القرآن) للمستشرق الألمانى جوتيه.

(القرآن) بحث القى فى مؤتمر المستشرقين للمستشرق الألمانى أنطون شبيالير وقد ولد سنة ١٩١٠م [١].

وبعد، فإنّ الناظر إلى هذه الدراسات القرآنية يرى أن وراءها سموما دفينة، تقدم سهلة التناول باسم المناهج الحديثة فى الدراسات الإسلامية من ناحية، وباسم حرية الفكر من ناحية أخري.

لهذا، فإنّ الواجب يقضى أن ننظر إلى تراثنا الذى مسته يد المستشرقين نظرة واعية فيها الكثير من اليقظة، وفيها التعمق الذى يكشف ما وراء السطور، فما وافق قيمنا، وسار فى درب ثقافتنا الإسلامية قبلناه، وما حاد عن السنن وركب الشطط. ولاذ بالانحراف رفضناه، وفضحناه، وهناك جوانب فكرية أثارها المستشرقون فى مجال الدراسات القرآنية استطعت أن أبين زيفها، وألمس عوارها، فإلى بحث قادم لعرض هذه الجوانب، والرد عليها إن شاء الله، تلبية لقول الله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

***

(١) الذى أعاننى فى جمع هذه الدراسات من بين السطور الكتب الآتية:

أ ـ المستشرقون: نجيب عفيفى ط ثالثة ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

ب ـ المنتقى من دراسات المستشرقين: الدكتور صلاح الدين المنجد ـ طبع القاهرة ١٩٥٥م.

جـ ـ المستشرقون والإسلام: زكريا هاشم طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢. جوائب من أخطاء المستشرقين فى الدراسات القرآنية (*)

بينت فى مقال سابق بعضا من الدراسات القرآنية التى قام بها بعض المستشرقين، وكان هدفى من هذا البيان هو إتاحة الفرصة لشبابنا المثقف، ليقف على هذه البحوث، ويدرك ما فيها من صواب أو خطأ، ليكون على بينة من أمر هذه الدراسة القرآنية التى كتبت بأقلام قوم عاشوا فى هذه الدراسات وأفنوا أعمارهم فيها من أجل المعرفة والعلم أحيانا ومن أجل الأغراض الخفية، وتشويه الحقيقة أحيانا. وفى هذا المقال سأحاول عرض جوانب من أخطاء المستشرقين فى الدراسات القرآنية.

أولا : فى النص القرآنى وتوثيقه:

نحن نعلم أن القرآن الكريم وصل إلى الذروة العليا فى التوثيق، وهذا سر عظمته، ومفتاح خلوده، اتفق أهل العلم والمعرفة على هذه الحقيقة. وحينما أقول: أهل العلم والمعرفة فإنما أعنى هؤلاء الذين سمت عقولهم، وأشرقت بصائرهم، وكان الحق رائدهم.

وقد سجل هذا القرآن الكريم تسجيلا رائعا فى مصحف، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

يقول ابن حزم فى مجال هذا التوثيق «إن هذا القرآن ظل ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا لا يختلف فيه مؤمن، ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة.. لا يشكّون ولا يختلفون فى أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أتى به، وأخبر أن الله عزوجل أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا)(١).

وكانت الخطوة الأولى فى توثيق النص القرآنى على عهد رسول الله ﷺ كتابته حين النزول، ومنع كتابة شيء سواه، والسبب فى ذلك يرجع إلى صيانة القرآن الكريم من الاختلاط بغيره، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: (لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه) (٢).

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى - أكتوبر سنة ١٩٧٠.

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم جـ٢ ص٧١.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى ص٢٩.

وقد حدثنا أبو سعيد الخدرى أنه قال: استأذنت النبى عليه السلام أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لي) (١).

ولم يكن أبو سعيد الخدرى فى هذا المجال وحده، فقد شاركه فى الرواية أيضا أبو هريرةالذى يقول: «خرج علينا رسولء الله ﷺ، ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما هذا الذى تكتبون؟ قلنا: أحاديث سمعناها منك!.

قال: أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلاّ ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى» (٢).

من هذه الأحاديث الشريفة يتضح لنا فى جلاء أن القرآن الكريم وثق توثيقا مكينا فى عهده ﷺ، لأنه كتب كله بأقلام كتاب الوحى بيد أنه لم يجمع فى مصحف، لأن الحاجة لم تكن ماسة إليه، ولأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتسابقون فى حفظه، ويتبارون فى كتابة نصه، والرسول عليه السلام معهم يتلو عليهم من آياته ما تلين به القلوب.

وقد أدرك الإمام السيوطى هذا السر فقال فى كتابه: (الإتقان) ما نصه «قال الخطابي: إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامة أو تلاوته، فلما انقضى نزوله، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة» (٣).

رأى المستشرقين فى هذا التوثيق:

يقول (آرثر جفري) فى مقدمته لكتاب (المصاحف) لابن أبى داود ما نصه: «الرأى الشائع فى أن القرآن الكريم كتب فى عهد النبى عليه السلام لا يقبله المستشرقون، لأنه يخالف ما جاء فى أحاديث أخرى أنه قبض ﷺ ولم يجمع فى القرآن شئ».

ويؤمن (آرثر جفرى) بهذه القضية، ويؤكد إيمانه بها بقوله: «وهذا يطابق ما روى من

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادى ص٣٢.
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى ص ٣٣.
(٣) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٥٧.

خوف عمر بن الخطاب، وأبى بكر الصديق لما استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة.. وسبب الخوف هو قتل القُرّاء الذين كانوا قد حفظوا القرآن ولو كان القرآن قد جمع، وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما» (١).

راعنى هذا القول، وأطلت التفكير فيه، ولم أجد سببا قويا يحمل هؤلاء المستشرقين إلى هذا القول الباطل غير التشكيك فى النص القرآني، لأن الذاكرة مهما كانت قوية، فإنها لا تستطيع أن تحتفظ بما لديها فترة طويلة، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يكون شأنه فى مجال الذاكرة والحفظ شأن الشعر المروى عرضة للزيادة والنقص بل عرضة للتغيير والتبديل.

وفى رأيى إن الدليل مفقود فى هذه القضية، فليس المراد من الأحاديث التى تقول: إن النبى عليه السلام قبض، ولم يجمع فى القرآن شيء، أن القرآن لم يكن مكتوبا حين ذاك، بل المراد أن القرآن الكريم لم يجمع فى مصحف، وقد قدمت السبب فى ذلك، فتفسير المستشرقين لهذه الأحاديث أو الأخبار بهذا المعنى الذى يتخيّلونه تفسير خاطئ وراءه الغرض الخفي، وهو اهتزاز الثقة بالنص القرآنى، على أنه ليس هناك أصرح من الروايات التى تؤيد كتابة القرآن فى عهد الرسول عليه السلام، والتى تؤكد: «أن القرآن كان مجموعا على عهد رسول الله ﷺ وأنه ما نزلت آية الا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة ؛كذا» (٢).

وأما خوف عمر بن الخطاب، وأبى بكر الصديق حين استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فالاستدلال به فى غير موضعه، لأن خوفهما زيادة تحر فى صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقى المحفوظ بالمكتوب وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا يتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، ومن ثم نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء، فتتعثر طريقة الأداء (٣).

---

(١) المصاحف لابن أبى داود ص ٥.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٧.

ثانيًا: فى رسم المصحف العثمانى والقراءات:

يقصد بالرسم رسم الحروف الهجائية التى تدل على الكلام، ورسم الكلمات فى القرآن كان غاية ما وصل إليه فن الرسم الإملائى فى هذا العهد، وكتب القرآن الكريم بهذا الرسم، وأطلق عليه الرسم العثماني، لأن عثمان رضى الله عنه حينما كتب المصحف وضع للثلاثة القرشيين الطريقة التى على أساسها يكتبون فقال: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم» (١).

فهذا الرسم الذى سار عليه كتبة المصحف العثمانى اصطلاحى يسير على قواعد الكتابة التى كانوا بها يكتبون.

ولما اتخذ المصحف هذا الرسم شعارًا له أصبح سنة متبعة لا تخالف، ذلك لأن رسوم الهجاء تتغير من زمن إلى زمن، بل من شعب إلى شعب، فصيانة لكتاب الله من عبث العابثين، وإغلاقا لباب التغيير فيه، وإحداث ما ليس منه أصبح هذا الرسم مقدسًا لا يمس.

ومن هنا «قال أشهب: سئل(مالك) هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا: إلا على الكتبة الأولى» (٢)، وقال الإمام أحمد: «تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك» (٣).

وقال البيهقى فى شعب الإيمان: «من كتب مصحفا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوا شيئا، فإنهم كانوا أكثر علما، وأصدق قلبا ولسانا، وأعظم أمانة منا فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم) (٤).

وإذا كان رسم المصحف العثمانى لا يخالف، ولا يصح الخروج عن رسمه فهل هذا يعنى أن هذا الرسم تلزمنا القراءة به، وأنه صورة للكلمات القرآنية المنطوقة، وأنه بهذا الاعتبار يحدد طريقة القراءة أو ألاداء كما يحدد طريقة الرسم أو الكتابة؟.

الحق الذى لا مرية فيه أن الرسم غير القراءة، لأن القراءة مصدرها الرواية، والرسم

---

(١) انظر: كتاب القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية طبع دار المعارف لصاحب البحث ص ٥.
(٢) الاتقان جـ ١ ص ٥٩.
(٣) الاتقان جـ٢ ص ١٦٧.
(٤) مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٢٢٥.

مصدره طريقة الكتابة المعروفة إذ ذاك، وبناء على هذا أننا نقرأ الآية، وننطق بكلماتها كما رويت لا كما رسمت، ولو سرنا فى طريق الرسم وحده لخرجنا بالقرآن عن حقيقته التى نزل بها، وترتب على ذلك أننا نقرأ كلمات من القرآن بطريقة لم ترو عن النبى عليه السلام.

رأى المستشرق (جول تسيهر) فى رسم المصحف والقراءات:

يقرر ذلك المستشرق أن نشأة الكثرة من القراءات المختلفة ترجع إلى رسم المصحف، يقول: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات ـ يقصد الاختلاف فى القراءات ـ إلى خصوصية الخط العربي.. إلى أن يقول: وإذن فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات.. كانا هما السبب الأول فى نشأة حركة اختلاف القراءات فى نص لم يكن منقوطا أصلا، ولم تتحر الدقة فى نقطه أو تحريكه»(١).

وعجبت كيف يتورط ذلك المستشرق فى هذا الخطأ الفادح؟ ومن أين تسرب إلى فكره هذا الرأى الخطير الذى يرجع الكثرة من القراءات إلى الخط أو إلى رسم المصحف؟ إنه بهذا الرأى يهدم الحقيقة التى استقرت فى نفوس المسلمين أن القراءات مصدرها الرواية والسماع لا الخط والرسم.

قلت فى نفسي: لعل هذا المستشرق استقى هذا الرأى من الزمخشرى حينما وقف من قراءة ابن عامر ـ موقف المعارض ـ للآية المشهورة فى سورة (الأنعام): ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شُركائِهم﴾(٢) برفع القتل ونصب الأولاد، وجر الشركاء على أضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما فى غير ظرف.

وكان من رأى الزمخشرى أن هذه القراءة مردودة، وأرجع الزمخشرى خطأ ابن عامر فى هذه القراءة إلى رسم المصحف حيث قال: «والذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبا بالياء» (٣) ومعنى ذلك أن ابن عامر اعتمد على المصحف، ولم يعتمد على الرواية.

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٩٠٨.
(٢) الأنعام: (١٣٨).
(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى ٢/ ٧٠ نشر دار الريان للتراث.

ومن هنا فتح الباب أمام المستشرق فقال ما قال:

يقول أبو حيان الأندلسى صاحب البحر المحيط: «وأعجب لعجمى ضعيف فى النحو يردّ على عربى صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها فى لسان العرب فى غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم، وفهمهم، وديانتهم) (١).

وقد جانب الصواب هذا المستشرق حينما عرض هذه المغالطة التى تتجافى عن الواقع والتاريخ.

أما مجافاتها عن الواقع، فإنه لو كانت القراءات ترجع إلى رسم المصحف لراعتنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التى يحتملها الرسم، والتى لم يثبت أو لم ترو عن النبى عليه السلام.

ذلك لأن الرسم تحتمل الكلمة فيه، وبخاصة إذا لم تكن منقوطة أو مجردة من الحركات وجوها عدة من القراءات.

والقراءات التى بين أيدينا والتى صنفها العلماء والتى دققوا فى عرضها، وتثبتوا من سندها قراءات معروفة محدودة، وكلها ترجع إلى الرواية والنقل لا إلى الكتابة والرسم.

وربما كان من أكبر الأدلة على بطلان رأى جولد تسيهر «أن هذه القراءات رويت وشاعت القراءة بها قبل تدوين المصاحف، كما كان القرآن محفوظا فى الصدور قبل تدوين المصاحف، ثم حين دونت المصاحف لم يكن النقط عرف، ولا الشكل اخترع، فظهرت حركة القراءات قبل النقل والضبط. فكانت قراءاتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون لا على حسب ما يقرءون فى المصاحف» (٢).

وإذا كان نقل اللغة عن الصحف أمرًا معيبًا يُعَدّ تصحيفا، فالأمر كذلك بالنسبة للمصحف فمن نقل القرآن عنه، وأغلق أذنه دون الرواية، وقع فى التصحيف، فحماد الراوية مثلا حفظ القرآن من المصحف، وقد أخذ عليه أنه كان يقرأ: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه

---

(١) البحر المحيط (جـ ٤ ص٢٢٩).

(٢) القراءات واللهجات: عبدالوهاب حمودة ص١٨٣.

إلا عن موعدة وعدها إياه) [1] بالباء الموحدة. وحمزة الزيات، كان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ يوما، وأبوه يسمع ﴿الٓمٓ ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [2] فقال أبوه: دع المصحف، وتلقن من أفواه الرجال».

ومن أجل هذه التصحيفات التى تخل بمنطق الآيات قالوا: «لا تأخذوا القرآن من مصحفى، ولا العلم من صحفى» [3].

وإلى هذا الوقت نجد معلمّ (الكُتّاب) يبتدئ مع التلميذ الصغير أول ما يبتدئ بتحفيظ القرآن الكريم قبل أن يجيد القراءة والكتابة، لإيمانه أن قراءة القرآن أمر لا يؤخذ من الخط والرسم.

وأما مجافاتها للتاريخ، فإن عثمان رضى الله عنه جرد المصحف من النقط، ليحتمل رسم القراءات المروية عن رسول الله ﷺ حتى لا يحدده فى قراءة بعينها أو حرف بعينه، وأصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا على صنيع عثمان فى المصحف، وعلى رسمه، وبذلك كانت هذه القراءات الكثيرة لا ترجع إلى الرسم، وإنما مرجعها الأول والأخير إلى السند والرواية.

والدليل الأوضح الذى يهدم رأى المستشرق هو محاكمة ابن شنبوذ الذى ثار عليه العلماء من أجل رأيه الذى يقول فيه: ما وافق خط المصحف العثمانى صحت القراءة به متى صح وجهه فى العربية بقطع النظر عن الرواية [4].

هذا وقد رجع ابن شنبوذ عن رأيه لما أدّب وعذب واستتيب [5].

ثالثا: الإعراب والقرآن الكريم:

بدأت حركة الأعراب فى القرآن الكريم بتنقيط المصحف على يد أبى الأسود ورووا «أنه أحضر له زياد بن أبيه ثلاثين رجلا لهذا العمل العظيم، فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلا من عبد القيس فقال له: خذ المصحف، وصبغا يخالف

---

(١) التوبة/ ١١٤ قرأ «إيّاه»: «أباه». انظر: مذاهب التفسير الإسلامى/ ٩.
(٢) البقرة: ١، ٢ قرأها: «لا زيت فيه بالزاى والياء.
(٣) التصحيف والتحريف للعسكرى ص ٩.
(٤) التصحيف والتحريف ص٩.
(٥) هامش مذاهب التفسير الإسلامى ص ٨.

المداد، فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النفطة فى أسفله، فإذا اتبعت شيئا من هذه الحركات غُنّة، فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره، ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك» (١).

رأى كارل فولرس فى إعراب القرآن الكريم:

هذا الرأى أحدث ضجة بين العلماء فى الغرب والشرق ذلك لأن صاحب هذا الرّأى قال: «إن القرآن الكريم قد نزل فى الأصل بلهجة محلية من اللهجات العربية، وأنه لم يكن معربا، ثم أدخل الإعراب عليه على وفق قواعد لغة الشعر» (٢).

وقد ردد هذا الرأى من المستشرقين، (كاله)، و(حاييم دين)، وشبهة هؤلاء أن (كاله) وجد فى مخطوطين عثر عليهما فى لندن أحاديث فى الحث على التزام قواعد الإعراب فى قراءة الكتاب العزيز، فاستدل بها على أن الناس لم يكرنوا يراعون الإعراب فى قراءة كتاب الله، فى بادئ الأمر، ثم روعى الإعراب فيها على وفق قواعد المنطق المضبوطة فى الشعر العربى والتى دونها علماء النحو فيما بعد) (٣).

مناقشة هذا الراءى:

إن العلة الأولى لهذا الرأى الخطير ترجع إلى وجود بعض أحاديث تنص على التزام الإعراب فى قراءة القرآن كالحديث الذى رواه أبو عبيدة بإسناد له عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أعربوا القرآن وكحديث ابن مسعود قال: أعربوا القرآن فإنه عربي.

وكحديث عمر بن الخطاب: تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظة (٤).

والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظر، لأن الإعراب لم يظهر بمعناه الاصطلاحى إلا فى عصر متأخر.

---

(١) نزهة الألبا لأبن الأنبارى ص ١٢.
(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٣٢٨.
(٣) المرجع نفسه والصفحة.
(٤) الزينة للرازى ص ١١٧.

وفى نظرى أن المراد بالإعراب هنا الإبانة والتوضيح، وفهم الغريب: «وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسمون هذا الغريب (إعراب القرآن) لأنهم يستبينون معانيه، ويخلصونها» (١).

على أية حال أستطيع أن أؤكد فى هذا المقال أن هذا الفهم الذى فهمه بعض المستشرقين يدل على جهل باللغة، بل على جهل بالتاريخ.

أما الجهل باللغة، فإن الإعراب هنا كما قلت: معناه، الإبانة والوضوح، يقول الفيروزابادى: «الإعراب: الإبانة والإفصاح عن الشئ» (٢).

وإما أن يرجع الإعراب إلى بيان حلاله وحرامه، أى تعرفوا على ما فيه من حلال فاعملوا به، وعلى ما فيه من حرام ـ فتجنبوه، يدل عى ذلك «أن الصحابة كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا» (٣).

وأما الجهل بالتاريخ، فإن القرآن الكريم نزل على قوم تمكنت من ألسنتهم الفصاحة وغذوا بلبان البلاغة، وتدربوا على ميادين القول، ولن يكون ذلك إلا بإعراب، ولو كان بلهجة محلية كما يقول بعض المستشرقين لسهل الأمر وأصبح القرآن غير معجز، لأن من السهل الإتيان بمثله، ومن السهل أن يندثر القرآن الكريم كما اندثرت بعض هذه اللهجات، وأصبحت أثرا بعد عين، أما والقرآن الكريم قائم بيننا بصولته البلاغية، يتحدى أرباب القول ويعجز أساطين البلاغة، وهو الذى خلد هذه اللغة، وخلد إعرابها، وجعلها حية بعد هذه السنين الطويلة التى طوت فيما طوت كثيرا من اللغات، فإنه لا سبيل إلى إنكار أنه نزل معربا، وأن القول بخلاف ذلك قول مغرض.

أكبر الظن أن فتح الثغرات فى جبهة القرآن لينال منه من ينال كان من دأب هولاء المستشرقين، ولكن القرآن الكريم أكبر من هذه السخافة، وأقوى من هذه الفتنة، وصدق الله العظيم.. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

***

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٥٧.

(٢) القاموس المحيط فى المادة نفسها.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٥.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة ثالثة ـ مطبعة الحلبى.

٢ـ إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى ـ مطبعة الاستقامة.

٣ـ البحر المحيط لأبى حبان الأندلسى مطبعة السعادة ـ طبعة أولى.

٤ـ التصحيف والتحريف للعسكرى ـ مطبعة الظاهر بمصر سنة ١٣٢٦هـ.

٥ ـ تفسير الكشاف للزمخشرى ـ طبع دار الريّان للتراث.

٦ـ تقييد العلم للخطيب البغدادى تحقيق الأستاذ يوسف العش طبع دمشق ١٩٤٩م.

٧ـ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة.

٨ ـ الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى، تحقيق حسين بن فيض الله الهمدانى طبع دار الكتاب العربى.

٩ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهرى ـ المطبعة الأدبية طبعة أولى سنة ١٣١٧هـ.

١٠ـ القراءات واللهجات للأستاذ عبدالوهاب حمودة ـ مطبعة السعادة ـ ط أولى.

١١ـ القاموسى المحيط للغير وزاباوى.

١٢ـ القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية للدكتور عبدالعال سالم مكرم طبع دار المعارف بمصر ـ وموسسة الصباح بالكويت ـ ومكتبة الثرات بالأزهر.

١٣ـ مذاهب التفسير الإسلامى ـ لجولد تسيهر تحقيق المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار ـ مطبعة السّنة المحمدية.

١٤ـ المصاحف لابن أبى داود ـ تحقيق الدكتور ارثر جفرى ـ المطبعة الرحمانية طبعة أولى.

١٥ـ مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ـ دائرة المعارف التطامية ـ الهند.

١٦ـ مقدمتان فى علوم القرآن ـ تحقيق أرثر جفرى ـ مطبعة السنة المحمدية.

١٧ـ مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق جميل الشّطى ـ مطبعة الترقى بدمشق.

١٨ـ نزهة الألبّا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى طبع ١٢٩٤هـ.

***

٤. تفسير الكشاف للزمخشري (*)

مصدره ومنهجه من خلال الدراسات النحوية

الزمخشري: هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، ولد فى رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذ الأدب عن كثير من مشايخ عصره، وجاور بمكة.

وله من التصانيف: الكشاف فى التفسير، الفائق فى غريب الحديث، المفصّل فى النحو، المستقصى فى الأمثال. إلخ... وتوفى يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة(١).

تفسير الكشاف:

تعددت كتب التفسير فى مجالاتها المختلفة، وتناولت كتاب الله شرحاً وإيضاحاً للكشف عن أسراره، وجلاء معانيه، وبيان أحكامه، لأنه كتاب هذه الأمة، ومن حقها أن تتعرفه، وتتذوق معانيه، لتسير على هديه، وتحيا فى رحابه.

ولست فى هذه العجالة أستطيع أن أوضح نشأة هذا العلم، وتطوّره فى العصور المختلفة، فإن لذلك مجالاً آخر قد لا يتسع لهذا البحث.

بيد أنى أحب أن أشير هنا إلى أن كتاب الله، وإن كان فى الذروة العليا من البلاغة والفصاحة وأنه جاء بلغة العرب التى بها يتكلمون، إلا أنه لا يستوى فى المعرفة بجميع ما فيه كل العرب، لأن فيه المتشابه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾(٢).

وقال بعض العرب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقاً!، فقال: إن ربى علمنى فتعلمت»(٣) فهذا الحديث يدل على أن كلام العرب نفسه لا يفهمه كل العرب، فمن باب أولى أن يكون فى كلام الله ما يعز فهمه أو

(*) نشر فى مجلة الفكر الإسلامى ـ فبراير سنة ١٩٧٠.

(١) بغية الوعاة: السيوطى، جـ٢، ص٢٧٩، طبع عيسى الحلبى.

(٢) آل عمران، آية: ٧.

(٣) المسائل: لابن قتيبة: وجه ورقة٤ نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧.

يبانه على العقول، وبخاصة هذه الكلمات التى لم تكد تعرفها العرب من قبل مثل: المسلم، والمؤمن، والمنافق، والكافر «لأن الإسلام، والإيمان، والكفر، ظهر على عهد النبى ﷺ، وإنما كانت العرب تعرف الكافر كافر نعمة، ولا تعرفه من معنى الكفر بالله:

قال الشاعر:

* ولا تحسبنى كافراً لك نعمة *

وقال آخر:

* والكفر مخبثة لنفس المُنعم *

والمؤمنِ العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغَيْل والسّند

«أما المنافق فلا ذكر له فى كلام العرب»(١).

وفى هذا الذى ذكرت أبلغ رد على ابن خلدون الذى ينص فى مقدمته: «أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه»(٢).

لذلك كان علم التفسير النور الذى يضىء ما خفى على الأذهان، وما غاب عن الإدراك غير أن المفسرين اختلفت مناهجهم، وتعددت طبقاتهم، ويذكر لنا الإمام السيوطى أن المفسرين أربعة أنواع.

١ـ المفسرون من السلف والصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين.

٢ـ المفسرون من المتحدثين، وهم الذين صنفوا التفاسير مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد.

٣ـ المفسرون من علماء أهل السنة الذين ضموا إلى التفسير التأويل، والكلام على معانى القرآن، وإعرابه.

٤ـ المفسرون من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة، وأضرابهم.

(١) كتاب الزينة: الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى المتوفى عام ٣٣٢هـ ج١، ص١٤٠ ـ ١٤١.
(٢)مقدمة ابن خلدون: ص٣٦٧، المطبعة الأزهرية.

ثم قال السيوطى: «والذى يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول ثم الثانى. وأما الثالث فمؤوّله... ولم أستوف أهل القسم الرابع، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشرى والرمانى، والجبائى وأشباههم»[1].

فالزمخشرى اذن من النوع الرابع الذى وصف بالابتداع، ولا يعنينى فى هذا المقام أن أناقش السيوطى فى هذه التسمية التى نعت بها صاحبنا الزمخشرى وإنما الذى يعنينى هو منهج الزمخشرى من الوجهة النحوية فحسب، هذا من ناحية، ويعنينى من ناحية أخرى المصادر التى اعتمد عليها الزمخشرى فى تأليفه لهذا الكتاب، من ناحية أخرى.

ولهذه المصادر قصة: خلاصتها أننى فى إعدادى لرسالة الدكتوراه: «القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية» والتى تولت طبعها ونشرها دار المعارف تعرضت لهذه المصادر، فرأيت أن الزمخشرى ينقل من غيره دون إشارة إلى ذلك، وأنه نقل نصوصاً كاملة بألفاظها وحروفها من كتاب التفسير الكبير للرمانى، ومع ذلك لم يشر إليه.

وقد حملنى على هذا أن أحد أساتذتنا الفضلاء الذين يقومون بتدريس التفسير فى جامعة الكويت أخذه الدهش والعجب أن جار الله الزمخشرى يقع فى مثل هذا الخطأ الفاحش فوعدته أن أكتب فى هذا، لأن الكتاب الذى احتوى هذا البحث، وأعنى به رسالتى للدكتوراه التى طبعتها دار المعارف قد لا تتاح له فرصة الانتشار الواسع الذى تتمتع به مجلة الفكر الإسلامى، من أجل ذلك أحب أن ألخص ما كتبته فى إيجاز.

دوافع تأليف الزمخشرى لكتابه الكشاف:

من هذه الدوافع الإلحاح على الزمخشرى من جانب مريديه فى تأليف مصنف يروى غليلهم، وينقع ظمأهم، ويبرز لهم ما خفى عليهم من تأويل معنى، أو بيان لفظ.

قال الزمخشرى فى مقدمة كتابه «كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية، فأبرزت لهم بعض

(١) طبقات المفسرين: ص٢: جلال الدين السيوطى، طـ أوروبا.

الحقائق من الحجب، أفاضوا فى الاستحسان والإعجاب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا علىّ مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل»[١].

ولم يقدم الزمخشرى على ما اقترحوا «فأبوا إلا المراجعة، والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد»[٢].

وبعد هذا الإلحاح الطويل أملى عليهم مسألة فى الفواتح، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب[٣].

ولما صمّم العزمُ على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله... وحطّ الرحل بمكة....، إذا بالأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبى الحسن على بن حمزة بن وهاس يطلب منه تفسير القرآن. قال الزمخشرى: «لقد ضاقت على المستعصى الحيل، وعييت به العلل»[٤] فأقدم على تأليف هذا الكتاب، تحقيقاً لما طلب منه الأمير.

ولم ينس الزمخشرى فى مقدمته أن يعين لنا المدة التى استغرقها تأليف هذا الكتاب فيقول: «ووفق الله وسدد، ففرغ منه فى مقدار خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظم»[٥].

وفى خاتمة مقدمته توسل الزمخشرى إلى ربه قائلاً: «أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجينى، ونوراً على الصراط يسعى بين يدى ويمينى، ونعم المسئول»[٦].

من أهم المصادر التى اعتمد عليها الزمخشرى تفسير الرمانى:

من شأن العلماء الذين يعنيهم أولاً وقبل كل شىء خدمة العلم أن يكونوا أمناء، فإن الأمانة فى العلم ليست أمراً سهلاً، ولا أبالغ إذا قلت: إنها رسالة، ومن شأن أصحاب

---

(١) مقدمة الكشاف للزمخشرى بتصرف .
(٢) نفس المقدمة.
(٣) المقدمة نفسها.
(٤) مقدمة الزمخشرى فى كشافه بتصرف.
(٥) المقدمة نفسها.
(٦) المقدمة نفسها.

الرسالات أن يتصفوا بما يتصف به الأنبياء والرسل، يؤدون الأمانة، ويبلغون الرسالة، شعارهم ﴿وما لأحدٍ عندهُ من نِعْمَةٍ تُجزَى إلاَ ابتغاءَ وجهِ ربّه الأعلى﴾[1].

وصعب على نفسى أن جار الله الزمخشرى لم يبين لنا المصادر التى اعتمد عليها فى كتابه. فأبو حيان النحوى فى كتابه العظيم البحر المحيط، وضح فى مقدمته المصادر التى انتفع بها، وبذلك أدى للضمير حقه، وللعلم أمانته، فيقول مثلا: «فما كان فى كتابى هذا من تفسير الزمخشرى رحمه الله، فأخبرنى به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير قراءة منى عليه فيه. ثم يقول: «وما كان فى هذا الكتاب من تفسير ابن عطية فأخبرنى به القاضى الإمام أبو على الحسين بن عبدالعزيز بن أبى الأحوص القرشى قراءة منى عليه لبعضه»[2].

وعلى هذا النهج يسير أبو حيان مبيناً المصادر التى اعتمد عليها سواء كانت فى التفسير أو فى النحو أو فى القراءة أو فى اللغة، ولكنك حينما تقرأ مقدمة الزمخشرى فلا تجد شيئاً من ذلك اللهم إلا الإشادة بمن سلك فى دروب علم التفسير الوعرة التى لا يتحمل السير فيها إلا أولو العزم من العلماء: يطالعك فى مقدمة كتابه بهذه العبارات الرشيقة الأخاذة «فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام. والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام. وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ. والواعظ، وإن كان من الحسن البصرى أوعظ. والنحوى، وإن كان أنحى من سيبويه. واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدّى منهم أحد لسلوك الطرائق، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعانى، وعلم البيان... إلى أن يقول: بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ. إلى أن يقول: فارساً فى علم الأعراب... وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها إلخ»[3].

وتنتهى المقدمة، ولم يحاول أن يشير إلى مرجع واحد، يكون قد انتفع به على الرّغم من كثرة المصادر فى التفسير التى سبقته.

---

(١) الليل: آية ١٩، ٢٠.

(٢) مقدمة البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى.

(٣) مقدمة الزمخشرى لكشافه.

لعل قائلاً يقول: قد تكون هذه عادة العصر، وأن العلماء فى هذا العهد كان يأخذ بعضهم عن بعض، ولا يرون حرجاً فى عدم الإشارة إلى ذلك، فأقول له: هذه عادة الزمخشرى وحده، فقد سبقه الكثير من المؤلفين فى مجالات التفسير، والقراءات، والنحو، ومع ذلك كان الكثير منهم يحرص على أن يسند كل رأى إلى صاحبه، وكل قول إلى من صدر عنه، انظر مثلاً: إلى أبى على الفارسى تجده فى كتابه الحجة فى القراءات السبع، يبين أنه «لم يكن أول نحوى شرح فى الاحتجاج لهذه القراءات فقد سبقه إلى ذلك أبو بكر محمد ابن السرى فى تفسير صدر من ذلك فى كتاب كان قد ابتدأ بإملائه...إلخ[1].

على آية حال كانت، فإن من غريب المصادفات أننى قرأت فى كتاب «النجوم الزاهرة» أن «للرمانى كتاب التفسير الكبير، وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال، وسلك الزمخشرى سبيله وزاد عليه»[2].

ولفتت هذه العبارة الأخيرة نظرى، وكانت مفتاح السر الذى فتح باب هذا البحث على مصراعيه أمامى، ذلك لأنى أردت أن أعرف درجة تأثر الزمخشرى بالرمانى، فذهبت أبحث فى فهارس المخطوطات عن تفسير الرمانى، وأخيرا عثرت على تفسير جزء «عمّ» للرمانى فى مكتبة العلامة أحمد تيمور.

ومن حق القارىء قبل أن أضع له النقاط على الحروف فى هذا المجال أن يعرف فى إيجاز من هو الرمانى صاحب التفسير الكبير الذى سلك الزمخشرى سبيله فأبادر على الفور فأقول:

الرمانى: هو على عيسى بن على بن عبدالحسن أبو الحسن الرمانى، كان إماماً فى العربية علامة فى الأدب، فى طبقة الفارسى، والسيرافى معتزلياً.

ولد سنة ست وسبعين ومائتين، وأخذ عن الزجاج، وابن السراج، وابن دريد. قال السيوطى: لم ير مثله قط علماً بالنحو، وغزارة بالكلام، وبصراً بالمقالات، وكان يمزج النحو

(١) مقدمة الحجة لأبى على الفارسى: نسخة مصورة رقم ٤٦٣ ـ قراءات ـ دار الكتب المصرية.
(٢) النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٦٨.

بالمنطق حتى قال الفارسى: إن كان النحو ما يقوله الرمانى، فليس معنا منه شىء، وإن كان النحو ما نقوله نحن، فليس معه منه شىء».

ومات الرمانى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة»[1].

تقارب النصوص بين التفسيرين:

قلت: إن مكتبة تيمور تضم جزء «عمّ» من تفسير الرمانى الكبير، ففى فهرس المكتبة التيمورية، الجزء الأول، ص٧٦، جاء ما نصه: «تفسير جزء عم» تأليف العلامة أبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى المتوفىّ عام ٣٨٤هـ ليس له خطبة، نسخ سنة ١٠٩٦هـ»، ورقم المخطوط فى الفهرس ٢٠١ ـ تفسير.

بدأت أقارن نصوص هذا التفسير بنصوص الكشاف للزمخشرى فوضحت لى الحقيقة سافرة مشرقة تؤكد أن الزمخشرى سطا على هذا التفسير، ونسب الكثير منه إلى نفسه حيث لم يصرح بالمصدر الذى نقل عنه.

وقبل أن أصدر هذا التأكيد قمت بعدة فروض ألتمس فيها براءة الزمخشرى من التهمة التى وجهتها إليه، ولكن مع الأسف تبددت الفروض، ويقيت التهمة قائمة إلى أن يهىء الله من رجالات العلم من يقوم بمواصلة هذا البحث، فيبرىء ساحة جار الله مما نسب إليه، وحينئذ يشفى نفسى من حرج الاتهام، تقديراً لجار الله، وتكريماً لهذا التفسير الذى تألق نجم الزمخشرى فى سماء المعرفة بسببه مما جعله يقول عنه :

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد

وليس فيها لعمرى مثل كشافى

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته

فالجهل كالداء، والكشاف كالشافى[2]

---

(١) بغية الوعاة للسيوطى، ج٢، ص١٨٠، معجم الأدباء لياقوت، ج١٤، ص٧٥.

(٢) بغية الوعاة: ج٢، ص١٨٠.

فمن هذه الفروض التى قمت بها الشك فى نسبة تفسير جزء عمّ الذى تضمه مكتبة تيمور إلى الرمانى، وقلت لعله لرمانى آخر، تأخر زمنه عن زمن الزمخشرى فنقل من الكشاف ما نقل ونسبه إلى نفسه، ورجعت إلى كتب الطبقات فوجدت أنه اشتهر ثلاثة من النحاة بهذا اللقب: أحد هؤلاء: الرمانى المشهور صاحب التفسير الكبير الذى تحدثنا عنه. والثانى: هو: أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد أبو عبدالله الرمانى المعروف بابن الشرابى توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة(١).

والثالث هو: على بن عبدالله بن محمد بن على بن رمّان التونسى أخذ عنه ابن عصفور، ولم يذكر السيوطى فى بغيته سنة وفاته، غير أنه من الممكن معرفة عصره الذى عاش فيه بمعرفة ميلاد ابن عصفور أو موته، أمّا ميلاد ابن عصفور، فقد كان سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وأما تاريخ وفاته فقد ذكر أنه توفى سنة ثلاث، وقيل تسع وستين وستمائة(٢).

ومعنى ذلك أن الرمانى الذى أخذ عنه ابن عصفور من رجال القرن السابع.

وإذا تبين لنا أن الزمخشرى توفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، فإن الرمانى الثانى سابق للزمخشرى غير أنه لم تكن له مؤلفات فى القرآن، أو فى التفسير أو فى القراءات أو فى النحو، على حين نصّ على أن الرمّانى الأسبق على بن عيسى له تفسير كبير فى القرآن، لذلك ننفى نسبة تفسير جزء عمّ لهذا الرمانى السابق المعروف بابن الشرابى.

وأمّا الرمانى الثالث، فليس له من المؤلفات القرآنية كذلك ما يجعلنا ننسب هذا التفسير إليه.

وإذا انتفى أن يكون تفسير جزء عمّ لأحد من هذين الرجلين، فأكبر الظن أنه للرمانى الأول على بن عيسى، وأن الزمخشرى اطلع عليه، وأفاد منه، بل نقل منه نصوصا بأسرها وكان واجب الأمانة العلمية يقضى بأن يشير إلى ذلك فى كتابه.

ويعجبنى فى هذا المقام تعليق السيوطى على الشيخ بهاء الدين بن النّحاس حينما ذكر السيوطى فى كتابه «الأشباه والنظائر» أن الفروع هى التى تحتاج إلى العلامات، وأن الأصول

(١) بغية الوعاة، ص١٥١.
(٢) بغية الوعاة، ص٣٥٧.

لا تحتاج إلى علامة مستدلاً بنص نقله الشيخ بهاء الدين فى التعليقة» قال: «وجدت ذلك بخط غالى بن عثمان بن جنى عن أبيه قال: بدليل أنك تقول فى المذكر قائم وإذا أردت التأنيث، قلت: قائمة، فجئت بالعلامة عند المؤنث، ولم تأت للمذكر بعلامة. وتقول: رأيت رجلاً فلا تحتاج إلى العلامة، وإن أردت التعريف أدخلت العلامة فى الفرع، الذى هو التعريف فقلت: الرجل ولم تدخلها فى التنكير، وإذا أردت بالفعل المضارع الاستقبال أدخلت عليه السين لتدل بها على استقباله، وذلك يدل على أن أصله موضوع للحال، ولو كان الاستقبال فيه أصلاً لما احتاج إلى علامة».

قال السيوطى: «وانظر إلى الشيخ بهاء الدين وأمانته كيف وجد فائدة بخط ولد ابن جنى نقلها عن أبيه، ولم تسطر فى كتاب فنقلها عنه، ولم يستجز ذكرها من غير عزو إليه لاكالسارق الذى أغار على تصانيفى التى أقمت فى تتبعها سنين، وهى:

كتاب المعجزات الكبير ـ كتاب الخصائص الصغرى، وغير ذلك، فسرقها، وضمّها، وغيرها مما سرقه من كتب الخضرى، والسخاوى فى مجموع، وادّعاه لنفسه... وليس هذا من أداء الأمانة فى العلم»[1].

وبعد، فما الدليل على أن الزمخشرى سطا فى تفسير الرمانى، وأخذ منه ما أخذ دون عزو أو إشارة إلى من أخذ عنه.

دليلى على ذلك هذه الأمثلة، وهى غيْضٌ من فيض، وقطرة من سيل.

١ـ مالك يوم الدين:

قال الرمانى: «فإن قلت: ما هذه الإضافة، قلت هى إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع يجرى مجرى المفعول، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، والمعنى على الظرفية ومعناه: مالك الأمر كله يوم الدين، كقوله: «لمن الملك اليوم».

فإن قلت: فإضافة الفاعل إضافة غير حقيقيّة، فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة، قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال والاستقبال.

(١) الأشباه والنظائر بتحقيقى جـ٢ ص، ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ نشر مؤسسة الرسالة.

فكان فى تقدير الانفصال، كقولك: مالك الساعة الآن، أو غداً. فأمّا إذا قصد معنى الماضى كقولك: هو مالك عبيده أمس، أو زمان مستمر كقولك: زيد مالك العبيد كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى فى مالك يوم الدين»(١).

والنص نفسه حرفياً فى تفسير الكشاف(٢).

٢ـ إياك نعبد:

قال الرمانى: «إياه ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التى تلحقه من الكاف، والهاء، والياء فى قولك: إياك، وإيّاه، وإياى لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب، كما لا محل للكاف فى أرأيتك، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون.

وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: «إذا بلغ الرجل الستين، فإيّاه، وإيا الشواب فشىء شاذ لا يعول عليه»(٣).

ولما رجعت إلى تفسير الكشاف فى هذا الموضع رأيت الزمخشرى ينقل النص بعينه، ولم يحاول أن يغير فيه أو يبدّل(٤).

٣ـ على أن هناك بعض النصوص أخذها الزمخشرى عن الرمانى، وحاول أن يغير فيها بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة. انظر مثلاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(٦). تجد أن النصوص فى التفسيرين متقاربة، وأن الزمخشرى لم يزد شيئاً غير المساس بالنص من حيث التقديم والتأخير، والحذف.

وبهذه المقارنة التى قمت بها فى التفسيرين أصدرت حكمى فى حرَج، وبينت أن

---

(١) تفسير جزء عم للرمانى: ورقة ١٢.
(٢) تفسير الكشاف، ج١، ص٦.
(٣) تفسير جزء عم للرمانى: ورقة ١٣.
(٤) تفسير الكشاف، ج١، ص١١.
(٥) النبأ: آية ٤٠.
(٦) الفجر آية: ٤. انظر فى الموضعين: تفسير جزء عم للرمانى ورقة ٢٨، والكشاف ج٢، ص٤٥٠، وجزء عم للرمانى ورقة ٨٢، والكشاف ج٢، ص٤٦٩.

الزمخشرى من هؤلاء الذين يعنيهم السيوطى فى نصه السابق، من هؤلاء الذين لم يؤدوا أمانة العلم. ولكن هل انتهت القضية عند هذا الحد؟ لا أدعى لنفسى أن حكمى لا يقبل الاستئناف فما أنا إلاّ حامل مصباح لمن يسير فى الطريق، والحقيقة بنت البحث، فإلى هؤلاء الباحثين أقدم شكرى العميق لمن يسير إلى نهاية المطاف، ويبدأ من حيث انتهيت لوضع النقاط على الحروف فى هذه القضية.

ووفاء بحق العلم، وأداء لأمانته، أحب أن أضع بين يدى الباحثين هذا الخيط الجديد الذى لم يتيسر لى فى أثناء عرضى لهذا الموضع من كتابى «القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية»، وذلك لربط ما قلت بما سيقولون.

لم أجد فى الفهارس المخطوطة فى دار الكتب، وفى مخطوطات الجامعة العربية جزءًا من تفسير الرمانى غير الجزء السالف الذكر الذى تضمه مكتبة تيمور، غير أنى لم أقتنع بهذا فسألت المختصين فى معهد المخطوطات بالجامعة العربية عن تفسير الرمانى، فذكروا لى أن هناك جزءاً من هذا التفسير لم يلحق بعد بالفهارس المخطوطة المطبوعة، وقد صور من مكتبة المسجد الأقصى، وقد كتب على الورقة الأولى من هذا المخطوط ما نصه:

المكتبة: المسجد الأقصى ـ

رقم المخطوط فيها: ٢٩

اسم الكتاب : تفسير القرآن، الجزء الثانى عشر.

اسم المؤلف : على بن عيسى الرمانى (هكذا كتب عليه بخط حديث)

تاريخ النسخ : القرن السادس ـ خط نسخى نفيس مشكول.

عدد الأوراق : ١٥٠

الملاحظات : يبتدىء بتفسير قوله تعالى: ﴿يتجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُهُ ويأتيه الْموتُ من كُلِّ مكَانٍ وما هُو بميِّتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظٌ﴾[1] من سورة إبراهيم.

وحينما وضَعْتُ هذا «الفيلم» تحت «المكبر»، وجدت أن هذا التفسير يسير على نمط الأسئلة والأجوبة، تراه مثلاً يقول فى قوله تعالى: ﴿يتجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُهُ﴾.

(١) إبراهيم/ ١٧.

«يقال: ما التجرع؟ الجواب تناول المشروبات جرعة جرعة...

ويقال: ما الإساغة؟ والجواب إجراء الشراب فى الحلق على تقبل النفس.

ويقال: ما الموت؟ والجواب: عرض يضاد الإدراك فى البنية الحيوانية»[1] إلخ....

وعلى هذه الطريقة يسير تفسيره، أغلب الظن أنها طريقة حديثة فى التفسير نسبتها إلى رجل من رجالات القرن الرابع أمر غير مقبول، لأن المفسرين السابقين، أو المعاصرين له، لم ينهجوا هذا المنهج فى تفسيرهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الرمانى اشتهر بين علماء عصره بالأسلوب الغامض حتى قال الفارسى عنه «إن كان النحو ما يقوله الرمانى، فليس معنا منه شىء، وإن كان النحو ما نقوله نحن، فليس معه منه شىء»[2].

فنسبة هذا الجزء إلى الرمانى أمر مشكوك فيه، وبخاصة، فإن نسبة هذا الكتاب إلى الرمانى على الصفحة الأولى منه مكتوب بخط حديث كما هو واضح فى المخطوطة المصورة.

ومن حسن الحظ أنى حينما اطلعت على فهارس المكتبات الأوروبية وجدت فى فهرس المكتبة الأهلية بباريس، ص٢٨٧ أن هذه المكتبة تضم جزءاً من تفسير الرمانى، وقد اتصلت ببعض العلماء هناك لتصوير هذا الجزء وإرساله، لإلقاء الضوء الكاشف على هذه القضية، وإننا لمنتظرون.

وحتى الآن ما زالت نفسى مطمئنة إلى أن تفسير جزء عمّ للرمانى نسبته إليه صحيحة لأن العلامة أحمد تيمور كان مولعاً بجمع هذه الكتب النفيسة، وكان يعلق على كثير منها فوجوده فى خزانته، ووجود النسبة إلى الرمانى على الصفحة الأولى من هذا المخطوط يشعرنا بأن هذا الجزء أصح نسبة إلى الرمانى من الجزء الآخر الذى صوره معهد المخطوطات على أية حال، ما زلت أقول: إن هذه القضية مفتوحة لمن يدلى بدلوه بين الدلاء خدمةللعلم، وإيمانا بالمعرفة، وإرضاء للضمير.

---

(١) انظر ورقة ١ من هذا الجزء.

(٢) البغية: ج٢، ص١٨٠.

منهج الزمخشرى فى الدراسة النحوية:

١ـ النظر من خلال الدراسة النحوية إلى الـذوق الأدبى، والأسلوب البلاغى بغض النظر عن تقديرات النحاة.

يقول فى قولـه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١] «ومحل هدى للـمتقين الرفع لأنه خـبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فـيه لذلك» أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقـدم خبراً عنه ويجوز أن ينتصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف.

ثم قال: «والذى هو أرسخ عرفاً فى البلاغـة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً، وأن يقال: إن قوله: الـــمّ جملة برأسها، أو طائـفة من حروف المعجم مستقلة بنفسهـا، وذلك الكتاب جملة ثانية، ولا ريـب فيه ثالثة، وهدى للمتقيـن رابعة، وقد أصيب بترتيبها مـفصل البلاغة، وموجب حسـن النظم، جيء بهـا متناسقة هكـذا من غير حرف نسـق وذلك لمجيئها مـتآخية، آخذاً بعضها بعنق بعض»[١].

٢ـ يجرى فى معظم تناولـه للنحو القرآنى مجرى مذهب البصريـين، ففى الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا﴾[٢] يصف مذهب الـصريين فيها بالسـداد، ولا يكتفى بذلك، بل يشيـد بكتاب سيبويه، ولا يقنـع بهذه الإشادة، بل يجب الجثو بيـن يدى الناظر فى كتاب سيبويه[٣].

٣ـ ومن منهـجه الاعتماد على القـراءة لتصحيح الوجـه الإعرابى، فيقول فى قولـه تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٤] أشد معـطوف على الـكاف إما علـى معنى أو مـثل أشد قسوة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة»[٥].

٤ـ ومن منهـجه التعرض للغـات العرب، ففى قولـه تعالى: ﴿يوم يأت﴾[٦] يقـول: «يوم

---

(١) الكشاف، ج١، ص٢٩. البقرة/ ٢
(٢) الأعراف: آية ١٣٢.
(٣) الكشاف، ج٢، ص١١٥.
(٤) البقرة: آية: ٧٤.
(٥) الكشاف، ج١، ص١١٦.
(٦) هود: ١٠٥.

يأت بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل»[1].

٥ـ ولا يعتد ببعض القراءات الصحيحة كقراءة ابن عامر أحد القراء السبعة حيث وقف منها الزمخشرى موقف الناقد، وذلك فى قراءة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[2] حيث قرأ ابن عامر «قتل أولادهم شركائهم» برفع القتل، ونصب الأولاد، وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما فى غير ظرف. وأرجع الزمخشرى خطأ ابن عامر إلى رسم المصحف حيث قال: «والذى حمله على ذلك أنه رأى فى بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء»[3].

وقد حمل أبو حيان الأندلسى على الزمخشرى حملة عنيفة حيث قال عنه: «وأعجب لعجمى ضعيف فى النحو يرد على عربى صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها فى لسان العرب فى غير ما بيت وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم وفهمهم وديانتهم»[4].

٦ـ ومن أخطاء الزمخشرى المنهجية: ظنه أن القراءة مرجعها إلى اللغة والنحو لا إلى السند والرواية. يقول فى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾[5] وقرىء الحق بالرفع، والجر صفة للولاية، ولله.

وقرأ أبو عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد كقولك: هذا عبدالله الحق، لا الباطل، وهى قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم»[6].

---

(١) الكشاف، ج٢، ص٣٣٥.
(٢) الأنعام: ١٣٨.
(٣) البحر المحيط، ج٤، ص٢٢٩: أبو حيان الأندلسى.
(٤) المرجع السابق والصفحة.
(٥) الكهف: ٤٤.
(٦) الكشاف، وج٢، ص٥٦٦.

قال أحمد بن المنير: يردّ عليه زعمه هذا، فإنه يوهم أن القراءة موكولة إلى رأى الفصحاء واجتهاد البلغاء، فتتفاوت فى الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع.

والحق لا يجوز لأحد أن يقرأ إلاّ بما سمعه فوعاه متصلاً[1].

* * *

وبعد، فإن الزمخشرى وكتابه الكشاف فى حاجة إلى دراسة واسعة لايتسع هذا البحث للإفاضة فيها، وقد ضمّ كتابى «القرآن الكريم وآثره فى الدراسات النحوية» بعضاً من هذه الدراسة.

أما ما ذكرته هنا، فهو غيض من فيض، ويكفى من القلادة ـ فى هذا المقام ـ ما أحاط بالعنق.

أرجو الله أن يجعل الحق رائدنا، والعلم وحده غايتنا، والعمل من أجل كتابه الكريم هدفنا الأسمى، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

* * *

(١) الانتصاف، ج٥، ص٥٥٦ (هامش الكشاف).

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الأشباه والنظائر للسيوطى ـ تحقيق ـ د. عبدالعال سالم مكرم ـ نشر مؤسسة الرسالة.

٢ـ الانتصاف ـ هامش الكشاف لأحمد بن المنير ـ مطبعة الاستقامة.

٣ـ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ـ مطبعة السعادة ـ ط أولى ودار الطباعة المصرية سنة ١٢٨١ هـ.

٤ـ بغية الوعاة للسيوطى ـ طبع عيسى الحلبى.

٥ ـ تفسير جزء عم للرمانى ـ مخطوط ـ مكتبة تيمور رقم ٢٠١ ـ تفسير.

٦ـ الحجة لأبى على الفارسى ـ مخطوط ـ نسخة مصورة رقم ٢٤٦٣ ـ دار الكتب المصرية.

٧ ـ الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى ـ تحقيق حسين بن فيض الله الهمدانى طبع دار الكتاب العربى طبعة ثانية سنة ١٩٥٧.

٨ ـ طبقات المفسرين للسيوطى طبع أوروبا.

٩ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشرى ـ مطبعة الاستقامة طبعة ثانية ـ ودار الطباعة المصرية سنة ١٢٨١هـ.

١٠ـ المسائل لابن قتيبة ـ مخطوط ـ نسخة مصورة ـ مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧.

١١ـ معجم الأدباء لياقوت ـ نشر دار المستشرق ـ بيروت ـ لبنان.

١٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ المطبعة الأزهرية.

* * *

٥. غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية(*)

١ - اللهجة القرشية:

من المكرر المعاد القول بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، فهذه حقيقة لايختلف فيها أحد، اللهم إلا من أعمى الله أبصارهم وطمس على قلوبهم.

وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة حيث أعادها أكثر من مرة فى كتابه العظيم حيث يقول - ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾(٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾(٥).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٦).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٧).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٨).

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾(٩).

ويذكر الرواة والعلماء أنه نزل بلهجة قريش ، ولهجة قريش ، هى اللهجة النموذجية الأدبية، وقد نضجت حتى وصلت إلى الذروة فى فصاحتها وبلاغتها.

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى مارس ١٩٧١.

(١) النحل :١٠٣. (٢) الشعراء: ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

(٣) يوسف : ٢. (٤) الرعد: ٣٧.

(٥) طه : ١١٣. (٦) فصلت: ٣.

(٧) الشورى:٧ . (٨) الزخرف : ٣. (٩) الأحقاف :١٢.

وقد شاع بين العلماء هذا القول، وسجلته كتب الرواية والتاريخ حتى أوشك أن يكون حقيقة مؤكدة.

وقد أرجع بعض العلماء المحدثين الأنتصار الكبير للهجة القرشية فى مجال الفصاحة والبلاغة إلى عدة عوامل أجملها فيما يأتي:

١- العامل الجغرافي:

لأن قريشا تسكن منطقة مستقلة تسمى حجازاً لها يحفظها من التأثر البعيد المدى بالمؤثرات الخارجية، ولذلك احتفظت بخصائصها اللغوية.

٢- العامل الديني:

فقد كانت قريش سدنة البيت، والبيت محجة العرب فى الجاهلية.

٣- العامل الاقتصادي:

فمعظم تجارة العرب كانت فى أيدى قريش يجوبون بها طرف الجزيرة شمالا، وجنوباً ومجامع العرب وأسواقها بعد الحجيج كانت تعقد على مقربة من مكة.

٤- العامل السياسي:

وهو مرتب على العوامل السابقة، وقد يسر ذلك كله أسباب النفوذ لقريش فى أنحاء الجزيرة (١).

ومن القدماء الذين أثر عنهم هذا القول «أبونصر الفارابي» فقد قال فى كتابه المسُمّى بـ «الألفاظ والحروف» كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق (٢).

من هذا الذى قدمت تبين لنا فى وضوح السر الذى من أجله نزل القرآن الكريم بهذه اللهجة القرشية، فرسول الله ﷺ الذى نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر به قومه «أفصح

(١) من مقال المرحوم الدكتور النجار: مجلة الأزهر مجلد ٢٣ ص ٤٩.
(٢) المزهر ج ١ ص ١٢٨ مطبعة السعادة.

العرب، وهو من قريش، وقريش من ولد إسماعيل، وولد إسماعيل من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان» [1].

وحينما كتب المصحف قال عثمان رضى الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم»[2].

قال الزهرى : فاختلفوا فى «التابوت» فقال زيد: هو «التابوه» وقال النفر القرشيون هو «التابوت» فرفع الأمر إلى عثمان فقال: اكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم[3].

وفى رأيي أن نزول القرآن الكريم باللهجة القرشية دون غيرها من اللهجات العربية أمر فيه نظر، فإن القرآن الكريم اشتمل على كثير من لهجات العرب التى انتشرت فى الجزيرة العربية، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء المؤرخون - لما رأينا بعض الصحابة يرجع إلى النبى ﷺ ليفسر له بعض كلمات القرآن التى غمض عليه معناها، فقد سأله السائل فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[4].

قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ فيفسر له النبى ﷺ هذا الظلم بالشرك مستشهداً بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[5].

وإيمانى بهذا الرأى يبعد ما يدعيه بعض المحدثين من أن الإسلام فرض على العرب جميعا لغة عامة هى لغة قريش، مع أن الإسلام بريء من هذا الإدعاء، فقد نزل القرآن بسبعة أحرف ليسر للعرب جميعا الانتفاع به، والالتصاق بأحكامه وآدابه.

وقد بينت ذلك فى بحث سابق نشر فى «مجلة الفكر الإسلامي» [6].

ومالى أذهب بعيدا، فقد وضع الأمر فى نصابه رسول الله ﷺ حينما رد على بعض أصحابه الذين سألوه: «يا رسول الله : «إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن

---

(١) الزينة ج ١ ص ١٤٦.
(٢) الاتقان ج ١ ص ٥٩.
(٣) الزينة ج ١ص ١٤٦.
(٤) الأنعام : ٨٢.
(٥) لقمان : ١٣.
(٦) مجلة الفكر الإسلامي، العدد التاسع.

العرب حقا فقال: إن ربى علمنى فتعلمت» [1] ألا يدل هذا على أن النبى عليه السلام الذى تربى فى قريش، ونشأ بين أحضانها علمه ربه كلام العرب، لأنه أرسل إليهم خاصة وإلى الناس عامة؟ وكيف يتحدى العرب بهذه المعجزة الخالدة ولغة القرآن لغة قبيلة واحدة؟

إن القول بأن القرآن الكريم إنما نزل بلسان قريش وحدها يتعارض مع النصوص القرآنية ذاتها فالنصوص السابقة التى سجلتها فى مقدمة هذا البحث تؤكد أن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين، فكيف أتحكم فى تفسير اللسان العربى بأنه اللسان القرشي؟ وهل قريش وحدها العرب؟ ذلك أمر لايقبله المنطق.

وكيف نفسر قول أبى بكر حينما سأله سائل عن قوله تعالى :«وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا»[2]. فقال: أى سماء تظلني، وأى أرض تقلني، إن قلت فى كتاب الله ما لا أعلم» [3]. وقول عمر رضى الله عنه حينما قرأ على المنبر «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا»[4]. فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال - لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر» [5] فلو كان أبو بكر رضى الله عنه يعلم معنى «مقيتا» لما وقف حائراً أمامها، ولاذ بالصمت فى مجالها، ولو كان عمر رضى الله عنه يعرف معنى «أبا» لما تساءل هذا التساؤل.

كل ذلك يفسر أن القرآن الكريم «اختص بدقيق المعاني، وكنوز الأسرار، وعلو مرتبته فى الفصاحة ، ومباينته لكلام فصحاء العرب، كل ذلك فيه دلالة على شرفه، وأنه فائق على غيره من سائر الكلام كله بحيث لا يدانيه كلام» [6].

وأحب أن أبين فى هذا المقام أن العرب يختلف بعضهم عن بعض فى الإلمام بهذه اللغة الواسعة التى انتشرت فى أرجاء الجزيرة العربية، وتعددت إلى لهجات، ولا أبالغ إذا قلت: إن القبيلة الواحدة قد يعز على بعض أفرادها أن يحيطوا بقاموس لهجتها ومن هنا نعرض إلى قضية أخرى، وهى قضية غريب القرآن.

---

(١) المسائل لابن قتيبة : ورقة - ٤ : مخطوط.
(٢) النساء: ٨٥.
(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣.
(٤) عبس : ٣١.
(٥) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣.
(٦) الطراز ج ٣ ص ٢١٩.

٢ - غريب القرآن:

يوضح لنا «الرافعى» فى كتابه «إعجاز القرآن» معنى الغريب فيقول :

فى القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هى التى تكون حسنة مستغربةفى التأويل، بحيث لايتساوى فى العلم بها أهلها، وسائر الناس»(١).

وفى مجال الغريب ظهر ابن عباس رضى الله عنهما - مفسرا ومبينا، وكما يحدثنا التاريخ أنه أول صحابى خاض فى معمعة هذا الغريب، وأنه وضع الأسس الأولى لكل من جاء بعده من أصحاب الغريب، وأسئلة نافع بن الأزرق له تدل على قدم راسخة فى معرفة لغات العرب، والعلم بمواقع كلامها، ومدلولات ألفاظها، وإليك، أيها القارىء بعض هذه الأمثلة.

١ - سأله نافع عن قول الله تعالى :« عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ »(٢).

قال ابن عباس: حلق الرفاق ، قال نافع، وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى

يكونوا حول منبره عزينا.

٢ - وسأله عن قوله تعالى :«وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ »(٣) قال :الوسيلة الحاجة، أما سمعت قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة

إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

---

(١) إعجاز القرآن ص ٧٤.

(٢) المعارج :٣٧.

(٣) المائدة : ٣٥.

٣ - وسأله عن قوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (١) قال: نضجه وبلاغه. أما سمعت قول القائل:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت

كما اهتزّ غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢) قال: أفلم يعلم .

٤ - أما سمعت قول مالك بن عوف:

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه

وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

٥ - وسأله عن قوله تعالى:« وَلَا تَضْحَى »(٣) قال: لاتعرق من شدة حر الشمس.

أما سمعت قول القائل:

رأتْ رجلا أما إذا الشمس عارضت

فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ويعلق الإمام السيوطى على هذه المسائل المتعددة فى الغريب، والتى ذكرت طرفا منها فى هذا البحث بقوله:

«هذا آخر مسائل نافع بن الأزرق، وقد حذفت منها يسيرا نحو بضعة عشر سؤالا، وهى أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفراداً منها بأسانيد مختلفة إلى ابن عباس.

وأخرج أبو بكر الأنبارى فى كتاب «الوقف والابتداء» منها قطعة.

«وأخرج الطبرانى فى معجمه الكبير منها قطعة» (٤).

---

(١) الأنعام: ٩٩. (٢) الرعد: ٣١.

(٣) طه: ١١٩.

(٤) الإتقان ج ١ ص ١٣٣.

وعلى الرغم من إنكار الدكتور طه حسين فى كتابه «الأدب الجاهلي» قصة استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغربية بالشعر العربي، فإننا لانوافقه على هذا الإنكار، لأن الدكتور يعتمد على إنكاره هذا بأن هذه القصة قد وضعت فى تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، أو هذه القصة مدسوسة عليه فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار [1].

والواقع أنه لاداعى لهذه الاحتمالات أو هذه الافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذى يلجأ إليه فى تفسير هذا الغريب ولعله كان متأسياً فى منهجه هذا بما رواه: «أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال: أى علم القرآن أفضل؟ فقال النبى ﷺ عربيته فالتمسوها فى الشعر» [2].

هذا فضلا عن ابن عباس رضى الله عنه تميز عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ بميزة التأويل، وهى ميزة لا تتأتى بالممارسة ، أو تكتسب بالتجربة ولكنها إلهام من السماء يتفتح له العقل ، فيعي، ويحفظ ما وعاه، ويتفتح له القلب فيدرك من الأسرار ما لا يدرك غيره، وكان كذلك ابن عباس، لأن النبى عليه السلام دعا له، فقال: «اللهم علمه التأويل»[3].

ومن حق القارىء بعد هذا الذى قدمت أن يقول: وما دليلك على أن القرآن الكريم اشتمل على لغات أو لهجات غير اللهجة القرشية؟ فأقول له إن المحققين من العلماء بينوا لنا كثيرا من هذه اللهجات،وقد ألف فى ذلك إسماعيل بن عمرو المقريء كتابه «اللغات فى القرآن» وإنى اكتفى بذكر طائفة منها فى سورة واحدة هى سورة البقرة، لتكون دليلا على ما أقول.

من سورة البقرة:

(رَغَداً) اية ٣٥ = الخصب بلغة طىء.

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٠٩.

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٦١.

(٣) مفتاح السعادة ج ٢ص ٤١٥.

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَة) آية ٥٥ = الموت بلغة عمان.

(رِجْزًا) آية ٥٩ = العذاب بلغة طيئ.

(خَاسِئِين) اية ٦٥ = صاغرين بلغة كنانة.

(فَبَاءُو بِغَضَب) آية ٩٠ = استوجبوا بلغة جرهم.

(اشْتَرَوُا) آية ٩٠ = باعوا بلغة هذيل.

(سَفِهَ نَفْسَه) آية ١٣٠ = خسر بلغة طيء.

(فَلا رَفَث) آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج.

(ثُمَّ أَفِيضُوا) آية ١٩٩ = انفروا بلغة خزاعة.

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) آية ٢١٣ = الحسد بلغة تميم.

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاق) آية ٢٢٧ = حققوا بلغة هذيل.

(فَلا تَعْضُلُوهُن) آية ٢٣٢ = لاتحبسوهن بلغة أزد شنوءة.

(فَتَرَكَهُ صَلْدًا) آية ٢٦٤ = أجرد بلغة هذيل [١].

على أن هذه الكلمات عدت غريبة بالنسبة لغير القبائل التى لم تحتو لهجاتها مثل هذه الكلمات أما القبائل التى وردت هذه الكلمات وفق لغاتها فليست بالنسبة لهم غريبة.

ومن هنا كان واجب العلماء أن يتقصّوا هذه الكلمات، وينسبوها إلى أصحابها وقد فعلوا تيسيرا لمعانى القرآن الكريم، وكشفا للدلالات التى تدل عليها هذه الكلمات، والحق أنّنا نجد أن العلماء لم يقصروا فى هذا المضمار، شمروا عن سواعد جدهم، وبذلوا كل جهدهم، ليذللوا مصاعب هذا الغريب خدمة لكتاب الله وتوضيحا لمعانيه.

ولعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا فى هذا المجال نجده كتاب «مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى، فقد نص السيوطى فى كتابه «الوسائل» «أن أول من صنف فى

(١) اللغات فى القرآن ص ٢٠،ص٢١.

غريب القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى ١١٧ وأبى عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤، وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبا، وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة» [١].

وهذا الكتاب وإن كان يحمل اسم المجاز، فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفيسر هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب مثل «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة [٢] وكتاب «لغات القرآن» [٣] لأبى حيان الأندلسي، وككتاب «اللغات فى القرآن» لإسماعيل بن عمرو [٤] وانظر كتب غريب القرآن فى الفهرست لابن النديم تجدها كثيرة.

ومن الحق أن أقرر فى هذا البحث أن هذه اللهجات العربية التى وردت فى القرآن الكريم لم تطغ على لهجة قريش، فمعظم كلمات القرآن الكريم قرشية، ولكنى أظلم الحقيقة حينما أقول: إن القرآن الكريم فرض لهجة قريش على قبائل العرب وألزمهم القراءة بها، ذلك أمر يخالف منطوق الحديث: «إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف» وأظلم الحقيقة مرة أخرى لو قلت: إن جميع الكلمات القرآنية قرشية بدليل ما قدمت من كلمات وردت فى هذا الكتاب العزيز غير قرشية على أنه من ظلم الحقيقة مرة ثالثة أن أدعى أن اللهجة القرشية تختلف اختلافاً كبيراً عن غيرها من لهجات العرب ذلك أمر لانقبله للأمور الآتية:

١ - معرفتنا باللهجة القرشية غير كاملة، فليس لنامعجم يوضح رصيدها من الكلمات، حقا إن هناك دراسات دارت حول خصائص اللهجات، و لكنها محاولات تخطيء وتصيب، وليس لها من المراجع التى تعتمد عليها غير المعاجم، وجمعها لم يكن على منهج علمى سليم، فلم تحاول أن تصنف القبائل، وتنسب كل لفظ إلى مصدره اللهم إلا إشارات معدودة لاتغنى شيئاً فى مجال دراسة اللغات.

---

(١) الوسائل فى مسامرة الأوائل ص ٦١٢.
(٢) مطبوع بتحقيق الأستاذ سيد صقر.
(٣) مخطوط التيمورية ٧٤ لغة.
(٤) مطبوع.

على أن السيوطى فى «المزهر» يؤكد أن «الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس، وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ، وعليهم اتكل فى الغريب،وفى الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة» (١).

٢ - من قال إن قريشا أغلقت على نفسها باب الهجرة أو الرحلة من مكان إلى آخر وذلك ببعدها عن الاحتكاك بغيرها من اللهجات الأخرى، فتسلم لها فصاحتها، ويصان لها لسانها..؟

إن هذا القول مخالف لمنطق القرآن الكريم الذى ينص على أن لقريش رحلتين، رحلة الشتاء والصيف، وناهيك بهذه الرحلات ، أليس فيهاكلمات تتبادل؟ أليس فيها مسميات جديدة لم تعهدها قريش فى لهجتها؟ ألا يؤثر الكلام بعضه فى بعض؟ إن قوانين تصارع اللهجات تثبت هذه الحقيقة،وهى أنه مادام هناك اختلاط فهناك احتكاك لغة بلغة، ولهجة بلهجة، وأسلوب بأسلوب مما لايجعل القول بصيانة هذه اللهجة فى هذه الحالة قولا صائباً.

هذا فضلا عن الاحتكاك اللغوى والأدبى فى أسواق العرب التى كانت تقام فى الجاهلية ولاتنسى ما يفعله موسم الحج من تأثير لغوى كبير، يقولون: إن قريشا كانت تأخذ من هذه القبائل الموفدة أو التى تختلط بها فى رحلاتهم ماخف وقعه على مسامعهم من الألفاظ الرقيقة والكلمات العذبة الموسيقية، وعلى مدى السنين تكونت لهجتهم، إن صح ذلك فهو دليل على أن لهجة قريش خليط من لهجات متعدّدة تمثل اللهجات العربية فى الجزيرة العربية، ومن ثم نزل القران الكريم بها، لأنها اللهجة التى تتمثل فيها لهجات العرب ولاغرو حينئذ أن تكون اللهجة القرشية التى نزل بها الصورة الحية فى مجال تحدى العرب جميعاً أن يأتوا بمثله.

وهذا القول فى نظرى قريب إلى الصواب، لأن لهجة قريش انتخبت من جميع اللهجات، ولكن حينما نقول : أن لقريش لهجة خاصة فى ألفاظها، وتراكيبها تختلف عن لهجات العرب المنتشرة فى الجزيرة، وأن القرآن الكريم نزل بها وحدها فذلك أمر لايقبله

(١) المزهر ج ١ ص ١٢٨، الاقتراح: ص ٢٤.

العقل، لأن فى القرآن الكريم كما قدمت سابقا كلمات كثيرة ليست قرشية الأصول كما نصت على ذلك كتب الغريب، وكتب المعاجم.

٣ - القبائل العربية قبل الإسلام لم تكن تعيش فى عزلة، ومن ثم كانت لهجاتهم جميعاً متقاربة، يفهم بعضهم بعضا حتى القبائل التى كانت تعيش فى شمال الجزيرة لم تبتعد فى لهجاتها كثيرا عن القبائل التى كانت تعيش فى جنوب الجزيرة، بل لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت: إنها لغة واحدة فى صميمها ، ولا يعدو الاختلاف أن يكون إلا اختلافا يسيراً فى صفات الحروف من جهر وهمس، وتفخيم وترقيق وهمز وتسهيل، وهذاأمر طبيعى يقتضيه التّطوّر اللغوي.

ومما يؤيد ذلك وفد الحجاز عند سيف بن ذى يزن ملك اليمن، فقد اتجه هذا الوفد وعلى رأسه سيد قريش عبدالمطلب بن هاشم، إلى ملك اليمن يخطب ببيانه القرشي، وسيد اليمن يصغى إليه، ويستمع إلى شاعر الوفد أمية بن أبى الصلت، ويفهم ما يقول فى غير غرابة أو غموض (١).

ومالى أذهب بعيدا ونحن فى عالمنا العربى نتكلم بلهجات متعدّدة لاشك هى من أم واحدة هى العربية التى تطورت إلى هذه اللهجات، ولم يكن هذا الاختلاف فى غير الأشكال.

ويعجبنى فى هذاالموقف كلمة الدكتور «غوستاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب» حيث يقول: «واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاما وهى مختلفة اللهجات لاريب فى سوريا وجزيرة» العرب، ومصر والجزائر وغيرها.

ولم يكن هذا الاختلاف فى غير الأشكال، فترى المراكشى يفهم بسهول لهجة المصريين ، أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلا ، مع أن سكان القرى الشمالية الفرنسية لايفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية فى فرنسا».

---

(١)انظر قصة هذا الوفد والتعليق عليه فى كتاب «مولد اللغة» لأحمد رضا العاملى ص ٥٦.

وقد نقل «لوبون» كلمة الرحالة« بركهارد» الذى يعد حجة فى هذا الموضوع فقال: «نجد اختلافا كبيرا لا ريب فى لهجات اللغة العربية العامية أكثر من أية لغة أخرى على ما يحتمل، ولكنه لايصعب عليك أن تفهمها جميعا إذا ما تعلمت إحداها، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلوها بها» (١).

أما كلمة أبى عمرو بن العلاء :«وما لسان حمير بلساننا، ولالغتهم بلغتنا» تلك الكلمة المأثورة عن أبى عمرو، والتى ترددت فى كتب الرواة - فأحسن تفسير لإشكالها تفسير الدكتور الحوفى فى كتابه «الحياة العربية فى شعر الجاهلية» حيث يقول :«إن اللغتين عربيتان، ولكن التطور، والمكان، والزمان، والأحداث، والألسنة الخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين، بدليل قوله (فى رواية أخرى) ولا عربيتهم بعربيتنا، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان» (٢).

٤ - على أن مقياس الفصاحة وقف أمامه العلماء حياري، فابن فارس يشيد بلهجة قريش أو بلغتها حيث يقول:«إن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، ذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا ﷺ فجعل قريشا قطان حرمه، وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم وحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب»(٣). والبصريون يشترطون فى الفصاحة أن تصدر من العرب الخلص الذين لم تؤثر فيهم الحضارة، واعتصموا بالبادية من الاختلاط بغيرهم.

ومن ثم كانوا «يفتخرون على الكوفيين بأنهم يأخذون اللغة عن حرشة الضِّباب، وأكلة اليرابيع، على حين يأخذها الكوفيون من أكلة الشواريز وباعة الكواميخ (٤).

---

(١) حضارة العرب ص ٥٣٢. (٢) ج ١ ص ٤١. (٣) المزهر ج ١ ص ٢١٠.

(٤) حرشة الضباب = الصيادون - اليرابيع = جمع يربوع وهى دويبة. الشواريز الألبان الثخينة، الكوامخ = المخللات يشهى بها الطعام.

مع أن لغتنا العربية التى تتمثل فى المعاجم جمعت فى معظمها بروايات البصريين، وحسبنا أن نذكر فى هذا المجال أن أول عمل معجمى قام به الخليل بن أحمد عميد مدرسة البصرة هو معجم العين.

ومن الحق أن نذكر بجانب ذلك أننا لو طبقنا منهج البصريين فى أخذ اللغة لتجنبنا لغة قريش، لأنها خليط من اللهجات كما قلت سابقاً، ولأن أصحابها كانوا يقومون برحلات متعدّدة صيفا وشتاء إلى أطراف الجزيرة العربية فى اليمن، وفى الشام، ولكن الحق يفرض علينا سلطانه فى هذه القضية، وهو أن لغة القرآن الكريم - كما يقول الفراء - أفصح أساليب العربية على الإطلاق (١).

من أجل ذلك أحب أن أبين هنا أن لغة القرآن الكريم لم تكن لغة لهجة واحدة ولكن من كمالها أن تكون مشتملة على كثير من لغات العرب الأخرى ليكون التحدى أتم والمعجزة أبلغ.

وقد لمس هذا المعنى الإمام ابن الجزرى فأصاب المحز حينما قال: «لو جاء القرآن الكريم كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فلا تتم الحجة من الإعجاز إذ يقال مثلاً: إنه جاء بما لاقدرة للعرب على جنسه، كما لايصح أن يقول البصير للأعمى : قدغلبتك بنظري، لأن الأعمى يقول له: إنما تتم لك الغلبة إذا كنت قادرا على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري، أما إذا فقد أصل النظر فكيف تصح المعارضة؟»(٢).

ولعلى بعد هذا العرض أكون قدوفيت الموضع حقه فى قضية غريب القرآن الكريم وآمل أن أكمل هذا البحث بقضية أخرى تعالج ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات أعجمية فإلى اللقاء فى مقال آخر إن شاء الله.

* * *

(١) العربيّة يوهان فك ص ٥.

(٢) نقل هذا النص من مقال للمرحوم الشيخ عبدالجواد رمضان نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن: لجلال الدين السيوطى ـ طبعة ثالثة ـ مطبعة الحلبى.

٢ـ إعجار القرآن: مصطفى صادق الرافعى ـ مطبعة الاستقامة ـ طبعة سادسة.

٣ـ العربية ـ يوهان فك ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار ـ مطبعة دار الكتاب العربى.

٤ـ الاقتراح : لجلال الدين السيوطى ـ مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ طبعة أولى ـ حيدر آباد.

٥ ـ حضارة العرب : للدكتور غوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر طبع دار إحياء الكتب العربية.

٦ـ الزّينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى ـ تحقيق حسين فيض الله الهمدانى طبع دار الكتاب العربى ـ طبعة ثانية ١٩٥٧م.

٧ـ الطراز: ليحيى بن حمزة العلوى ـ مطبعة المقتطف بمصر ١٩٢٤هـ.

٨ ـ فى الأدب الجاهلى ـ للدكتور طه حسين ـ مطبعة دار المعارف ـ مصر .

٩ـ لغات القرآن: لأبى حيان الأندلسى ـ مخطوط ـ التيمورية رقم ٧٤ ـ لغة.

١٠ـ مجلة الأزهر.

١١ـ المزهر: جلال الدين السيوفى ـ مطبعة السعادة.

١٢ـ مجلة الفكر الإسلامى.

١٣ المسائل لابن قتيبة ـ مخطوط ـ مصوّر رقم ٢٠٩٦٧ ـ مكتبة جامعة القاهرة.

١٤ـ مفتاح السعادة ـ لطاش كبرى زاده ـ دائرة المعارف التطامية ـ الهند.

١٥ـ مقدمتان فى علوم القرآن ـ تحقيق أرثر جفرى ـ مطبعة السنة المحمدية.

١٦ـ مولد اللغة: لأحمد رضا العاملى ـ نشر دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

١٧ـ الوسائل فى مسامرة الأوائل: لجلال الدين السيوطى.

***

٦. قضية الكلمات الأعجمية فى القرآن الكريم (*)
فى
ضوء الدراسة والبحث

لم تكن اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم لغة ضعيفة فى مفرداتها، وتراكيبها، وألفاظها ومعانيها، بل كانت لغة تحمل فى طياتها عناصر الحياة، وقوة التعبير، وجمال الكلمة، ورشاقة الألفاظ، وغزارة المعانى.

أجل، لم تكن اللغة العربية بلغت سن الشيخوخة، يدب فى أوصالها الوهن، ويعتريها الضعف لتلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكنها كانت فى طور الشباب، قوية فتية، تسحرك بألفاظها، وتدهشك بمعانيها، وتأخذ بمجامع قلبك، حينما تصغى إليها فى مجالات التعبير المختلفة: شعرا وخطابة، ومحاورة، وأمثالا.

وهذه اللغة التى بلغت القمة فى التعبير عن المعانى المختلفة، المحسوسة أو المعقولة، فى ألفاظ جزلة، وعبارات متآخية، وكلمات عذبة، هذه اللغة نزل بها القرآن الكريم، ليتحدّى من يملكون ناصية هذه اللغة فى مجال فصاحة الكلمة، وبلاغة المعني، وجمال الأسلوب، «فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص إلا من تجاهل منهم وتعامي، واستكبر وتعاشى، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستورا، ومن عى لسانه ما كان مصونا، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، فالخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة» (١).

واستطاعت اللغة العربية أن تستقى من هذه المعجزة الخالدة ما أعانها على التطور

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ نوفمبر سنة ١٩٧١.

(١) انظر: مقدمة تفسير الطبرى: ١/ ٦.

العجيب فى صيغها وتراكيبها ومفرداتها، وأساليبها، فبلغت بالقرآن الكريم درجة من الرّقى ليس بعدها درجة.

وقد لفتت هذه المكانة التى وصلت إليها العربية أنظار كثير من المستشرقين المتعصبين منهم وغير المتعصبين، فهذا (آرنست رينان) يقول فى كتابه: (تاريخ اللغات السامية) ما نصه: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوّية التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حُلَل من الكمال إلى درجة أنّها لم تتغيّر أى تغيير يذكر حتى أنه لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة»(١)، وأعجبنى ما كتبه (جون فرن) فى قصة خيالية أشاد فيها بلغة القرآن، ذلك لأنه بنى قصته الخيالية «على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا، أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدأ لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه» (٢).

ولما كانت لغة القرآن الكريم لغة التحدى والإعجاز على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة، فإنى لا أستطيع أن أقبل ما يدعيه بعض العلماء والرواة من أن القرآن التكريم اشتمل على كلمات أعجمية، ليست عربية الصنع، وقبل أن أعرض رأيي فى هذه القضية أرى أن أبسط آراء العلماء حولها، ليكون القارئ على بينة من أمرها. ثم أختم بحثى برأيى الذى أراه فى هذا الموضوع:

١ ـ أما الكلمات الأجنبية التى ثار حولها الجدل، واحتدم النقاش، فهذا بعض منها:

١ ـ ما ورد بلسان الحبشة: قال الطبرى: حدثنا عنبسة عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن أبى موسى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ (٣) قال: الكفلان ـ ضعفان من الأجر بلسان الحبشة.

---

(١) نقل هذا النص من كتاب: «دراسات فى العربية وتاريخها» للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ص١٤.

(٣) الحديد:٢٨.

وعن أبى إسحاق عـن سعيد بن جبير عـن ابن عباس: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ (١) قال: بلسان الحبشة: إذا قام الرجل من الليل، قالوا: نشأ.

= وعن أبى إسحاق عن أبى ميسرة: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ﴾ (٢) سبحى بلسان الحبشة.

وحدثنا حماد بن سـلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عـن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ (٣) قال: هو بالعربية: الأسـد، وبالفارسية: شار، وبالحبشية قسورة»(٤).

وقال السيوطى فى الاتقان = الأواه = الموقن بلسـان الحبشة. الدري: المضئ: بلسان الحبشة (الجبت): اسم الـشيطان بلسـان الحبشة (٥). وقال الزركـشى فى البـرهان فى علـوم القرآن: المشكاة: الكوة بلسان الحبشة (٦).

٢ـ ما ورد بلسان الفرس:

الأباريق: جمع إبريق: التنور ـ الدينار: السرادق ـ الاستبرق: الزنجبيل.

٣ـ ما ورد باللسان الرومانى:

الرقيم: اللوح، القسطاس: العدل، طفقا: قصدا.

٤ـ ما ورد باللسان العبري:

كيل بعيـر = البعير: الحمار. الأليم ـ المـؤلم. درست = قرأت. هدنا = تبنا. راعـنا = كلمة سب.

الرحمن: ذهب المبرد وثعلب إلى أنه عبراني، وأصله الخاء المعجمة.

---

(١) المزمل: ٦.
(٢) سبأ: ١٠.
(٣) المدثر: ٥١.
(٤) الطبرى جـ١ ص٨.
(٥) الإتقان جـ١ ص١٣٨.
(٦) البرهان فى علوم القرآن ص ٢٨٧، ٢٨٨.

٥ ـ ما ورد باللسان القبطى:

الملة الآخرة = الأولى: والقبط يسمون: الآخرة:الأولى، والأولى: الآخرة. بطائنها = ظواهرها: وراءهم ملك: أمامهم. اليمّ = البحر.

٦ـ السريانية: الطور: جبل.

٧ـ اليونانية: سريا: النهر الصغير.

٨ ـ الزنجية: حصب جهنم: حطب جهنم: وقولوا حطة: صوابا.

٩ـ النبطية: «رهوا: سهلا. سيدها: زوجها بلسان النبط، قال أبو عمرو: لا أعرفها فى لغة العرب.

١٠ـ كلمات مختلف فى نسبتها:

السجل: قيل حبشى، وفى المحتسب لابن جني: فارسى معرب.

السندس: قيل: رقيق الديباج بالفارسية، وقيل الرقيق من الستر بالهندية.

وقد أفرد السيوطى هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف، وسماها (المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب).

١١ـ كلمات أعجمية غير منسوبة [١].

وقد نظم تاج الدين السّبكى منها سبعة وعشرين لفظاً فى أبيات جاء فيها:

السلسبيل، وطه، كورت، بيع ... روم، وطوبى، وسجيل، وكافور
والزنجبيل، ومشكاة سرادق مع ... استبرق، صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيّهم وغسّا ... قٌ دينار والقسطاس مشهور
له مقاليد فردوس يعد كذا ... فيما حكى ابن دريد فيه تنور

(١) انظر فى هذا الموضع: الطبرى جـ ١ ص٦، الإتقان: جـ٢ ص١١٩ طبع دار التراث ، البرهان: ص٢٨٧ و ٢٨٨.

وقد ذيل الحافظ بن حجر على هذه الأبيات، وذيل السيوطى عليها بالباقى وهى بضع وستون، فتمت أكثر من مائة لفظة [١].

ب- أراء العلماء حول هذه الكلمات:

١. رأى من يقول: إنها أعجمية:

يستند هؤلاء فى هذا الرأى إلى ما روى سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن على رجل (أعجميا، وعربيا) فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[٢] فأنزل الله بعد هذه الآية فى القرآن بكل لسان [٣].

وعن أبى ميسرة قال: فى القرآن من كل لسان» [٤].

ومن العلماء الذين يرون هذا الرأى الإمام (الجوينى)، ففى رأيه أنه لا يستنكر وقوع المعرّب فى القرآن الكريم، بل يرى أن له فائدة فى مجال البلاغة والبيان، قد لا يشعر بها كثير من الناس، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عليه من دقة البيان، وسر الإعجاز. استمع اليه يقول مدافعًا عن كلمة (استبرق) ما نصه: «فإن قيل: إن استبرق ليس بعربى، وغير العربى من الألفاظ دون العربى فى الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم، وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك. وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغبهم فيها بالوعد الجميل، ويخوفهم بالعذاب الوبيل، لا يكون حثه على وجه الحكمة.. إلى أن يقول:

ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر فى أمور: الأماكن الطيبة، ثم المآكل، والمشارب، ثم الملابس الرقيقة، وكان ينبغى أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس فى الدنيا الحرير، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل. وربما يكون

---

(١) الاتقان جـ ص١١٩، مفتاح السعادة ص ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤.

(٢) ـ فصلت: ٤٤.

(٣) ـ الطبرى جـ١ ص٨.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن، ولا يتركه فى الوعد، لئلا يقصر فى الحث والدعاء.

ثم إن هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى، لأنه أوجز وأظهر فى الفائدة، وذلك (استبرق)، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ، ويأتى بلفظ آخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه، أما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة. ولا يجد العربى لفظا واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع فى اللغة العربية للديباج الثمين اسم، وربّما عرّبوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم، وندرة تلفظهم به.

وأما إنْ ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة، لأنه ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ ـ تطويلٌ، فعلم بهذا أن لفظ (استبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به فى موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه [1].

٢.رأى من يقول:إنها عربية:

على رأس هؤلاء الإمام الشافعى رضى الله عنه، فقد أنكر كل الإنكار أن تكون هذه الكلمات أعجمية الصنع، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين. ولا يمكن أن يصدق العقل، أو يطمئن القلب إلى مثل هذه الروايات، التى تدّعى أعجمية بعض الكلمات، فالقرآن الكريم فى نظر الإمام الشافعى من ألفه إلى يائه عربى فصيح، لم يستعر كلمة من غير لغة العرب، لأنه ليس فى حاجة إليها، بل أحاط بهذه اللغة احاطة كاملة، لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتوقف على معونة فى كلمة أو كلمات، تقدم إليه من مختلف اللغات.

وكان الشافعى صريحا كل الصراحة فى هذا الاتجاه، مؤمنا كل الإيمان بهذا الرأي. لدرجة أنه قدم النصيحة خالصة، حارة ملتهبة لهؤلاء الذين يدعون ما يدعون ليتركوا هذا الانحراف فى الرأى، حتى يسلم لكتاب الله جلاله وسلطانه.

وأنى أترك المجال للشافعى، ليعرض علينا رأيه، معزّزاً بالحجة، مدعما بالبرهان، قال الشافعى فى الرسالة:

---

(١) الاتقان جـ١ ص ١٣٦، ١٣٧.

«فقال منهم قائل: إن فى القرآن عربيا وأعجميا» فرد الإمام على هذا الادعاء بقوله: «والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شئ الا بلسان العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي» إلى أن يقول:

فإن قال قائل: ما الحجة فى أن كتاب الله محصن بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة فى كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾(١) فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعض بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه، وما أطاقوا منه، ويحتمل يكون بعث بألسنتهم، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ ويرد الشافعى على هذا الاعتراض بقوله.

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلابد أن يكون بعضهم تبعا لبعض، وأن يكون الفضل فى اللسان المتبع على التابع.

وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه».

بهذا المنطق القوى رد الشافعى هذا الاعتراض، ولكنه لم يكتف بذلك فوثق هذا الرد بكتاب الله تعالى فى وضوح يبدد الباطل، وصراحة تكشف البهتان، فيقول: وقد بين الله ذلك فى غير آية من كتابه: قال الله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢)، وقال: ﴿وكذلك أنزلناه حُكْماً عربيًّا﴾(٣) وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٤) وقال: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥) وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٦).

---

(١) إبراهيم: ٤.
(٢) الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٣) الرعد: ٣٧.
(٤) الشوري: ٧.
(٥) الزخرف: ١ ـ ٣.
(٦) الزمر: ٢٨

قال الشافعى: فأقام حجته أنه كتاب عربى فى كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب فى آية من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾(٢)، ويختم الشافعى دفاعه عن كتاب الله تبارك وتعالى بهذه النصيحة الغالية فيقول:«فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغى تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه، وكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بإيضاح حق، وكان القيام بالحق، ونصيحة المسلمين من طاعة الله، وطاعة الله جامعة للخير»(٣).

بهذا الرد المقنع، وبهذه النصيحة الخالصة دافع الإمام الشافعى عن قضية عروبة هذه الكلمات، دفاعًا حارًا، لزم فيه المنطق القوي، والحجة البالغة والدليل القرآنى القاطع.

وإنى حرصت كل الحرص على تسجيل عبارات الشافعى بنصها فى هذا المجال، لأنها تحمل من حرارة الدفاع عن كتاب الله أكثر مما تحمل عباراتي.

وفى هذا الخط الذى رسمه الشافعى اتجه الإمام الطبرى فى تفسيره هذا الاتجاه وكأنه بآرائه التى بسطها فى هذهالقضية يضع الدلائل الواضحة على صحة رأى الشافعى، ذلك لأنه يرى أن هذه الكلمات الأعجمية، اتفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربية، فليس من المنطق أن نقول: إنها غير عربية بل هى عربية أعجمية: يقول الطبري: «ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بمعنيين معا؟ ويقول أيضا، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة. وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه، ويمل تعداده.

(١) النحل:١٠٣.
(٢) فصلت:٤٤
(٣) الرسالة:٥٠.

على أن الطبرى لم ينكر هذه الآثار المروية عن ابن عباس، أو عن سعيد بن جبير، بل يقرر صحتها من وجه آخر، غير ما يدعيه هؤلاء الذين يقررون أنها أعجمية فيقول: «فلو أن قائلا قال فيما ذكرناه من الأشياء التى عددنا، وأخبرنا اتفاقه فى اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره، ذلك كله عربى لا فارسى، أو قال: بعضه عربي، وبعضه فارسي، أو قال: كان مخرج أصله عند العرب، فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله عند الفرس، فوقع إلى العرب فأعربته ـ كان مستجهلاً إلى أن يقول: بل الصواب فى ذلك عندنا أن يسمى عربيا أعجمياً، أو حبشيا عربيا إذا كانت الأمتان له مستعملتين إلى أن يقول: «وذلك هو معنى ما روينا عنه القول فى الأحرف التى مضت فى صدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم، لأن من نسب شيئا من ذلك إلى ما نسبه إليه لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربيا»(١).

وتتفق وجهة نظر أبى عبيدة معمر بن المثنى مع الإمام الشافعى والطبري، فيقول: «نزل القرآن بلسان عربى مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول، ومن زعم أن (طه) بالنبطية فقد أكبر، وقد يوافق اللفظ اللفظ، ويقاربه، ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية، والآخر بالفارسية أو غيرها» (٢).

ومع أن أبا عبيدة دافع عن عروبة هذه الكلمات إلا أن الإمام اللغوى الزبيدى صاحب تاج العروس ينسب إلى أبى عبيدة رأيا آخر يوفق بين المانعين والمجوّزين يقول: «قال أبو عبيدة: والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها، وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، ثم لما نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية، فهو صادق، ومن قال: عجمية فهو صادق»(٣).

(١) الطبرى جـ١ ص ٩.
(٢) مجاز القرآن جـ ١ ص ١٨.
(٣) تاج العروس ص ٩.

جـ: رأى ومناقشة:

فى رأيى أننا إذا أردنا أن نصل إلى حل حاسم لهذا الإشكال، فإنه لا بد من الرجوع إلى التاريخ العربى لنستفتيه فى هذه القضية التى كثر فيها الجدل، واحتدم النزاع بين العلماء.

أننا إذا رجعنا إلى التاريخ ليدلنا على كلمة (عرب) فماذا نجد؟ نجد اختلافا كبيرا بين رجال اللغة من العرب فى مدلول هذه الكلمة، فقد قال ابن منظور فى كتابه الكبير: لسان العرب ما نصه: «واختلف الناس فى العرب لم سموا عربا؟ فقال بعضهم أول ما أنطق الله لسانه بلغة العرب يَعْرُب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة.

وقيل: إن أولاد إسماعيل نشئوا بعربة، وهى من تهامة، فنسبوا إلى بلادهم.

ثم قال صاحب اللسان، وكل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمنيّهم، ومعدهم (١).

والمستشرقون وعلى راسهم المستشرق (ولفنسون) فى كتابه (تاريخ اللغات السامية): يرى أن كلمة (عرب) كانت مستعملة فى اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء) أى لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية (٢).

ويرى هذا المستشرق أن ما يقال فى المعاجم اللغوية العربية من أن هناك فرقا بين كلمتى عربى وأعرابي، وتخصيص الأولى بسكان المدن، والثانية بسكان البادية فلم يحدث الا فى عصور قريبة من ظهور الإسلام أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقا، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب، أما سكان المدن والأمصار، فكانوا ينسبون إلى قبائلهم، ويعرفون بمناطقهم (٣).

---

(١) لسان العرب: مادة: عرب.

(٢) تاريخ اللغات السامية: ص ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

ويرى مرة أخرى أن كلمة عبرى تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها، أى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها، وإبلها من مكان إلى آخر.

وقد استدل على هذه النظرية بأن كلمة عبرى مشتقة من الثلاثى عبر الذى معناه بالعبرية والعربية: ذهب، ورحل وقطع مرحلة من الطريق، أى أن كلمتى عبرى وعربى مُشْتَقّتان من ثلاثى واحد هو عبر، فحدث قلب مكانى فى هذه الكلمة الثلاثيّة فصارت عرباً» (١).

وفى رأيى أن المعاجم اللغوية تحدثت عن هذه التفرقة فعلا، ولكنها مع ذلك نصت أيضا على أن كل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمنيّهُم، ومعدّهم كما قدمت.

وأما القرن الذى ظهرت فيه هذه الكلمة، فقد حددته النقوش والآثار التى اكتشفت فى عصرنا الحديث، فقد أشار المستشرق لوبون فى كتابه (حضارة العرب) إلى آثار الأشوريين التى تحدثت عن العرب فقال: «وذكر العرب قبل الميلاد بتسعمائة سنة فى بلاغ (سلما نصر الثاني) وأدت ملكتان عربيتان فروض الطاعة (تيفلا نفانصر) قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة، واستعان (بانيبال) بجيوش عربية عندما رفع راية العصيان» (٢).

ويقسم المؤرخون العرب إلى قسمين: بائدة، وباقية. ومن العرب البائدة. عاد، ومسكنهم الأحقاف فى اليمن، وثمود، ومسكنهم الحجر فى جهة معان، ومدائن صالح، وطسم، ومسكنهم اليمامة، وعمليق، ومساكنهم عمان، والحجاز وتهامة، وبعض نجد، وتيماء وبترا، وفلسطين، وهم القوم الجبارون الذين تهيبهم قوم موسى إذ قالوا: «إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها».

ومنهم جالوت الذى قاتل داود، فقتله داود عليه السلام، وجرهم ومسكنهم باليمن، ومن بقاياهم قوم هاجروا إلى مكة، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام ثم بادوا،، ووبار.. ومسكنهم اليمن فى وبار المسماة باسمهم، وقد هلكوا.

والعرب الباقية: أولاد قحطان، وأولاد عدنان (٣).

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٥.
(٢) حصارة العرب ص ٩١.
(٣) تاريخ الأدب لحفنى ناصف ٨.

وليس ثمة شك فى أن هذه القبائل العربية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم بينة السمات، هذه اللغة هى العربية، والعربية من أقدم اللغات السامية كما نصّتْ على ذلك كتب العبريين، بل إن العرب أنفسهم أقدم من العبريين فى تاريخ وجودهم على هذه الأرض، ومازالت كتبهم تقص علينا الشيء الكثير من أخبار العمالقة، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب.

على أن هذه القبائل العربية لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها، بل اختلطت اختلاطا شديدا بغيرها من أجناس الأمم، اختلطوا بالمصريين حينما اتحدت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا، واستولوا على مصر فى حملة معروفة فى التاريخ المصرى القديم بحملة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ق. م وعرفوا بالرعاة، ودام سلطانهم قرونا كثيرة [١].

وتنص الكتابات المسمارية على أن قبائل ثمود التى كانت تقيم فى بلاد الحجاز اشتبكت فى معارك طاحنة مع سرجون ملك آشور الذى مزقهم كل ممزق، وأجلى البطون الثمودية الثائرة فى بلاد العرب إلى مدينة غزة بفلسطين [٢].

وقدماء اللحيانيين الذين كانوا يقيمون فى الحجاز عرفوا بالقوة والعظمة حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر [٣].

لا شك أن هذا الاختلاط الذى حدث بين العرب وغيرهم فى تاريخهم القديم أدى إلى التفاعل اللغوي، مما جعل اللغة تتطور فى قوة حتى اكتمل بناؤها واتّسعت مفرداتها بفعل هذا الاحتكاك.

ولا أدل على ذلك من اعتراف المستشرقين أنفسهم بهذه الظاهرة فقد قال (ليفنسون): «إن اللغةالعربية تشتمل على عناصر تدل على أنها بصورتها الحالية، ليست أصلية قديمة، بل إنها صيغ مرت عليها تقلبات كثيرة وتغيرات فى حين أن هذه الكلمات توجد فى العبرية أو

---

(١) حضارة العرب ص ٩٠.

(٢) حضارة العرب ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٤.

الآرامية دون أن يظهر عليها شيء من آثار هذا التبديل، فمثلا كلمة (قول) تؤدى بالعبرية معنى = صوت. أما فى العربية فلا تطلق إلا على جملة أصوات مجتمعة، وكذلك (أمر) تدل على الكلام العادي، وتدل فى العربية على الطلب بشدة [1].

وقد استطاعت العربية بما تحمل من عناصر الحياة والتطور أن تؤثر ـ كما تقول روايات المستشرقين أنفسهم ـ (فى النبط الآراميين) فكان ذلك من أهم الأسباب التى حملتهم على نسيان لغتهم الآرامية، وإيجادهم لأنفسهم مزيجا من لغة الآراميين والعرب، ولم يكن هذا المزيج مفهوما عند العرب فأطلقوا عليه الرطانة النبطية [2].

من هذا العرض السابق أستطيع إن أقول: أن هذه اللغة العربية لغة قديمة نكونت بمرور الزمن، وعبر التاريخ، وسارت فى طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت إلى ما قبل الإسلام إلى الذروة من التقدم والرقي، على حين تجمدت اللغات السامية الأخري، لتصبح أثرا بعد عين.

ومن المنطق أن أقول: أن لغة احتكت بغيرها من اللغات الأخري، فأثرت فيها، ووصلت إلى هذه الدرجة من التطور لابد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخري، تمدها بما تحتاج إليه من مفرداتها الواسعة، وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات فى بناء لغات هذه الأمم، ولا يصح فى مجال التفكير السليم أن نقول: إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات، إذا قلنا ذلك، فهذا تحكم لا تسنده إلا هذه الأخبار التى ذكرها الرواة، وهى أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3].

ومن العجب حقا أن ندعى أن مفردات اللغة العربية التى عاشت هذا العمر الطويل وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ، وعبر الأجيال. تمثلها هذه المعاجم اللغوية، أو هذه الروايات التى جمعها لنا رواة العرب حينما بدءوا بدوّنون اللغة.

---

(١) تاريخ اللغات السامية ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٣.

(٣) يوسف:٢.

أجل لقد أحس بهذه الحقيقة راوية من كبار الرواة، وعمد من عمداء اللغة، إنه أبو عمرو ابن العلاء الذى يقول: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب الا أقله ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير» (١).

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجمية هـذه الكلمات من ناحية أخري، فهذه الكلمات كمايـقول السيوطـي: أكثر من مـائة لفظة، وهـو عدد قليل جـدا بالنسـبة إلى كلمـات القرآن الكريم التى تبلغ فـى رواية الفضيل بن شاذان عن عطاء بن يسارٍ: سبـع وسبعون ألف كلمة، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة (٢).

فما السر أذا فى أن يمد القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم. هل اللغةالعربية فقيرة إلى هذا الحد، فتطلب المعونة بهذه الكلمات، كيف ذلك؟ وهى اللغة التى لا تسـتطيع أن تجـاريها لـغة أخرى فـى مجال الاتسـاع، كيف ذلـك؟ وهى اللـغة التى تحـفظ للمعنى الواحد المئين من الألفاظ.

استمع إلى السيوطى يقول فى المزهر: «إن العجم لا تعرف للأسد أسماء عير اسم واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم.

وقال حدثـنى أحمد بن مـحمد بن بـندار قال: سمعـت أبا عبدالله بن خـالويه الهـمذانى يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين.

ويروى ابن فارس قصة الأصمعى والرشيد، وخلاصتها. «أن الرشيد سأل الأصمعى عن شعر لابن حزام العكلي، ففسره، قال: يا أصمعي، إن الغريب عندك لغير غريب، قال: يا أمير المومنين، ألا أكون كذلك، وقد حفظت للحجر سبعين اسما؟ (٣).

ويجدر بى أن أعزز رأيى هذا بـرأيين لرجلين من أعلام الفكر فى العالم الـعربى فى وقتنا الحاضر، وهما الموحومان الدكتور عبدالوهاب عزام، والشيخ أحمد شاكر.

---

(١) الاقتراح: ٢٧.

(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٤٩.

(٣) المزهر جـ ١ ص ٣٢٥.

أما الدكتور عزام فيرى: أن اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا فى عصور متطاولة قبل الإسلام، فدخل فى الفارسية مثلا ألفاظ سامية، فرب لفظ فارسى يظن أصلا للفظ عربى هو فى الحقيقة لفظ سامى تسرب إلى الفارسية فى العصور القديمة، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا فى العصور الإسلامية(١).

وأما المرحوم الشيخ أحمد شاكر، فيرى: أن العرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجودا، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها، بله الفارسية، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية التى يظن أن أصلها ليس من لسان العرب، ولا يعرف مصدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله (٢).

وبعد، فلعلى بهذا العرض لهذه القضية استطعت أن أضع النقاط على الحروف دفاعا عن كتاب الله العربي، هذا من ناحية، ولعلى من ناحية أخرى أسد الباب أمام هولاء اللغويين المحدثين الذين يدعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب، حينما أخذ عن الفارسية والحبشية وغيرهما.

ونحن نلجأ إلى التعريب، لأننا لم نعش فى أعماق اللغة، لنستخرج الكلمة الدالة، واللفظة المعبرة، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية، ولإيثار مد اللغة العربية بكلمات جديدة سيرا على مبدأ التطور اللغوى من ناحية أخرى إن صح لنا أن نعرب الوف الكلمات الوافدة فى عصر تقاربت فيه اللغات، وتمازجت الأفكار، فانه لا يصح مطلقا أن نتخذ من القرآن ذريعة نعتمد عليها فى شرعية هذا الغزو الأجنبي، فإنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* * *

(١) مقدمة المعرب للجواليقي: ص ٤.

(٢) من مقدمة الشيخ شاكر ص ١٣.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى ـ طبعة ثالثة ـ مطبعة الحلبى. وطبعة دار التراث

٢ـ الاقتراح: جلال الدين السيوطى ـ طبع الهند.

٣ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى ـ تحقيق محمد أبى الفضل ـ مطبعة عيسى الحلبى.

٤ـ تاج العروس للزبيدى ـ المطبعة الوهبية.

٥ ـ تاريخ الأدب حفنى ناصف ـ مطبعة جامعة القاهرة ـ طبعة ثانية.

٦ـ تاريخ اللغات السامية الدكتور إسرائيل ولفنسون ـ طبعة أولى ١٣٤٨هـ القاهرة.

٧ـ تفسير الطبرى ـ المطبعة الميمنيّة.

٨ ـ حضارة العرب ـ الدكتور نموستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر طبع دار إحياء الكتب العربية.

٩ـ دراسات فى العربية: الشيخ محمد الخضر حسين.

١٠ـ الرسالة للإمام الشافعى تحقيق الشيخ أحمد شاكر ـ طبعة أولى سنة ١٩٤٠.

١١ـ لسان العرب لابن منظور ـ عدة طبعات.

١٢ـ مجاز القرآن لأبى عبيدة ـ تحقيق محمد فؤاد سزكين ـ طبع مؤسسة الرسالة.

١٣ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطى ـ مطبعة السعادة.

١٤ـ المعرّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم لأبى منصور الجواليقى.

١٥ـ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ـ دائرة المعارف النظامية ـ الهند.

* * *

٧. الشواهد الشعرية وغريب القرآن(*)

تمهيد:

يقسم نقاد الشعر العربى الشعراء إلى طبقات. ومنزلةالشعر العربى القديم كانت سببًا قويًا لهذا التقسيم.

والحقيقة أن الخط الفاصل بين القديم والحديث خط دقيق جدا، فكل شاعر يعيش فى زمنه هو حديث بالنسبة له، ولكنه قديم بالنسبة لمن جاء بعده. يقول ابن رشيق :«كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالإضافة إلى من كان قبله».

ولمنزلة الشعر القديم يروى الأصمعى: أنه جلس إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج فماسمعه يحتج ببيت إسلامى.

ويفسر ابن رشيق هذه المنزلة فيقول: «وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون».

على أن نظرة ابن قتيبة بالنسبة لمنزلة الشعر القديم تختلف كل الاختلاف عن نظرة أبى عمرو وأصحابه، ذلك أنّ ابن قتيبة يرى أن الشعر هبة سماوية لاينفرد بها جيل، أو يستأثر بها عصر، أو يسيطر عليها زمن فيقول: «لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص بها قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره».

على أية حال فالذى أود أن أذكره هنا أن النقاد قسموا الشعراء بالنسبة إلى الزمن إلى أربع طبقات:

جاهلى قديم، ومخضرم: وهو الذى أدرك الجاهلية والإسلام. وإسلامي. ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى، وثانية على التدريج هكذا فى الهبوط إلى وقتنا هذا» .

ويعقد البغدادى فى خزانة الأدب فصلا عن الكلام الذى يستشهد به فى اللغة والنحو

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ فبراير ١٩٧٧.

والصرف. وبعد أن وافق النقاد فى تقسيم الشعراء إلى الطبقات الأربع السابقة ذكر أن الطبقتين الأوليين يستشهد بشعرهما إجماعًا، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها،.... وأما الرابعة فالصحيح أنه لايستشهد بكلامها مطلقاً.

وهناك وجهة نظر أخرى حول الاستشهاد بشعر الطبقة الرابعة فقد رأى بعض العلماء أنّ توافر الثقة بالشاعر يطمئن النفس بالاحتجاج بشعره حتى ولو تأخر زمنه، وعلى رأس هؤلاء القائلين بهذا الرأى الإمام الزمخشرى والإمام الرضى حيث استشهد بشعر أبى تمام فى عدة مواضع فى شرح الرضي على الكافية. واستشهد الزمخشرى أيضاً فى تفسير أوائل البقرة من (الكشاف) ببيت من شعره وقال:«وهو وأن كان محدثا لايستشهد بشعره فى اللغة فهومن علماء العربية».

معنى غريب القرآن:

القرآن الكريم ـ وإن نزل بلغة العرب ـ يحتوى على كلمات تحتاج إلى بيان وإيضاح ، لأنها قد تكون لغة لقبيلة «أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم، والكفر ، والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثة».

وقد بدأت حركة الكشف عن هذه الكلمات الغامضة على يد رسول الله ﷺ ، فقد سأله أعرابى عن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[الأنعام:٨٢] قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسر له النبى عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان :١٣].

ويوضح ابن قتيبة فى كتابه «المسائل» أن «العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض، والدليل عليه قول الله عزوجل:﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] ثم قال : «ويدل عليه قول بعضهم: يارسول الله أنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقا، فقال: إن ربى علمنى فتعلمت».

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسمون هذا الغريب : «إعراب القرآن». ولايقصدون به معنى: الإعراب النحوى، لأنهم كما يقول الرافعى كانوا: «يستبينون معانيه، ويخلصونها» وقد روى أبو هريرة : «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه».

وقد لمس هذا المعنى الزمخشرى فى كتابه:«أساس البلاغة» فقال: «وتكلم فأغرب إذاجاء بغرائب الكلام ونوادره، وتقول :فلان مغرب كلامه ومغرب فيه، وفى كلامه غرابة، وغرب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة أى غمضت فهى غريبة، ومنه قول الأعرابي: ليس هذا بغريب، ولكنكم فى الأدب غرباء».

الشواهد الشعرية والغريب:

مما لاشك فيه أن اهتمام الرواة بالشعر العربي، وجمعه وروايته، وإقامة الدراسات حوله لنقده كان من أجل القرآن الكريم لتفسير غريبه، وتوضيح معانيه. والدليل على هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما:«إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب» ولاهتمام العلماءبالقرآن الكريم كان الشافعى الفقيه الكبير يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها، وغريبها ومعانيها.

وحدثوا عن ابن الأنبارى أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر من أجل القرآن الكريم.

وقد أشاد الرافعى بهذه العناية الفائقة التى وجهها العلماء إلى الشعر العربى من أجل القرآن الكريم فقال: «توسع أهل اللغة فى شواهد القرآن، ونقبوا عنها...إلى أن يقول: فلايعرف فى تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإنّ ما أحصوه من شواهد القران فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر ولعمر أبيك إنها لمعجزة فى فنها، ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملة».

ويسوق لنا الإمام البيضاوى فى تفسيره قصة تبين لنا فى وضوح كيف كان يعجز بعض الصحابة عن فهم معانى بعض هذا الغريب، فإذا ما فسر هذا الغريب بشعر قالته العرب استراحت النفس إلى هذا التفسير، وأطمأن القلب ألى هذا البيان . ففى قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّف﴾[النحل:٤٧] . يقول البيضاوي: أى على مخافة بأن يهلك الله قومًا قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون أو على أن ينقص شيئاً بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، من تخوفته إذا تنقصته».

وهذا التفسير لمعنى التخوف ماكان معروفًا لولا هذه ا لحادثة التى ساقها البيضاوى عقب تفسيره لهذه الكلمة فقد قال: روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه فى لغتنا. التخوف : التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم. قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منهاتامكاً قرداً كما تخوّف عود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لاتضلوا. قالوا: ومادیواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم.

ويعرض لهذه الكلمة الغريبة القالى فى كتابه الأمالى مفسرا بعض الكلمات الغامضة فى بيت الاستشهاد فيقول: التامك: المرتفع من السنام. والقرد: المتلبد بعضه على بعض . والسفن : المبرد.

ولم يكتف أبو على القالى بهذا البيت المستشهد به لتوضيح كلمة : «تخوف» بل يشفع ذلك البيت ببيت آخر فيقول «وأخبرنى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه قال : أتى أعرابى إلى ابن عباس فقال:

تخوفنى مالى أخ لى ظالم فلا تخذلنى اليوم ياخير من بقي

فقال: تخوفك : أى تنقصك؟ قال: نعم، قال الله أكبر:﴿يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّف﴾.

وتواجهنا فى آمالى القالى كلمة أخرى غريبة وهى كلمة :«يمحص» من قوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[آل عمران:١٤١].

قال أبو على : قرأت على أبى بكر الأنبارى فى قوله عزوجل :﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أقوالا : قال قوم : يمحصهم :يجردهم من ذنوبهم، واحتجوا بقول أبى دؤاد الأيادى يصف قوائم الفرس.

صم النسور صحاح غير عاثرة ركبن فى محصات ملتقى العصب

النسور : شبه النوى التى تكون فى باطن الحافر. ومحصات: أراد قوائم منجردات ليس فيها إلا العصب والجلد والعظم. ومنه قولهم: اللهم محص عنا ذنوبنا. قال : وقال الخليل: معنى قوله عزوجل: وليمحص: وليخلص. وقال أبو عمرو وإسحاق بن نزار الشيباني: وليمحص: وليكشف واحتج بقول الشاعر:

حتى بدت قمراؤه وتمحصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

قال: ومعنى قولهم :اللهم محص عنا ذنوبنا أى اكشفها، وقال آخرون: أطرحها عنا. وقال أبو علي: هذه الأقوال كلها فى المعنى واحد ألا ترى أن التخليص تجريد، والتجريد كشف، والكشف طرح لما عليه».

وقد فاضت كتب التراث الإسلامى بهذه الشواهد الشعرية التى خدمت القرآن الكريم فى توضيح غريبه، وكشف معانيه.

وإلى القارىء نماذج من هذه الشواهد ليدرك مدى ما بذل هؤلاء العلماء من جهد صادق فى مجال القرآن الكريم.

من هذه النماذج:

كلمة (زنيم) من قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم:١٣] فقد سئل ابن عباس عنها فاستشهد فيها بقوله :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وعن ابن مليكة قال:سئل ابن عباس عن «الليل وما وسق» فقال: وماجمع، ألم تسمع قول الشاعر:

إن لنا قلائصًا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس حول كلمات من غريب القرآن الكريم مشهورة سجلتها معظم الكتب التى ألفت فى الدراسات القرآنية. وكانت إجابة ابن عباس عن هذه الأسئلة بالشعر العربى ليؤكد أن هذه الكلمات ليست غريبة عن اللغة، وإن كان لايدركها الكثير من العرب.

ومن أسئلة نافع سؤاله عن قوله الله تعالى :﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِين﴾[المعارج:٣٧]. قال ابن عباس: حلق الرفاق . قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك قال نعم، أما سمعت عبيد ابن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتـــى يكونوا حول منبره عزينا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِه ﴾ [الأنعام:٩٩] : نضجه أما سمعت قول القائل:

إذا مامشت وسط النساء تأودت كما افتر غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى :﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] قال : الوسيلة.

الحاجة. أما سمعت قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبي

وسأله عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الرعد:٣١] قال : أفلم يعلم. أما سمعت قول مالك بن عوف.

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

وسأله عن قوله تعالى : ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:١١٩] قال : لاتعرق من شدة حر الشمس، أما سمعت قول القائل:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأمابالعشى فيخصر

الغريب والمجاز:

وإذا تجاوزنا هذا الغريب إلى المعانى والمجاز فإننا نرى كثيرا من الشواهد الشعرية جاءت لتوضح هذه المعانى ، وتكشف لنا أسرار هذا المجاز.

ويطالعنا أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى فى كتابه :«جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام» بطائفة من الشعر الذى استشهد به فى مجالى المعانى والمجاز.

يقول أبو زيد: «وفى القرآن مثل ما فى كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعانى فمن ذلك قول امرىء القيس:

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك وهل تخبر الأطلال غير التهالُك

فقد علم أن الأطلال لاتجيب إذا سئلت، وإنما معناه : قفا فاسألا أهل الأطلال، وقال الله تعالى:﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾[يوسف : ٨٢].

وقال الشماخ بن ضرار التغلبي:

أعائش ما لقومك لا أراهم يضيعون الهجان مع المُضيع

(لا) هنا زائدة، والمعنى: ما لقومك أراهم . وقال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] (لا) هنا زائدة.والمعني: غير المغضوب عليها والضالين.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

فجعل (إلاّ) بدلا من الواو، والمعني: والفرقدان كذلك . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾[النجم:٣٢] (إلا) هنا بدل من الواو . والمعنى : واللمم. وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾[يونس:٩٨].

وقال امرؤا لقيس بن حجر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألاّ يُحسن السِّرَّ أمثالى

السر: النكاح ، قال تعالى :﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾[البقرة:٢٣٥]

وقال زهير :

ويُنغضِ لى يوم الفِجار وقد رأى خيولا عليها كالأسود ضوارى

ينغض: يرفع رأسه . قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾[الإسراء:٥١] أى يرفعونها ويحركونها بالاستهزاء.

وقال النابغة:

تَلُوثُ بعد افتضال البُرد مئزَرَها لَوْثًا على مثل دِعْصِ الرملة الهارى

الهاري: المتهدم من الرمل . قال الله تعالى :﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[التوبة:١٠٩] أى متهدم.

وقال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لاريث ولاعجل

وقال الله تعالي:﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطور: ٩] والمور: الاستدارة والتحرك.

وقال الأعشى:

أم غاب ربك فاغترتك خصاصة فلعل ربك أن يؤوب مؤيدا

الرب : السيد، قال الله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾[يوسف:٥٠] أى إلى سيدك.

وقال الأعشى:

تقول بنتى وقد قرّبت مرتحلاً يارب جنب أبى الأوصابَ والوجعا

عليكِ مثلُ الذى صليت فاغتمضى نوما فإن لجنب الحيّ مُضطَجَعا

الصلاة ها هنا: الدعاء تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾التوبة:١٠٣]

وقال الأعشى يذكر النعمان:

وخرت تميم لأذقانها سجودا لذى التاج فى المعمعه

الأذقان:ا لوجوه كقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[الإسراء:١٠٩] .

وقال لبيد:

وما الناس الا عاملان فعامل يتبِّر ما يبنى وآخر رافع

يتبر: أى ينقص قال الله تعالى : ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩]

وقال أمية بن أبى الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحرٍ وما فاهوا أبدا مقيمُ

الساهرة : الفلاة . قال الله عز وجل : ﴿فإذا هُم بالسَّاهرة﴾[النازعات: ١٤]

وقال أمية بن أبى الصلت:

نفشت فيه عِشاءً غَنمٌ لرعاء ثمّ بعد العتمهْ

النفش :الرعى بالليل. قال الله تعالى: ﴿إذْ نَفَشَتْ فِيه غَنَمُ الْقَوْمِ﴾[الأنبياء: ٧٨] .

وقال أمية بن أبى الصلت:

لقيت المهالك فى حربنا وبعد المهالك لاقيت غيّا

غىّ : واد فى النار . قال الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]

وقال أبو ذؤيب:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نُوبٍ عواسلُ

لم يرج : لم يخف. وقال الله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أى لاتخافون.

هذه أمثلة متعدّدة اقتبستها من كتاب الجمهرة تثبت أن الشواهد الشعرية ضرورة ملحة فى توضيح معانى غريب القرآن، وكشف الستار عن مجاز الكلمات القرآنية التى لا تستطيع المعاجم اللغوية أن تفى بإيضاحها، وبيان المقصود بها.

ويعلق صاحب جمهرة أشعار العرب على هذه الشواهد بعد أن ساق هذه الأمثلة الكثيرة بقوله : (والأخبار فى هذا لعمرى تطول ، والشواهد تكثر غير أننا اقتصرنا من ذلك على ما حكيناه فى كتابنا هذا).

أول مصنف فى غريب القرآن:

لعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا فى مضمار غريب القرآن نجده كتاب

«مجاز القرآن» لأبى عبيدة معمر بن المثنى، ذلك لأن السيوطى فى كتابه:« الوسائل فى مسامرة الأوائل» ينص على أن أول من صنف فى غريب القرآن هو : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، «لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى ١١٧ ه وأبى عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤هـ.، وهما لم يخلفا لنا أثرا مكتوبًا وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة».

وكتاب: مجاز القرآن» لأبى عبيدة وإن كان يحمل اسم المجاز فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وقد التبست كلمة« المجاز» هذه على المرحوم الاستاذ عبد العزيز البشرى فقد ذهب إلى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز فى القرآن الكريم.

وقد رد الاستاذ المرحوم أمين الخولى على الاستاذ البشرى هذا الظن وبين «أن الحق الذى قاله القدماء، وتنطق به القطعة المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب أبى عبيدة نفسه - الحق أن هذا الكتاب فى تفسير القرآن».

وقداستدل أمين الخولى بقول ابن تيمية عنه فى كتاب «الإيمان» إذ يقول : «أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه،ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية».

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الزميل المرحوم الدكتور حفنى شرف وقع فى هذه الشبهة أيضاً ولم يتنبه إلى أن (المجاز) ليس هو ما يقابل الحقيقة بل ما يعبر به عن الآية أو لتوضيح الغريب وبيانه. قال الدكتور حفنى شرف: بصدد الحديث عن صاحب المجاز «كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية وقرينها بما جاء مثيلا لها فى الأدب العربى مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية».

الدافع لتأليف (مجاز القرآن):

ولاننسى أن نذكر أن الدافع لتأليف هذا الكتاب سؤال وجه إلى أبى عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع حول غريب آية قرآنية، يحدثنا ذلك ياقوت عن أبى عبيدة فيقول : «ثم

دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبى وقال له:أتعرف هذا؟ قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل ، وقرظه لعقله هذا، وقال لى : إنى كنت إليك مشتاقًا، وقد سألت عن مسألة، افتأذن لى أن أعرفك إياها فقلت: هات. قال : قال الله عزوجل :﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[الصافات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذالم يعرف، فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتلنى والمشرف مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يرو الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولُهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته «المجاز» .و سألت عن الرجل السائل فقيل لي:«هو من كتاب الوزير وجلسائه وهوإبراهيم بن إسماعيل الكاتب».

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب أهمها كتاب:

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة:

وقد بين ابن قتيبةفى مقدمة كتابه أن كتابه:«مستنبط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم، ولاتكلفنا فى شىء منه بآرائنا غير معانيهم بعد اختيارنا فى الحرف أولى الأقاويل فى اللغة».

ويعيب ابن قتيبة على قوم التمسوا منكر التأويل، ومنحول التفسير، فقد نحل قوم التفاسيرالمنحولة، والروايات المنكورة، وكان الأحرى بهم أن يعتمدوا على كلام العرب ليكون منارا لهم يهديهم ويرشدهم، لأن القرآن كتاب كريم نزل بلسان عربى مبين.

يقول ابن قتيبة :«ونبذنا منكر التأويل، ومنحول التفسير ، فقد نحل قوم ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل :﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[التكوير:١] أنها غورت من قول الناس بالفارسية: كورد بكرد.

وقال آخر فى قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾[الإنسان:١٨] أراد سلنى سبيلاً إليها يا محمد.

وقال الآخر فى قوله تعالى ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت ﴾[الغاشية:١٧]: إن الإبل: (السحاب).

وقال الآخر فى قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[الأعراف:٣١]: إن الزينة:المشط. ثم يختم ابن قتيبة مقدمته بقوله:«مع أشياء لهذا كثيرة لاندري: أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط؟ أمْ من جهة النقلة».

أمثلة من الشواهد الشعرية فى كتاب (تفسير الغريب):

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُم﴾[الحديد:١٥] أى هى أولى بكم. قال لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

﴿عَطَاءً حِسَابًا ﴾[النبأ:٣٦] أى كثيرا. يقال:أعطيت فلانا عطاء حسابًا وأحسبت فلانا أى أكترث له . قال الشاعر:

ونقفى وليد الحى إن كان جائعاً ونَحْسُبه إن كان ليس بجائع

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاق ﴾[القلم:٤٢] أى عن شدة من الأمر. قال الشاعر:

فى سنة قد كشفتْ عن ساقها حمراء تَبْرِى اللحم عن عُراقها

«الجبلة» [الشعراء:١٨٤] الخلق. يقال : جبل فلان على كذا، وكذا أى خلق.

قال الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمرّ على الجبلّه

على أن رواة شعر الشواهد فى مجال غريب القرآن ومعانيه لم يأنفوا من الاستشهاد بسفهاء العرب وأجلافهم، ولم يتورعوا عن رواية الأشعار:«التى فيها الخنا والفحش لأنّهم يريدون منها الألفاظ، وهى حروف طاهرة» ويروى لنا الرافعى فى هذا الشأن خبرا طريفا يدل

على قدسية الألفاظ وطهارة الكلمات. قال :«روى أبوحاتم عن الجرمى أنه أتاه أبو عبيدة معمر بن المثنى الرّاوية بشيء من كتابه فى تفسيرغريب القرآن . قال الجرمي: فقلت له:ممن أخذت هذا يا أبا عبيدة فإن هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء؟ فقال: هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم فإن شئت فخذ، وإن شئت فذر».

وقبل أن اختم الحديث فى شواهد غريب القرآن أود أن أشير إلى رأى الدكتور طه حسين فى كتابه : «فى الأدب الجاهلى» حول استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربى، فقد أنكر طه هذه القصة. واعتمد على انكاره هذه القصة بأنها قد وضعت فى تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصيح من لغة العرب، أوأن هذه القصة مدسوسة عليه «فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار».

والحق أنه لا داعى لهذا الإنكار، أو لهذه الاحتمالات والافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذى يلجأ إليه فى تفسير غريب القرآن. وقد قال: «الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه».

* * *

٨. أدوات المفسّر(*)

أنا مؤمن بحرية الفكر، لأن الفكر الذليل لايكون نتاجه إلا الانحلال والضعف، والجهل والفوضى.

وأنا مؤمن بحرية الفكر، لأن الفكر الحر يفتح أبواب المعرفة فتزدهر الحضارة، وتتقدم الأمم.

وأنا مؤمن بحرية الفكر، لأن الإسلام يعتبر الفكر خلية من خلايا تكوينه، ولبنة حية فى بنائه الشامخ.

وقد تعددت فى القرآن الكريم مادة «فكر» ومشتقاتها فى ثمانية عشرموضعاً (١)،ولكن هذا الفكر الذى أؤمن به له مجال لا يتعداه، وحدود لايتجاوزها، وإلا أصبح مارداً خطراً، يخرب ولايعمر، يفسد ولايصلح، يهدم ولايبني. وإننى لا أستطيع أن أقف حجر عثرة فى طريق هؤلاء المفكرين الأحرار الذين يحاولون أن يخضعوا كتاب الله للتفسيرات العصرية، لأن من حقهم أن يفكروا، وليس تفسير كتاب الله وقفاً على طائفة معينة من الناس، أو فئة مميزة من العلماء، ذلك لأن الإسلام دين الحرية، ودين التفكير، يحارب التقليد ويتحداه، ويحتضن العقل ويتبناه.

غير أن حرية التفكير فى مجال كتاب الله مقيدة بقيود محددة، فتفسير كتاب الله توضيح لمعانيه، وتبيان لأحكامه، وكشف لأسراره وهذا لا يتأتى لكثير من العلماء أو المثقفين.

ومن أجل هذا الخطأ فى التفسير رأينا بعض أصحاب رسول الله ﷺ يتحرجون من السير فى هذا الطريق الوعر، فقد تفسر الآية بمعنى غير مراد، وفى هذا الهلاك الذى ليس بعده

(*) نشر فى مجلة الفكر الإسلامى (بيروت) العدد الثانى ذو الحجة ـ ١٣٩١ ـ فبراير سنة ١٩٧٢.

(١) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فى مادة : فكر.

هلاك، فأبو بكر الصديق رضى الله عنه حينما سئل عن قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[1] قال:أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى إن قلت فى كتاب الله ما لا أعلم.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما قرأ على المنبر «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا»[2] قال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر[3].

وقد كان الأصمعى الرّاوية الكبير يسير على هذا المنهج، يتحرَّجُ من التفسير، ويخشى خطره مع أنه كما يقول ابن الأنباري: كانت له «يد غراء فى اللغة لايعرف فيها مثله وفى كثرة الرواية» [4].

يحدثنا ابن الأنبارى عن موقف طريف فى هذا المجال حدث بين الأصمعى وبين أبى عبيدة معمر بن المثني. قال التوزي: بلغ أبا عبيدة أن الأصمعى يعيب تأليفه كتاب المجاز [5] فى القرآن الكريم، وأنه يفسر ذلك برأيه، فسأل أبو عبيدة عن مجلس الأصمعى فى أى يوم هو؟ فركب حماره، ومر بحلقة الأصمعي، فنزل عن حماره وسلم عليه، وجلس عنده، وحادثه ثم قال له: يا أبا سعيد، ما تقول فى الخبز؟ قال الأصمعي: هو الذى تخبزه وتأكله، فقال له أبو عبيدة: فسرت كتاب الله برأيك، قال الله تعالى :﴿ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ [6].

فقال له الأصمعى: هذا شىء بان لى فقلته، ولم أفسره برأيى، فقال له أبو عبيدة: وهذا الذى تعيبه علينا: كله شىء بان لنا، فقلناه، ولم نفسره برأينا، ثم قام فركب حماره وانصرف[7].

---

(١) النساء: آية ٨٥.

(٢) عبس : آية ٣١.

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣ تحقيق آرثر جفري. مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة.

(٤) نزهة الألباء ص ٧٦.

(٥) المجاز لأبى عبيدة طبع بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد سزكين.

(٦) يوسف : آية ٣٦. (٧) نزهة الألباء ص ٧٣.

ونحن لانميل إلى رأى الأصمعى فى هذا ، فهو رأى متزمت يقوم على المبالغة في الحرص، واتقاء الشبهات. والعلم لايزكو ولايتطور إذا كان شعاره هذا المنهج الأصمعي.

وفى رأيي أن كل من كملت له أدوات التفسير التى تساعده على أداء مهمته الخطيرة وتأخذ بيده فى هذا الطريق الشائك الوعر ليصل إلى مرفأ السلام ـ من حقه أن يفسر، ومن حقه أن يجتهد، ومن حقه أن يدلى بدلوه بين الدلاء فما هى إذن هذه الأدوات؟.

١ - إتقان اللغة العربية والتبحر فيها:

وهذا الإتقان بطبيعة الحال يقتضى الإلمام بالشعر العربي، فهو الديوان الذى يرجع إليه ليزيل اللبس، ويوضح الغامض . والقرآن الكريم نزل بهذه اللغة ليتحدى أرباب القول، ومن ثم عجزوا عن الإتيان بمثله مع أنّ لغته ليست غريبة عنهم.

ولقد عرف لهذا الشعر منزلته ابن عباس الذى كان من منهجه فى التفسير أنه إذا خفى عليه الحرف من القرآن رجع إلى ديوانها فالتمس معرفة ذلك منه.

يحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء قال: سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر، فقيل له: «ما زنيم»؟ من قوله تعالى :﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾(١).

قال ابن عباس:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع.

وعن ابن مليكة قال: سئل ابن عباس عن «وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ»(٢) فقال: وماجمع . ألم تسمع إلى قول الشاعر:

إن لنا قلائصًا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وعن ابن صالح قال :سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت فى قوله تعالي:﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾(٣).

(١) القلم : ١٣ (٢) الإنشقاق: ١٧. (٣) إبراهيم: ٤٨.

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التى كنت أعرف [1].

وإتقان اللغة يستلزم معرفة الكلمات القرآنية المتشابهة التى يعز فهمها على كثير من الناس، وحتى فى عصر الازدهار اللغوى يحدثنا التاريخ أن أعرابياً توقف ذهنه فى إدراك معانى بعض الكلمات القرآنية فى قوله تعالى :﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [2] وتوجه إلى النبى عليه السلام ليسأله عن الظلم بقوله: ﴿وأينا لم يظلم نفسه﴾؟ فيجيبه النبى عليه السلام بأن الظلم فى الآية هو الشرك، واستشهد عليه السلام بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [3].

وقد أصاب ابن قتيبة الحقيقة حينما قرر فى كتابه «المسائل» بأن العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن الكريم من الغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾[4].

ويؤيد ابن قتيبة هذا المعنى بقول بعضهم: «يا رسول الله، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه،ونحن العرب حقاً! فقال: إن ربى علمنى فتعلمت»[5].

وغريب القرآن الكريم كان موضع دراسة لعلماء الإسلام عبر القرون. ألف فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب «المجاز» وألف فيه ابن قتيبة كتابه: تفسير غريب القرآن، ولأبى حيان الأندلسى كتاب: لغات القرآن، وقد عقد ابن النديم فى كتابه الفهرست باباً خاصاً للمؤلفات الإسلامية التى دارت حول غريب القرآن.

وإتقان اللغة أيضاً يقتضى إتقان قواعدها نحوها وصرفها ، فمن لم يكن ذا خبرة بهذه القواعد أفلتت من يده حقائق التفسير.

---

(١) انظر فى هذه المواضع ص ١٩٨، ص ١٩٩ من كتاب : مقدمتان فى علوم القرآن.

(٢) الأنعام: آية ٨٢.

(٣) لقمان آية ١٣، وانظر : أثر القرآن فى تطور النقد الأدبى ص ٢٧.

(٤) آل عمران: آية ٧.

(٥) المسائل لوحة ٤ نسخة مصورة رقم ٢٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

ومن أجل ذلك يقول الأصمعي: سمعت الخليل بن أحمد يقول : سمعت أيوب السّجستانى يقول :«عامة من تزندق بالعراق لقلة علمه بالعربية» (١).

ولمكانة النحو فى التفسير يوضح ابن قتيبة خطورة هذا العلم، وأثره فى فهم المعنى، فيقول: «ولو أن قارئا قرأ «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون»(٢).

وترك طريق الابتداء بإن، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب إن بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى من جهته، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبى عليه السلام محزوناً لقولهم: إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وهذا كفر ممّن تعمده، وضرب من اللحن لاتجوز الصلاة به ولايجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه (٣).

ويعدد الإمام الغزالى فى كتابه (الإحياء) الأمثلة التى لايكتفى فيها بظاهر العربية، لأنها لاتسعف فى كثير من مجالات التفسير، فيقول مثلاً فى قوله تعالي:﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ (٤) معناه:آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولم تكن عمياء.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (٥) أى حب العجل فحذف الحب.

وفى قوله عزوجل: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾(٦) أى ضعف عذاب الأحياء، وضعف عذاب الموتي، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت ، وكل ذلك جائز فى فصيح اللغة.

ومن هذا القبيل ما ذكره الصفدى فى كتابه «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم» حينما تعرض للآيةالقرآنية: «وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ »(٧) قال مانصه: «وهذه الآية ظاهرها

---

(١) الزينة : ص ١١٧.
(٢) يس : آية ٧٦.
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٢.
(٤) الإسراء: ٥٩.
(٥) البقرة : ٩٣
(٦) الإسراء : ٧٥.
(٧) الكهف : ٨٦.

مشكل وهو مغمز للزنادقة، لأنهم يقولون: إن البرهان قد ثبت فى المجسطي: أن الشمس قدْر الأرض نحو مائة وستين مرة وكسوراً فكيف تدخل مع هذا القدر العظيم فى عين من عيونها؟.

والجواب أن (فى) هنا ليست ظرفية، وأنها على ما ذهب إليه ابن قتيبة بمعنى عند كقول الشاعر:

* حتى إذا ألقت يداً فى كافر *...

أو بمعنى مع كقول الشاعر:

* وفى الشر نحاة حين لاينجيك إحسانُ *

معناه: ومع الشر [1].

وقد حذر الإمام مالك بن أنس هؤلاء الذين يتجرءون على كتاب الله مفسرين من غير أن يتفقهوا فى العربية فيقول ـ كما رواه البيهقى عنه ـ: «لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يُفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»[2].

٢ـ ومن أدوات المفسر معرفة أسباب النزول، فكثير من الآيات القرآنية مرتبطة بأسباب نزولها، ولاتفسر إلا فى ضوء هذه الأسباب وإلا لأخرجنا هذه الآيات عن حقائقها، وقلنا فى كتاب الله بغير علم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[3]. ظاهر هذه الآية عدم وجوب استقبال القبلة فى الصلاة، وهذا خلاف الإجماع، وخلاف صريح الآية القرآنية الأخرى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[4]. لو عرفنا أن الآية الأولى نزلت فى نافلة السفر، وفيمن صلى بالتحرّى لزال الإلباس، واتضح وجه الحقيقة من التفسير.

---

(١) جـ ١ ص ١٢٨ طبع سنة ١٢٩٠ هـ.

(٢) محاسن التأويل جـ ١ ص ٨.

(٣) البقرة: ١١٥. (٤) البقرة: آية ١٤٤.

ولم يقف علماء الإسلام مكتوفى الأيدى أمام معرفة أسباب النزول، فألفوا فيه كتباً متعدّدة، ومن أشهرها كتاب على بن المدينى شيخ البخارى، وكتاب الواحدى، وكتاب شيخ الإسلام ابن حجر، وكتاب السيوطى الحافل، المسمى: بلُباب النقول فى أسباب النزول».

٣ـ ومن الأدوات معرفة الإسرائليات، والوقوف على مصادرها، وبيان زيفها حتى لايقع المفسر فيما وقع فيه كثير من المفسرين.

وقد قدم الأستاذان الفاضلان: الأستاذ محمد الذهبى والأستاذ محمود يونس بحثين حول الإسرائيليات فى القرآن الكريم، ألقياهما فى المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية. وقد كشف البحثان عن خطورة الإسرائيليات المحشوة بهاكتب التفسير، ولايحق لمفسر عصرى أن يعتمد على هذه الإسرائيليات لأنها من الكذب صيغت، ولأنها من أجل الفوضى فى التفسير صنعت، فعلى المفسر الواعى أن يفطن لهذه الإسرائيليات ويطرحها بعيداً عن مجال كتاب الله.

ولنا أن نتساءل: ما السر الخفى وراء هذه الأكاذيب التى تفيض بها بعض كتب التفسير؟ وللإجابة عن هذا أترك المجال للأستاذ الفاضل الشيخ الذهبى ليحدثنا عن هذا السر الخفى فيقول :«لقد هال أعداء الإسلام ما أصبح له ولأهله من قوة، فتربصوا به الدوائر، وقد تفتحت عقولهم الماكرة، وقلوبهم الفاجرة عن مكر سيئ، وخداع بشع، فتظاهر نفر منهم بالدخول فى الإسلام، وقلوبهم خاوية، ونسجوا الكذب وأذاعوه فى خبث ومهارة.. . إلى أن يقول : ولاشك أن الإسرائيليات بماحوته من أباطيل وخرافات نسب الكثير منها إلى رسول الله ﷺ ، وإلى صحابته رضوان الله عليهم، واتخذها بعض المشتغلين بالتفسير مادة يشرحون بها بعض نصوص القرآن الكريم، وتشكل خطراً بالغاً»(١).

وعلى منوال هذه الإسرائيليات نسج كثير من المستشرقين فى العصر الحاضر، فقد قاموا بدراسات مختلفة حول القرآن الكريم، محشوة بالأباطيل والأكاذيب، وقد بينت ذلك فى بحثين نشرا فى مجلة الوعى الإسلامى (٢).

٤ـ ومن أدوات المفسر: الإحاطة بالحديث الشريف، والعلم الكامل بروايته والدراسة

(١) مجلة الأزهر أكتوبر سنة ١٩٦٨.

(٢) أحدهما بعنوان من دراسات المتشرقين حول القرآن الكريم. الوعى الإسلامي: يونيو سنة ١٩٧٠.
وثانيها بعنوان : جوانب من أخطاء المستشرقين فى الدراسات القرآنية:الوعى الإسلامي: أكتوبر سنة ١٩٧٠.

الناقدة لسنده .ذلك لأن الحديث الشريف يفصل مجمل الآيات القرآنية، ويوضح المراد منها، وبخاصة فى أحكام العبادات والمعاملات فمن لم تكن له دراسة بهذه السنة، وتصدى لتفسير كتاب الله قيل له: قف حيث أنت فليس كتاب الله نهباً لكل رأى ، أو مطية ذلولاً لكل فكر.

٥ـ ومن أدوات المفسر: التقيد بالنصوص النقلية إذا قوى سند روايتها، وأعنى بها النصوص التى تقع فى دائرة المغيبات، والمغيبات هى الأمور التى تتعلق بالآخرة: من جنة ونار، ونعيم وعذاب، وحساب وعقاب، وموقف وحشر وصحف وصراط. فهذه المغيبات جميعها لاتخضع لعقل ، أو تقع تحت تجربة أو توضع فى مخبار.

إنه ليس من المنهج العلمى ـ إذا كانت المغيبات هذا شأنها ـ أن تفسّر بالاجتهاد العقلي، لأن العقل مرتبط بما تنقله إليه الحواس من خبرات وتجارب. وما عدا ذلك من أمور الغيب فهو قزم فى مجالها، صغير فى محيطها. لأن الغيب أكبر منه.

لهذا، فإنى لا أستسيغ التفسير العصرى الذى يقول مثلاً إن شجرة آدم التى أكل منها ناسياً هى رمز الجنس، ليقول بعد ذلك: إنه التجديد فى التفسير.

ولقد أصاب كبد الحقيقة الدكتور محمد عبدالله دراز حينما يقول فى كتابه:«نظرات جديدة فى القرآن» ما نصه: «ما فى القرآن الكريم من الأنباء التاريخية لاجدال فى أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لامن داخلها»(١).

وقد حذر القرآن الكريم من الرأى الذى لايستند إلى دليل، والاجتهاد الذى لايقوم على أصل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٢).

وقد نعت السنة أيضاً على هؤلاء الذين يخوضون فى كتاب الله من غير أن يملكوا هذه الأدوات التى تذلل لهم الطريق، وتبين لهم الغامض، فيقول النبى عليه السلام:«من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» (٣).

---

(١) النّبأ العظيم (نظرات جديدة فى القرآن) ص ٣٢.

(٢) الإسراء : ٣٦.

(٣) سنن أبى داود فى كتاب العلم.

وفى موضع آخر يقول عليه السلام : «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار[1]».

٦ـ من أدوات المفسر: الإلمام بمناهج كتب التفسير قديمها وحديثها ليكون المفسر العصرى على بينة من أمره، حتى لاتختلط عليه المناهج، فيضطرب تفسيره، وتهتز آراؤه وتضيع الحقيقة بين هذا الاهتزاز والاضطراب.

ولما كانت مناهج القدماء مختلفة فى مجال التفسير رأينا الإمام السيوطى يقوم بجهد كبير ليلم بهذه المناهج، ويضع النقاط على الحروف أمام المفسر حتى لاتفلت الحقيقة من يده، وكتابه: طبقات المفسرين لايستغنى عنه مفسر فى هذا الباب.

إن السيوطى فى كتابه بين لنا أن المفسرين أربعة أنواع:

الأول: المفسرون من السلف والصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين.

الثاني: المفسرون من المتحدثين، وهم الذين صنفوا التفاسير مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد.

الثالث: بقية المفسرين من علماء أهل السنة الذين ضموا إلى التفسير التأويل والكلام على معانى القرآن وإعرابه، وغير ذلك.

الرابع: من صنف تفسيراً من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة، وأضرابهم ثم قال السيوطي: والذى يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول، ثم الثاني، وعلى أن الأكثرين فى هذا القسم نقلة، وأما الثالث فمؤولة، ولم أستوف أهل القسم الرابع، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشري، والرماني، والجبائى وأشباههم [2].

٧ـ ومن أعظم أدوات التفسير : الإخلاص والتجرد لخدمة هذا الكتاب العظيم. والإخلاص كلمة خفيفة على اللسان ، ثقيلة فى الميزان لايتصف بها إلا أولو العزم من الرجال.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مقدمة : كتاب طبقات المفسرين طبع أوربا.

وقد وضع صاحب كتاب مفتاح السعادة: ميزاناً دقيقاً لتعريف الإخلاص فيقول: «إن الإخلاص هو النية بشرط كون الباعث واحداً فقط، فمن صام للقربة، وقصد معه الحمْية، أو حج للقربة مع قصد صحة المزاج بحركة السفر، أو تعلم العلم لله مع قصد العز بين العشيرة، ونحو ذلك من أمثال هذه الخطرات التى يخف معها العمل، فقد خرج بهذه عن الإخلاص، وتطرق إليه الشرك، ولما كان الإنسان قلماً ينفك عن أمثال هذه الحظوظ قيل : "من سلم له فى عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى فقد نجا» (١).

وهؤلاء المفسرون العصريون الذين يحسون بالحظوظ النفسية حينما يتعرضون لكتاب الله مفسرين وشارحين ـ مغرورون، يملأ الكبر جوانب نفوسهم، لأن الحظوظ النفسية تغلق أبواب المعرفة أمام المفسر ، فيهرف بما لا يعرف، ويخبط خبط عشواء.

ومن أجل ذلك يشترط العلماء فى المفسر أن يخلص لله، ويتجرد من الهوي، ويصفى قلبه من شوائب الحياة، لأن القرآن الكريم لايعطى معانيه، ولايكشف أسراره إلا لهؤلاء الذين رسخوا فى العلم، ومرنوا على التقوي، ودُرِّبوا على مجاهدة النفس.

يقول صاحب «مفتاح السعادة» :«... ولعل العمر لو أنفق فى استكشاف أسرار القرآن، وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها لانقطع العمر قبل استيفائها، وما من كلمة فى القرآن إلا تحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بعد غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوافر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب. وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مداداً، والأشجار أقلاما لنفد البحر قبل أن تنفد أسرار القرآن».

٨ـ ومن أدوات المفسر ألا يطلب الدنيا بعلمه، لأن الدنيا والآخرة كالضرتين متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وككفتى ميزان فى رجحان إحداهما خفة الأخرى، وكالمشرق والمغرب يستلزم قرب أحدهما البعد من الآخر.

فكيف يعد من زمرة العلماء المفسرين من أكل الدنيا بعلمه كما قيل:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئابُ

ولعلى بهذا القدر أكون قد ألقيت ضوءاً كاشفًا حول أدوات المفسر من وجهة نظري.

* * *

(١) مفتاح السعادة جـ ٣ ص ٥٣٢.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربى ـ الدكتور محمد زغلول سلام ـ مطبعة دار المعارف.

٢ـ تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار إحياء الكتب العربية.

٣ـ الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية: أبو حاتم الرازى ـ تحقيق حسين بن فيض الله الهمدانى ـ مطابع دار الكتاب العربى.

٤ـ طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطى ـ طبع أوروبا.

٥- الغيث المسجم فى شرح لامية العجم للصفدى طبع ١٢٩٠ ه.

٦ـ مجلة الأزهر.

٧ـ المجاز لأبى عبيدة: تحقيق محمد فؤاد سزكين ـ نشر الخانجى.

٨ـ محاسن التأويل: ابن مالك.

٩ـ المسائل: ابن قتيبة ـ نسخة مخطوطة مصورة رقم ٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

١٠ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبدالباقى.

١١ـ مفتاح السعادة ـ طاش كبرى زاده ـ دائرة المعارف النظامية ـ الهند.

١٢ـ مقدمتان فى علوم القرآن تحقيق أرثر جفرى ـ مطبعة السنة المحمدية.

١٣ـ النبأ العظيم: دكتور محمد عبدالله دراز ـ دار القلم الكويت.

١٤ـ نزهة الالبا: عبدالرحمن محمد الأنبارى ـ طبع ١٩٢٤هـ.

* * *

٩. تفسير القرآن بالقرآن(*)

معنى التفسير:

التفسير فى اللغة يرجع إلى معنى الإظهار والكشف، وأصله كما يقول الزركشى فى كتابه: «البرهان» مأخوذ من التفسرة.

والتفسرة كما يقول صاحب «اللسان» : هى البول يستدل به على المرض، وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل. وكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذى أنزلت فيه، وهو كأنه تسمية بالمصدر، لأن مصدر فعّل جاء أيضاً على تفعلة نحو: جرّب تجربة، أوكرّم تكرمة.

وفى رأى ابن الأنبارى أن أصل التفسير مأخوذ من قول العرب: فَسَرتُ الدابة، وفسَّرتها إذا ركضتها وهى محصورة لينطلق حصرها، وعلى هذا المعنى يصير معناه إلى الكشف أيضاً.

ومعنى التفسير على هذا الرأى : كشف المغلق من المراد بلفظه. والفعل منه يأتى مزيدا وغير مزيد، يقال: فسرت الشىء أفسره تفسيراً، وفسرته أفسره فسرا، وقد سمى ابن جنى كتبه الشارحة: الفسر وهى مصدر فسر.

والرأى الذى أميل إليه ، لأنه أوضح فى مجال الدلالات، وعلاقات المعانى أن التفسير أصله، سفر لافسر، وضعت الفاء موضع السين على أساس القلب المكاني، والقلب المكانى باب معترف به فى مجال اللغة، وسفر معناها: الكشف ، يقال: سفرت المرأة سفورا إذا ألقت خمارها عن وجهها وهى سافرة، وأسفر الصبح: إذا أضاء.

وإنما بنوه على التَّفعيل فقالوا: التفسير، لأنه للتكثير كقوله تعالى :«يذبّحون أبناءكم»، «وغلّقت الأبواب» فكانه يتبع فى تفسيره سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى.

والتفسير معناه فى اصطلاح المفسرين: علم نزول الآية وسورها وأقاصيصها، والإشارات

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ يوليو سنة ١٩٧٢.

النازلة فيها، وترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها.

ومما لاريب فيه أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ولغة العرب فى هذه الفترة من التاريخ كانت مضرب المثل فى رصانة الألفاظ، وبلاغة المعانى، وقوة التراكيب .

وقد برزت خصائصها كاملة فى الشعر العربى مما جعل بعض العلماء يقول: «ولو وجد أرسطو فى شعر اليونان ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات، واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظاً ومعنى، وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم فى وضعها، ووضع الألفاظ بإزائها ، وحسن مآخذهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا ـ لزاد على ما وضع من قوانين الشعر».

ومع قوة اقتدارهم فى فنون القول تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله، أو بعشر آيات منه، أو بأقصر سورة من سوره ، فعجزوا بعد أن حاولوا، وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

ومما لاشك فيه أن هذا يدل على أن كلام الله لايشبهه كلام فى مجال الفصاحة والبلاغة، والتصرف البديع، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة.

ولنا أن نتساءل: هل القرآن الكريم الذى بلغ هذه الذروة فى فصاحة الكلمة وبلاغة المعنى يفهمه العرب جميعاً، ولايحتاجون فى مجاله إلى بيان أو تفسير؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول : إن من المفكرين العرب من يرى هذا الرأى كابن خلدون الذى نص فى مقدمته على : «أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه».

وفى رأيي أن ابن خلدون تجاوز الحقيقة فى هذا الرأي، وذلك لما يأتى: ـ

١ـ لغة العرب لم تكن ممثلة فى لهجة واحدة، حقا قال الرواة : إن القرآن الكريم نزل

بلهجة قريش لأن قريشا ـ كما يقول أبو نصر الفارابى فى كتابه المسمى (بالألفاظ والحروف) ـ كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق.

أو كما يقول أبو حاتم الرّازى فى كتابه :«الزينة» بصدد لهجة قريش :«إن رسول الله ﷺ الذى نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر قومه أفصح العرب، وهومن قريش، من ولد إسماعيل، وولد إسماعيل أفصح من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان».

ولكن مع هذه النصوص لاأميل إلى أن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش وحدها بل نزل بها وبغيرها من اللهجات العربية الأخرى لأن هنالك نصوصا تؤكد أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف ليسر للعرب جميعا الانتفاع به، ومعنى ذلك أن هذه الأحرف تشتمل على كثير من اللهجات العربية، وحوادث اختلاف القراءات بين الصحابة تعدّدَت سجلتها كتب الرواة والتاريخ. وإذا كان الأمر كذلك فإن كثيرا من الأحرف التى نزل بها القرآن لايعرفها العرب جميعا، وتحتاج إلى بيان وتوضيح، وتفسير لمعانيها، والأمثلة على اختلاف مدلولات الكلمات باختلاف اللهجات كثيرة، وإلى القاريء طائفة منها لتكون دليلا على ما أقول:

ذكر إسماعيل بن عمرو المقرىء فى كتابه الشهير (اللّغات فى القرآن) الأمثلة الآتية من سورة البقرة.

«رغدا» آية ٣٥ = الخصب بلغة طيىء.

«فأخذتكم الصاعقة» آية ٥٥ = الموت بلغة عمان.

«رجزا» آية ٥٩ = العذاب بلغة طيىء.

«اشتروا» آية ١٦ = باعوا بلغة هذيل.

«فلا رفث» آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج.

ألا يدل هذا على اختلاف المدلولات بين اللهجات مما يؤكد أن العرب جميعاً لم يكونوا على مستوى واحد فى فهم مدلولات القرآن الكريم.

٢ـ ذكر ابن قتيبة فى كتابه (المسائل) أن العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن

من الغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، ثم قال ابن قتيبة ويدل عليه قول بعضهم: يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب مانعرفه، ونحن العرب حقا؟ قال: إن ربى علمنى فتعلمت».

٣ـ وقد ذكر ابن تيمية فى مقدمته «أصول التفسير» :أنه يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لاصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالي:﴿لتبين للناس مانزل إليهم﴾ يتناول هذا ، وهذا، وقد قال أبو عبدالرحمن السلمى :«حدثنا الذين كانوا يُقْرِئُونا القرآن كعثمان ابن عفان، وعبدالله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم، والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

فهذه النصوص التى قدمتها ترد قول ابن خلدون السابق، وتشير إلى أن العرب لم يكونوا على درجة واحدة فى إدراك معانى القرآن، بل لبعضهم الفضل فى ذلك على بعض، وأن الذين لايدركون هذه المعانى من حقهم أن يدركوها فالنبى عليه الصلاة والسلام بينهم يبيّن ماغمض عليهم، ويوضح ماخفى عنهم.

الخطوة الأولى لتفسير القرآن الكريم:

وكان بيان النبى عليه السلام لما غمض، وتوضيح ماخفي، هو الخطوة الأولى لتفسير القرآن، وإليك الدليل:

١ـ لما نزل قوله تعالى: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن» قال بعض الصحابة: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسر النبى عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم».

٢ـ سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن الحساب اليسير فى قوله تعالى: «فأما

من أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً» فيبين لها النبى عليه الصلاة والسلام أنه العرض يوم القيامة.

٣ ـ حديث عدى بن حاتم قال: لما نزلت:«حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» عمدت إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر فى الليل، فلا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال:«إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار».

وهذه الخطوة الأولى من التفسير التى بدأت على يد النبى عليه الصلاة والسلام موضع اتفاق بين العلماء جميعاً ، ذلك لأن السنة هى الضوء الكاشف لماأجمله القرآن ولم يفصله، والسنة هى التى حددت لنا عدد الصلوات، وعدد الركعات والسجدات فى الصلاة، وهى التى بينت لنا مقدار النصاب فى الزكاة، ولذلك رد عمران بن حصين على كل رجل كان يرى أن القرآن حوى كل شيء، فقال له: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعاً لايجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة، والزكاة، ونحو ذلك ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله لنا مفسرا؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وأن السنة تفسر هذا.

هذا وقد ثار الجدل بين العلماء حول تفسير النبى ﷺ للقرآن هل فسر القرآن الكريم كله أو فسر جزءا منه، أو فسر فقط ماأشكل من آياته؟

فى رأيى أن النبى عليه السلام لم يفسر القرآن كله متبعا سوره ليفسر آياتها آية آية كما يفعل ذلك المفسرون، لأنه لو فعل ذلك لأغلق باب التفسير...ووقف الفكرعند هذا الحد، وبذلك يتعطل الاجتهاد ويتجمد الفكر، والإسلام من أخص خصائصه أن يتيح الطريق للأفكار العطشى أن تنهل من معين القرآن ماشاء لها أن تنهل، بشرط أن تكون أدوات التفكير متكاملة ، ومن ثم ازدهر التفسير وتعددت مناهجه عبر القرون إلى يومنا هذا.

ولكن الذى يمكن أن يقال: إن النبى عليه الصلاة والسلام تناول فى تفسيره الأمور التى تحتاج إلى بيان فى العقيدة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك، وما كان فى إطار غير هذا الإطار تركه النبى ﷺ للعرب يفهمونه بلغتهم ، وعلى مقتضى أساليبهم فى فنون القول . ولا أستطيع فى هذا البحث الموجز أن أبين مناهج التفسير المختلفة فى عصر الصحابة أو

التابعين، ومن جاء بعدهم ، ولكن الذى أستطيع أن أتبينه هناأن من أهم مصادر التفسير ومناهجه تفسير القرآن بالقرآن.

تفسير القرآن بالقرآن:

وتفسير القرآن بالقرآن يتوقف على الإدارك الواسع، والفهم الدقيق لآياته، والنظرإلى الآيات المتكررة وربطها بعضها ببعض، وجمعها فى إطار واحد لينظر إليها فى صورتها المتكاملة، وأن الإشعاعات الفكرية التى تعطيها هذه الصورة المتكاملة تزيل التناقضات، والاختلافات التى يرمى بها الجهلة كتاب الله،و كتاب الله منها بريء لأنه كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

وفهم القرآن ليس سهلاً ، لأنه يحتاج إلى تصفية النفس من أكدارها، والعقل من شبهاته، والقلب من خطراته، ولاأدل على ذلك من كلمة على كرم الله وجهه، وقد سئل : هل خصكم يا أهل البيت رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ماعندنا غير ما فى هذه الصحيفة، أو فهم يؤتاه الرجل فى كتاب الله.

والزبيدى يبين أن مرتبة فهم كتاب الله مرتبة عظيمة ويستدل لذلك بقوله تعالي: «ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» فإنه تعالى خصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم، وجعله مقدما على العلم والحكم، فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه.

وتفسير القرآن بالقرآن يتمثل فى صور متنّوعة أذكر منها ما يأتى:

١.المعانى المتعددة للكلمة الواحدة.

ذلك لأن الكلمة الواحدة فى القرآن الكريم قد تتصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل، ولايوجد ذلك فى كلام البشر - من ذلك كلمة الهدى فهي:

= بمعنى البيان فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِم﴾.

= بمعنى الدين فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

= وبمعنى الإيمان فى قوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

= وبمعنى الداعى فى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

= وبمعنى الرسل أوالكتب فى قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾.

= وبمعنى الرشاد فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

= وبمعنى التوراة فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾.

= وبمعنى الحجة فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

بعد قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾.

= وبمعنى التوحيد فى قوله تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾.

= وبمعنى السنة فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

= وبمعنى الإلهام فى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾... إلخ

٢-التكرار:

والتكرار تفسير وتوضيح، فقصة موسى عليه السلام ذكرها الله تعالى - كما قال بعضهم - فى مائة وعشرين موضعاً فى كتابه، ومع ذلك التكرار فإن الصورة لاتهتز، لأنه تفنن فى القول، وإبداع فى التصوير، وأساليب مختلفة تساق لقصة واحدة، وفى هذا من البلاغة ما فيه.

على أن التكرار لايخلو من زيادة مفيدة، ففى قصة موسى مثلا نجد أن الله تعالى صور العصا فى سورة طه آية (٢٠) بأنهاحية تسعي، وذكرها فى الأعراف آية (١٠٧) بأنها ثعبان مبين، وفى موضع آخر - تهتز كأنها جان ولى مدبرا -:

ويعقب السيوطى فى الاتقان على صور العصا المختلفة بقوله : «إن خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها كاهتزاز الجان وخفته».

ويبين الزركشى بعض الأسباب التى من أجلها كررت القصة فى القرآن فيقول:

١ - إن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة لقوم، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين، وهم الحاضرون.

٢ - ومن الأسباب تسلية النبى عليه الصلاة والسلام، وتكرار هذه التسلية ليثبت قلبه دائما فى مجال دعوته إلى الحق كما قال تعالى :«وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك».

٣ - إن الدواعى لاتتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصة، دون الأحكام.

وإنى أميل إلى رأى ابن فارس فى قوله :إن تكرار القصة نوع من الإعجاز القرآنى لبلغاء العرب وفصحائهم، فبعد أن عجزوا عن الإتيان بمثل آية، بين لهم وأوضح الأمر فى عجزهم، بأن كرر ذكر القصة فى مواضع إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاءوا، وبأى عبارة عبّروا. ويؤيد هذه الفكرة الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن فيقول:

«ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولامتفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لايقدر عليه البشر».

على أن الناظر إلى قصص القرآن يجد أن الهدف من التكرار هو الهداية والعبرة، وكأن هذا التكرار يذكر الأمم دائما بالمصير الوبيل الذى حل على هؤلاء الناس الذين وقفوا من دعوات أنبيائهم موقف التحدى والنكران.

٣ - توضيح الفكرة بضروب من الاستدلالات المختلفة:

ومن تفسير القرآن بالقرآن أن الفكرة تتضح أبعادها وتنكشف جوانبها، إذا تعددت الاستدلالات عليها من واقع الحياة، وبذلك يطمئن القلب إليها. وتستريح النفس لها،ويؤمن العقل بها، والمثال على ذلك قصة البعث والإعادة:

وقد سلك القرآن الكريم لتفسير قصة البعث طرقا مختلفة:

١ - قياس الإعادة على الابتداء بقوله تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾.

٢ - قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات بقوله تعالى: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون﴾.

٣ - قياس قدرة الإعادة على قدرة إخراج النار من الشجر الأخضر.

وقد ورد فى هذا أنّ أبى بن خلف لماجاء بعظام بالية ففتها وذرها فى الهواء، وقال يا محمد: «من يحيي العظام وهى رميم؟» فأنزل الله تعالى: ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ ثم زاد الحجاج بقوله: «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا».

٤ - احتمال اللفظ معنيين فى موضع، وتعيين واحد منهما فى موضع آخر:

ومن تفسير القرآن بالقرآن أن اللفظة أوا لكلمة تحتمل معنيين فى موضع ثم يعين أحد المعنيين فى موضع آخر وذلك كقوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة»، فيحتمل أن يكون السمع معطوفاً على «قلوبهم» ، ويحتمل الوقف على «قلوبهم، والابتداء بقوله (وعلى سمعهم) والاحتمال الأول أولى لقوله تعالى فى سورة الجاثية ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ .

وكقوله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن فى الأرض﴾ والمراد بهم المؤمنون بدليل قوله تعالى فى موضع آخر: «ويستغفرون للذين آمنوا».

٥ - الاستنباط مع ضميمة أخرى تعين عليه:

وذلك كاستنباط على وابن عباس رضى الله عنهما أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ مع قوله تعالى: ﴿وفصاله فى عامين﴾، وعلى هذا الاستنباط جرى الإمام الشافعي.

وكاستنباط بعض المتكلمين أن الله خالق لأفعال العباد من قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن

يشاء الله﴾ مع قوله تعالى :﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ فإذا ثبت أنه يخلق ما يشاء، وأن مشيئة العبد لاتحصل إلاإذا شاء الله أنتج أنه تعالى خالق لمشيئة العبد.

٦ - رفع التناقض وإزالة الاختلاف:

وذلك كقوله تعالي:﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ مع قوله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

جمع بينهما بعض العلماء، فحمل الأول على التوحيد بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وحمل الثانية على الأعمال.

ومثله قوله تعالى :﴿وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ مع قوله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾.

قيل: إن آية الأعراف تجرى على الظاهر من أن الوعد كان ثلاثين ثم أتم بالعشر، فاستقرت الأربعون، ثم أخبر فى آية البقرة بما استقر.

وقد سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى :﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، فأخبر أنه لايقسم، ثم أقسم فى قوله تعالى ﴿وهذا البلد الأمين﴾ فقال له :اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال ، وبين ظهرانى قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدو فيه مغمزا، وعليه مطعنا، فلو كان هذا عنده تناقضاً لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت، فلم ينكروا منه ما أنكرت، ثم قال له: إن العرب قدتدخل (لا) فى أثناء الكلام وتلغى معناها، وأنشد عليه أبياتاً.

٧ - علم المبهمات:

ومن تفسير القرآن بالقرآن علم المبهمات، هكذا أطلق عليه علماء التفسير، والمراد به أن يبهم فى موضع استغناء ببيانه فى موضع آخر فى سياق الآية، ويمثلون له بقوله تعالي:«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» فقد بين يوم الدين بقوله فى موضع آخر فى سياق الآية: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

وكقوله تعالى :﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فقد بينه بقوله : ﴿أُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

٨ - تفسير الألفاظ الغريبة:

وهو ضرب من تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيرها بالسياق القرآنى نفسه، ويمثلون له بقوله تعالى:﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ وقد فسر السياق القرآنى نفسه هذا الهلوع بقوله بعد ذلك «إذامسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا﴾.

٩ - تفسير المراد بنص صريح يبين خفاءه:

لما نزل قوله تعالى :﴿وإن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ اضطرب الصحابة، لأنهم اعتقدوا أنهم سيحاسبون على كل شىء حتى خواطر أنفسهم وحركات قلوبهم. فقالوا يا رسول الله :نزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها. فقال لهم النبى ﷺ :أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. فأخذوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها فى نص صريح وهو قوله:«لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا» إلى آخر السورة، وبعد نزولها علموا أنهم لا يحاسبون على خطرات النفس ، وهواجس القلب.

ولما توفى عبدالله بن أبي، كبير المنافقين، كفنه النبى عليه الصلاة والسلام فى ثوبه، وأراد أن يستغفر له، ويصلى عليه ، فقال عمر رضى الله عنه : أتصلى عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيرّنى ربى فقال:«استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة...»..
وسأزيد على السبعين وصلى عليه بناء على هذا الفهم الإنساني، ولكن القرآن وضع النقاط على الحروف ليزيل خفاء المعني، ويمنع اللبس، حيث قال تعالى بعد ذلك:﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

١٠ - الإجمال والتفصيل:

هناك آيات قرآنية وردت مجملة موجزة، وأخرى موضحة مفصلة فى موضوع واحد،

ونحن إزاء هذه الآيات يجب ألا نقف عند المجمل وحده من غير نظر إلى الآيات التى فسرته وفصلته، ولو فعلنا ذلك لوقعنا فى الخطأ لأننا أخذنا الحقيقة مغلفة ولاندرى ما بداخلها.

ويمثلون لهذا النوع من التفسير بقوله تعالي: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ولكن ما الذى يتلى علينا، ويحرم علينا أكله؟ لم تبينه هذه الآية، ولكنها أجملت مايتلى فى هذا الموقف، وتعود الآيات بعد ذلك لتوضح هذا الذى يتلى فيقول تعالى :﴿حرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله تعالى :﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فسرتها آية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وبعد، فإن المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم يجب أن يتناول أولا وقبل كل شيء هذه الآيات المتعدّدة التى يفسر بعضها بعضا، ولايستطيع المفسر المنصف أن يبنى حكما، أو يقرر رأيا أو يكشف معنى إلا بعد استيعابه الكامل لهذا اللون من التفسير، ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن.

* * *

١٠. نظرات فى غريب القرآن الكريم (*)

١. اللغة العربية أوسع اللغات:

سألت نفسى قبل أن أخطّ كلمة فى هذا البحث: هل المعاجم العربيّة ـ ابتداءً من معجم الخليل بن أحمد المسمّى (العين) وانتهاء بالمعجم الوسيط لذى قام بإخراجه ونشره مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة ـ تمثّل كلّ ما ورد عن العرب من كلمات وألفاظ، وصيغ ومعانٍ؟.

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: إنّ اللغة العربيّة أوسع اللغات، لا يحصرها معجم، ولا يستوعبها رواة. ولا أدلّ على ذلك من كلمة أبى عمرو بن العلاء حيث يقول: «ما انتهى إليكم ممّا قالته العرب إلا أقله، ولو جاء كم لجاءكم علمٌ وافر وشعر كثير» (١).

وقد وضع النقاط على الحروف الإمام الشافعى اللغوى حيث يقول «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبىّ» (٢).

ومما يؤكد اتساع اللغة العربية، وكثرة ألفاظها هذه الأسماء المتنوعة للاسم الواحد. وقد سجل ذلك ابن فارس فى كتابه: (الصَاحبىّ) فى معرض الفخر باللغة العربية، وأنّها اللغة التى اختصّها الله بالفضل، وميزها بالبيان حيث قال جلّ شأنه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (٣).

قال الصاحبى: «ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسماً غير واحد فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم».

وحدّثنى أحمد بن محمد بن بُندار قال: سمعت أبا عبدالله بن خالويه الهمذانى يقول: جمعت للأسد خمسائة اسم، وللحيّة مائتين.

وأخبرنى على بن أحمد بن الصباح، قال: حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثنا ابن أخى

(*) نشر فى مجلة التضامن الإسلامى التى تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة ـ السنة التاسعة والثلاثون الجزء الخامس ـ ذو القعدة ١٤٠٤هـ أغطس ١٩٨٤م.

(١) الاقتراح للإمام السيوطى ١٠٠.

(٢) الرسالة للإمام الشافعى ٤٢.

(٣) الشعراء ١٩٥.

الأصمعى عن عمه أن الرشيد سأله عن شعر لأبى حزام العُكْلِيّ، ففسره. فقال: يا أصمعىّ: إن الغريب عندك لغير غريب، فقال: يا أمير المؤمنين: ألا أكون كذلك، وقد حفظت للحَجَر سبعين اسماً (١).

وقد روى أكثر المؤرخين «أن المعرّى الشاعر المعروف عثر ـ وهو داخل إلى مجلس الشريف المرتضى فى بغداد ـ برجل، فقال هذا مغضباً: مَن هذا الكلب؟ فقال المعرى: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً».

وقد حفزت هذه الكلمة الجلال السيوطىّ إلى تتبع كتب اللغة باحثاً منقباً حتى عثر على هذه الأسماء، فنظمها فى أرجوزة سمّاها: (التَّبرِّى من معرّة المعرّى) (٢).

علامَ يدلّ هذا؟

ألا يدل على أن اللغة العربية التى حوت ألفاظها هذه المعاجم ـ التى أشرت إليها ـ ليست كل اللغة، وإنما هى جزء قليل تمثله نصوص شعرية ونثرية وصلت إلينا عن طريق الرواة. وكانت الذاكرة هى السجل الأول لهذه الروايات. والذاكرة مهما كانت قوية لا تستطيع أن تستوعب كل ما نطق به العرب قبل الإسلام. إنها طاقة محدودة تقف عاجزة أمام الاستقراء الكامل لمعارف العرب، وأفكارهم، وأساليبهم، ومعانيهم، وصُوَر تعبيراتهم.

وليس معنى ذلك أن العرب فشت فيهم الأمّيّة؛ لأنهم اعتمدوا على الذاكرة، لأن الأمية فى العرب القدماء ليست قضية نسلّم بها، لأن هذا يتناقض مع الروايات التاريخية التى تنصّ على أن كتّاب الوحى على عهد رسول الله ﷺ كانوا يدونون القرآن الكريم بل إنها تؤكد: «أن القرآن الكريم كان مجموعاً على عهد رسول الله ﷺ وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا» (٣).

---

(١) الصاحبى لابن فارس ٢١.

(٢) النقد واللغة فى رسالة الغفران للدكتور أمجد الطرابلسى ٢٤، ٣٥.

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن: وهما مقدمة: كتاب (المبانى) لمؤلف مجهول، ومقدمة ابن عطية ٢٧.
وانظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور/ عبد العال سالم مكرم ص ١٣٥.

ومعنى ذلك أن الكتابة والقراءة ظاهرتان واضحتان فى المجتمع العربى قبل الإسلام. ويكفى دليلاً على ذلك أنّ أوّل آيات نزلت من القرآن الكريم كانت الآيات التى تأمر بالقراءة، وتشير إلى القلم وترمز إلى العلم: ﴿إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١).

وإذا كان فى العرب من يجيد القراءة، ويحسن الكتابة فلِمَ لم يتجه العرب إلى تدوين لغتهم، وتسجيل أفكارهم، وحفظ تراثهم كما فعل قدماء المصريين حينما نقشوا على معابدهم وقبورهم حياتهم الاجتماعية والفكرية، والاقتصادية والسياسية مما أنار الطريق نحو كتابة تاريخهم فى صورة واقعية من خلال هذه النقوش؟.

إن العرب لو فعلوا ذلك لأمدّونا بكثير عن حياتهم الاجتماعية والدينية والسياسية.

أما القدّر الذى وصل إلينا من الشعر والنثر فهو ضئيل لا يمثل حياتهم بجوانبها المختلفة كما ينبغى أن تمثّل، بل وصل الأمر إلى أن هذا الشعر المروىّ كان موضع شك عند بعض الباحثين المعاصرين.

أكبر الظن أنّ أحداث الحياة القبلية فى الجزيرة العربية لم تتح الفرصة أمام هؤلاء الكاتبين أن يسجلوا ما يشاهدون، ويكتبوا ما يسمعون، لأن تنقلهم من مكان إلى مكان، واشتغالهم بالحرب فيما بينهم، وإفساح المجال أمام الألسنة لتنقل هذه الأحداث فى مجالسهم لتسجلها الذاكرة، وينقلها الرواة، كل ذلك طغى على وظيفة القلم فلم يصلنا من أشعارهم عن طريقه إلا المعلقات التى كتبت، وعلقت على الكعبة، وهى قضية احتدم حولها الجدال، وكثر فى مجالها النقاش، وليس فى هذا البحث متسع لتناول هذه القضية (٢).

والذى أريد أن أصل إليه من هذه المقدمة هو أن المعاجم العربية بأنواعها سواء كانت معاجم ألفاظ أو معاجم معان لم تحط بكل ما ورد عن العرب، ولم تسجل كل ما لديهم من تراث لغوى.

---

(١) العلق ١ ـ ٥.

(٢) انظر هذه القضية فى كتاب: «القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية» ٣٦ للباحث.

على أنّي لا أذهب بعيداً إذا قلت: إننا لو تتبعنا تراثنا الشعرى والنثرى فى العصر الجاهلى عن طريق استيعاب هذا التراث مخطوطه ومطبوعه لرأينا طائفة من الألفاظ العربية لم تسجلها المعاجم التى بين أيدينا مما يؤيد القول السابق المشهور لأبى عمرو بن العلاء، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى يجب أن تدرس الحياة الجاهلية فى مرآته كما قال المرحوم الدكتور طه حسين فى كتابه: (فى الأدب الجاهلي):

«القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي» (١).

ولعل الدكتور طه حسين يعنى أننا لا نعرف الكثير عن الحياة العربية فى العصر الجاهلى إلاّ عن طريق القرآن الكريم: وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، ولكنه إن أراد أن العرب لا يملكون تراثاً شعرياً موثقا قبل الإسلام فهذا ما ننكره، لأن القرآن نفسه أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن نزل بلسان عربى مبين، والإبانة تعنى وضوح العبارة، وبلاغة التعبير، وقوة التأثير، ومن هنا كان التحدى المعجز لأرباب البيان، وفرسان التحدى المعجز لأرباب البيان، وفرسان البلاغة. ولله درّ أبى سليمان الخطابى حين عرض لقضيّة الإعجاز فى بيان رائع حيث يقول: «إن النبى ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه، وانقطعوا دونه، وقد بقى ﷺ يطالبهم به مدّة عشرين سنة، مُظهِراً لهم النكير، زاريًا على أديانهم، مسفهًا آراءهم وأحلامهم حتى نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت فيه النفوس، وأُريقَتْ المُهَج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال.

ولو كان ذلك فى وسعهم، وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة.. ولم يكونوا تركوا السّهل الدّمث من القول إلى الحزْن الوعِر من الفعل، هذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لُبٍّ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله تعالى فى كتابه بالجدَل واللّدد، فقال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٢). وقال سبحانه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (٣).. إلى أن يقول: «ومعلوم أن رجلا عاقلا لو عطش

(١) فى الأدب الجاهلى ٧ للدكتور طه حسين.
(٢) الزخرف ٥٨.
(٣) مريم ٩٧.

عطشا شديدا خاف منه الهلاك على نفسه. وبحضرته ماء معروض للشرب فلم يشرب حتى هلك عطشا لحكمنا أنه عاجز عن شربه، غير قادر عليه. وهذا بيّن واضح لا يشكل على عاقل» (١).

ولعلى بعد هذا الذى قدمت لم يبق أمامنا إلا الاعتراف بأنّ التحدى القرآنى لبلغاء العرب حقيقة لا تقبل الجدل، وواقع لا يتسرب إليه الشك.

ب ـ الحركة اللغوية لتفسير غريب القرآن الكريم:

ومن الحقائق المسلّم بها أن القرآن الكريم لفت أنظار الرواة والعلماء إلى هذه الثروة اللغوية التى اشتمل عليها، فقاموا بحركة لغوية كبيرة هدفها توثيق الكلمات اللغوية التى نسجت من مادتها النصوص القرآنية، فاتجهوا إلى الأعراب فى البادية يتلقون عنهم اللغة فى أساليبها الفصيحة، ولا غرو فى ذلك «فليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع، ولا آنق، ولا ألذ فى الأسماع ولا أشد اتّصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق فى اللسان، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء» (٢).

وقال صاحب (الموازنة): «الأعرابى لا يقول إلا على قريحته ولا يستقى إلا من قلبه» (٣).

وإلى جانب هذه الحركة اللغوية التى كان الهدف منها ـ كما قلت ـ جمع اللغة لتفسير ألفاظ القرآن الكريم فى ضوئها، وكشف معانيه من خلالها، قامت حركة أخرى تسير معها جنبا إلى جنب، وهى الحركة المتمثلة فى جمع الشعر العربى، وبخاصة الشعر الجاهلي، وقد قمت بدراسة حول هذا الموضوع نشرت فى (مجلة الشعر) بالقاهرة (٤).

وإلى جانب هاتين الحركتين قامت حركة أخرى لجمع ما ورد فى القرآن الكريم من لهجات عربية أخرى غير قرشية مع أنّ المعروف عند الباحثين أن القران الكريم نزل بلغة

(١) إعجاز القرآن الكريم للخطابى ٢٠.

(٢) الأعرابيات ٣٦، ٣٧ لخليل مردم.

(٣) الأعرابيات ٣٧.

(٤) انظر مجلة الشعر التى تصدر فى القاهرة العدد ٢٩ ـ شهر يناير ١٩٨٣ بعنوان: غريب القرآن الكريم والشعر الجاهلي.

قريش، وقد قمت بدراسة حول هذا الموضوع نشرت فى مجلة (الوعى الإسلامى) التى تصدر فى الكويت [1].

ج ـ الغريب فى عصر الرسول عليه السلام وعصر أصحابه

أحب أن أبين أنّ هذا الغريب الذى جمع فى عصر متأخر عن عصر الرسول عليه السلام وأصحابه لم يكن غريبا فى عهد رسول الله ﷺ ثم فى عصر أصحابه، لأن القرآن عربى غير ذى عوج، فلم يجد الصحابة فى فهمه شيئا من العناء؛ لنقاء الألسنة، وسلامة السلائق، وغلبة الفصاحة، وحينما يجهلون معنى كلمة من كلماته، أو يعجزون عن فهم معنى من معانيه يسألون عنه الرسول عليه السلام ليجيبهم، فيكشف لهم معنى ما يجهلون، ويوضح لهم غموض ما لا يفهمون.

يقول ابن الأثير: «واستمرّ عصره ﷺ إلى حين وفاته على هذا السنن المستقيم.

وجاء العصر الثانى ـ وهو عصر الصحابة ـ جَاريًا على هذا النمط، سالكا هذا المنهج، فكان اللسان العربى عندهم صحيحًا محروسًا لا يتداخله الخلل، ولا يتطرق إليه الزلل إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم من الروم، والفرس، والحبش، والنّبط، وغيرهم من أنواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بلادهم، فاختلطت الفرق، وامتزجت الألسُن، وتداخلت اللغات.

.. فتعلموا من اللسان العربى ما لا بدّ لهم من الخطاب منه، وحفظوا من اللغة ما لا غنى لهم فى المحاورة عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه، وأهملوه لقلة الرغبة فى الباعث إليه، وتمادت الأيام والحالة هذه على ما فيها من التماسك والثبات، واستمرت على سنن من الاستقامة والصلاح إلى أن انقرض عهد الصحابة، والشأن قريب، والقائم بواجب هذا الأمر لقلته غريب.

وجاء التابعون لهم بإحسان فسلكوا سبيلهم، لكنهم قلّوا فى الإتقان عددا، واقتفوا

(١) انظر بحث: غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية فى (مجلة الوعى الإسلامى) مارس ١٩٧١.

هديهم، وإن كانوا قد مدّوا فى البيان يدا. فما انقضى زمانهم على إحسانهم إلاّ واللسان العربى قد استحال أعجميا أو كاد، فلا ترى المستقل به، والمحافظ عليه إلا الآحاد» (١).

وأضحٌ إذا من نص ابن الأثير أن الغريب اختلف من عصر إلى عصر، فما لم يكن غريبا فى العصر الأول صار غريبا فى العصر الذى يليه، وكلما ابتعد الناس عن اللسان العربى زادت الغرابة وكثر الغريب..

د. معنى الغريب

يقول الإمام أبو سليمان الخطابى البُستى:

«الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، والغريب من الكلام يقال على وجهين:

أحدهما: أنه يراد به أنه بعيد المعني، غامضه لا يتناوله الفهم إلا عن بُعْد ومعاناة فكر.

والوجه الآخر: يراد به كلام من بَعُدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها» (٢).

والوجه الآخر لا نتعرض له فى البحث لأنه غير مراد، ولأن القران الكريم لا يحتوى على الكلمات الشاذة أو الألفاظ المستهجنة أو المفردات الحوشية. يقول الرافعى فى كتابه: (إعجاز القرآن): «فى القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة، أو نافرة، أو شاذة، فإن القرآن الكريم منزه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هى التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس» (٣).

هـ. الحث على معرفة الغريب

ذكر السيوطى فى كتابه: (الإتقان) أنه: «ينبغى الاعتناء به، فقد أخرج البيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعا: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه».

---

(١) انظر مقدمة: (النهاية) لابن الأثير.

(٢) انظر (كشف الظنون) نهر ١٢٠٣.

(٣) إعجاز القرآن الكريم للرافعى ٧٤.

ويبين السيوطى معنى الإعراب فيقول:

«والمراد بإعرابه معرفة معانى ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو ما يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها».

ويحذر السيوطى من الخوض فى الكشف عن معانى الألفاظ بدون تثبت ولا روية فيقول:

«وعلى الخائض فى ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن» (١).

و ـ مراحل تفسير غريب القرآن الكريم

١ـ تفسير النبى عليه السلام لغريب القرآن:

أول مرحلة من مراحل توضيح هذا الغريب بدأت فى عهد الرسول عليه السلام وذلك لأن العرب لم تكن على مستوى واحد فى فهم مدلولات هذه الكلمات الغريبة.

ذكر ذلك ابن قتيبة فى كتابه: (المسائل) حيث يقول:«إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن الكريم من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض». والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِه﴾(٢)، ثم قال ابن قتيبة: ويدل عليه قول بعضهم: «يا رسول الله، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقًّا؟ قال عليه السلام: إن ربِّى علّمنى فتعلمت» (٣).

فمن البدهىّ إذًا، والنبى عليه السلام بين ظهرانيهم أن يسألوه عمَّا خفى عليهم من الألفاظ، وما استتر من المعاني، ليوضح لهم ما غمض ويكشف لهم ما استتر.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾(٤). قال

(١) الإتقان للسيوطى ١/ ١١٣.
(٢) آل عمران ٧.
(٣) المسائل لابن قتيبة، نسخة مخطوطة مصورة جامعة الأزهر.
(٤) الأنعام ٨٢.

بعض الصحابة: وأيّنا لم يظلم نفسه؟ ففسر النبى عليه السلام الظلم بالشرك. واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

٢ـ حديث عدىّ بن حاتم قال: لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(٢) عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتى، فجعلت أنظر فى الليل فلا يستبين لى، فعدوت على رسول الله فذكرت له ذلك. فقال: «إنما سواد الليل، وبياض النهار» (٣).

هذا وقد ثار الجدل، واحتدم النقاش بين العلماء حول تفسير النبى عليه السلام للقرآن الكريم. هل فسّر القرآن كله، أو فسر فقط ما أشكل من آيات؟.

فى رأيى أن النبى عليه السلام فسر فقط معانى الكلمات الغريبة التى تتعلق بالعقيدة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك. أما ما وراء ذلك فقد تركه عليه السلام للعرب يفهمونه بلغتهم، وعلى هدى اجتهادهم وفى ضوء رصيدهم اللغوى من التعابير والأساليب.

٢ـ توضيح غريب القرآن بالقرآن:

وهذا التوضيح يعتبر مرحلة ثانية من مراحل توضيح الغريب، ولا شك أن القران الكريم يوضح بعضه بعضاً، ولكن هذا التوضيح لا يدرك معناه إلا بالفهم الدقيق لآياته بالنظر إلى الآيات المتكررة وربطها بعضها ببعض، وجمعها فى إطار واحد، لينظر إليها فى صورتها المتكاملة لأن الإشعاعات الفكرية التى تعطيها هذه الصورة المتكاملة، تزيل التناقض والاختلافات التى يحاول بعض الجهلة أن يرموا بها كتاب الله، وكتاب الله منها برىء.

على أن هذا الفهم يحتاج إلى تصفية النفوس من أكدارها، والعقول من شبهاتها، والقلوب من زيغها.

وأذكر فى هذا المقام كلمة علىّ كرّم الله وجهة، وقد سئل: هل خَصكم بأهل البيت

---

(١) لقمان ١٣.

(٢) البقرة ١٨٧.

(٣) تفسير الآلوسى ٢/ ٦٧.

رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال «ما عندنا غير ما فى الصحيفة أو فهمٌ يؤتاه الرجل فى كتاب الله»(١).

والزبيدى يبين أن مرتبة فهم كتاب الله مرتبة عظيمة، ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٢)، فإنه تعالى خصص ما انفرد به سليمان بالتفطُّن له باسم الفهم، وجعله مقدما على العلم والحكم (٣).

وهذه بعض النماذج التى توضح هذا الاتجاه:

١ـ تعداد المعانى المختلفة للفظة الواحدة:

ذلك لأن اللفظة الواحدة قد تحتمل فى القرآن الكريم عشرين معنى أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر. من ذلك كلمة الهدى فهى:

بمعنى البيان فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (٤).

وبمعنى الإيمان فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ (٥).

وبمعنى الرسل أو الكتب فى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (٦).

وبمعنى الرشاد فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ (٧).

وبمعنى التوراة فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٨).

وبمعنى التوحيد فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ (٩).

---

(١) الفتوحات الإلهية لسليمان بن عمر ١/ ٦.
(٢) الأنبياء ٧٩.
(٣) شرح إحياء علوم الدين للزبيدى ٥٣٠.
(٤) البقرة ٥.
(٥) البقرة ١٢٠.
(٦) مريم ٧٦.
(٧) طه ١٢٣.
(٨) الفاتحة ٦.
(٩) غافر ٥٣.

وبمعنى التوحيد فى قوله تعالى ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾ (١).

وبمعنى الإلهام فى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٢).

٢ـ احتمال اللفظ معنيين فى موضع، وتعيين واحد منهما فى موضع آخر: من ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٣) فيحتمل أن يكون السمع معطوفا على (قلوبهم) ويحتمل الوقف على (قلوبهم) والابتداء بقوله: (وعلى سمعهم) والاحتمال الأول أولى لقوله تعالى فى سورة الجاثية: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (٤).

وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (٥) والمراد بهم: (المؤمنون) بدليل قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٦).

٣ـ رفع التناقض وإزالة الاختلاف:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (٧) مع قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ (٨).

قيل: إن آية الأعراف تجرى على الظاهر من أن الوعد كان ثلاثين ثم أتم بالعشر، فاستقرت الأربعون، ثم أخبر فى آية البقرة بما استقر.

٤ـ تفسير الألفاظ بالسياق القرآنى:

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (٩). وقد فسر السياق القرآنى هذا (الهلوع) بقوله بعد ذلك: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (١٠).

---

(١) القصص ٥٧.
(٢) طه ٥٠ وانظر (البرهان فى علوم القرآن) للزركشى ١/ ١٠٣.
(٣) البقرة ٧.
(٤) الجاثية ٢٣.
(٥) الشورى ٥.
(٦) غافر ٧.
(٧) البقرة ٥١.
(٨) الأعراف ١٤٢.
(٩) المعارج ١٩.
(١٠) المعارج ٢٠، ٢١.

٥ ـ تفسير المعنى المراد الخفى بنص صريح يبين خفاءه:

ومثاله: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ (١)، اضطرب الصحابة لاعتقادهم أنهم سيحاسبون على خواطر أنفسهم وحركات قلوبهم. فقالوا: يا رسول الله، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها.

فقال لهم النبى ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. فأخذوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها فى نص صريح وهو قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة.

وبعد نزولها علموا أنهم لا يحاسبون على خطرات النفس، وهواجس القلب.

٦ ـ تفسير المبهمات:

ومن تفسير القرآن الكريم بالقرآن: علم المبهمات، هكذا أطلق عليه علماء التفسير، والمراد به أنه تبهم الكلمات فى موضع استغناء ببيانها فى موضع آخر فى سياق الآية. ومثاله قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢) فقد بين (يوم الدين) فى موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (٣).

٧ ـ الإجمال والتفصيل:

هناك آيات قرآنية وردت مجملة موجزة، وأخرى موضحة متصلة فى موضوع واحد. ونحن بإزاء هذه الآيات يجب أن نقف عند المجمل وحده من غير نظر إلى الآيات التى تفسره وتفصله، وتوضحه. ولو فعلنا ذلك لوقعنا فى الخطأ لأننا أخذنا الحقيقة مغلفة، ولا ندرى ما بداخلها.

---

(١) البقرة ٢٨٤.

(٢) الفاتحة ٤.

(٣) الانفطار ١٨، ١٩.

ومثال هذا النوع من تفسير ما أجمل، وتوضيح ما أوجز قوله تعالى: ﴿وأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[1] ولكن ما الذى يتلى علينا ويحرم علينا أكله؟ لم تبينه الآية، ولكنها أجملت ما يتلى فى هذا الموقف وتعود الآيات بعد ذلك لتوضيح هذا الذى يُتلى، فيقول تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] إلى آخر الآية.

وبعد فهذه نظرات عابرة فى غريب القرآن الكريم، وأرجو أن أوفق فى بحث آخر إن شاء الله إلى تفسير غريب القرآن الكريم فى ضوء غريب الحديث الشريف ليتضح لنا أبعاد هذا الغريب عند اللغويين والمفسرين.

***

(١) الحج ٣٠.

(٢) المائدة ٣. وانظر (البرهان فى علوم القرآن ٢/ ٤٦.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة ثالثة ـ مصطفى الحلبى.

٢ـ إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعى ـ مطبعة الاستقامة ـ طبعة سادسة.

٣ـ الأعرابيّات: خليل مردم بك ـ طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

٤ـ الاقتراح: جلال الدين السّيوطى ـ طبع الهند.

٥ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى: تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ـ مطبعة الحلبى.

٦ـ تفسير الألوسى: ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت.

٧ـ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم: للرمامى ـ والخطابى ـ والجرجانى ـ دار المعارف بمصر.

٨ ـ الرسالة: الإمام الشافعى ـ طبع مصطفى البابى الحلبى.

٩ـ الصاحبى لابن فارس ـ مطبعة المؤيد سنة ١٩١٠.

١١ـ المسائل لابن قتيبة ـ مخطوط مصور رقم ٢٠٩٦٧ ـ مكتبة جامعة القاهرة.

١٢ـ مقدمتان فى علوم القرآن ـ تحقيق ارثر جفرى ـ مطبعة السنة المحمدية.

١٣ـ القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية د. عبدالعال سالم مكرم ـ دار المعارف بمصر ـ طبعة أولى ـ مؤسسة الصباح ـ الكويت ـ طبعة ثانية ـ مكتبة التراث بالأزهر ـ طبعة ثالثة.

١٤ـ كشف الظنون ـ حاجى خليفة ـ طبعة وكالة المعارف – استانبول.

١٥ـ النقد واللغة فى رسالة الغفران: الدكتور أمجد الطرابلسى ـ مطبعة الجامعة السورية.

١٦ـ النهاية فى غريب الحديث: ابن الأثير ـ طبع عيسى الحلبى.

* * *

١١. تفسير غريب القرآن الكريم(*)
فى ضوء الحديث الشريف

فى البحث السابق بينت أن غريب القرآن الكريم مرّ تفسيره وتوضحيه بمراحل مختلفة. وأول مرحلة من مراحل توضحيه بدأت فى عده الرسول ﷺ حينما وضح لأصحابه ما خفى عليهم من ألفاظه، وما استتر من معانيه.

والمرحلة الثانية: تمثلت فى توضيح غريب القرآن بالقرآن، وقد سقت الأمثلة المتعددة التى توضح هذه المرحلة.

أمّا المرحلة الثالثة فى مراحل توضيحه فهى موضوع هذا البحث؛ وهو تفسير غريب القرآن الكريم فى ضوء الحديث الشريف.

وقبل أن نبدأ فى دراسة هذه المرحلة لابد من أن نتعرض للخطوط العريضة فى حقل دراسات الحديث الشريف لتتبيّن على هديها كيف كان الحديث الشريف مصدراً لغويا إلى جانب كونه مصدراً تشريعياً يلى القرآن الكريم فى نوره وهدايته.

الحديث الشريف فى مجال التوثيق:

هناك أحاديث كثيرة تبينّ أن النبى ﷺ ـ صيانة للقرآن حتى لا يختلط به ما ليس منه ـ نهى أصحابه عن كتابة أحاديثه.

ومن هذه الأحاديث الصريحة فى النهى ما رواه أبو سعيد الخدرىّ أن النبى ﷺ قال: «لا تكتبوا عنّى شيئا سوى القرآن، فمن كتب عنى شيئا فليمْحُه»(١).

وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً قال: «استأذنت النبّى ﷺ أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لى»(٢).

(*) نشر فى مجلة: «التضامن الإسلامى» - السنة الحادية والأربعون - الجزء الثانى

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادى/ ٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

ويروى الخطيب البغدادى عن أبى هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما ذا الذى تكتبون؟ قلنا: أحاديث سمعناها منك قال: أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلاّ ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله» قال أبو هريرة: أنتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: نعم تحدثوا عنى ولا حرج، فمن كذب على متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار»(١).

على أن هناك أحاديث أخرى تبيح الكتابة، ولا تمنع التقييد سجّلها الرواة.

ومن هذه الأحاديث ما يأتى:

عن أبى هريرة قال: «ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب»(٢).

عن مجاهد أنه قال: «رأيت عند عبدالله بن عمرو صحيفة فسألته عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ وليس بينى وبينه فيها أحد»(٣).

فى ضوء هذه الأحاديث أستطيع أن أقول: إن النبى ﷺ حرص كل الحرص على سلامة النص القرآنى حتى لا يتسرب إليه شىء من كلام البشر كى لا تضل أمته، ويبقى كتاب ربها مصوناً من التحريف، مبرّأ من الخطأ، محصّنا بسياج منيع من الدقة والعناية والرعاية والضبط والإتقان.

والسؤال الذى يتطلبه الموقف هنا. أليس فى هذه الأحاديث تناقض؟ كيف يجيز النبى ﷺ الكتابة لجماعة من الصحابة، ، ويمنعها عن جماعة أخرى؟

فى الحقيقة نحن نُبرّىء كلام رسول الله ﷺ من التناقض، فالمواقف تتغير، ولكل موقف ما يناسبه من القول، فالنهى فى رأيى خاص بهؤلاء الذين لا يميزون بين كلام الله تعالى، وكلام الرسول، وأصحاب رسول الله ﷺ ليسوا على درجة واحدة فى مستوى الكتابة، فحتى لا يفتح الباب على مصراعيه، ويتعدّد الكاتبون، منع الرسول ﷺ الكتابة منعاً عاما، ورخصها لقوم أتقنوها وأجادوها، فهم مأمونون من الخلط بين قول الله تعالى وقول الرسول ﷺ.

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادى/ ٢٩.
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٤/ ١١٢.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ١٨٩.

على أن ابن قتيبة فى كتابه «تأويل مختلف الحديث» تعرض لهذا التناقض مدلّلاً على أن كلام رسول الله ﷺ لا تناقض فيه لأنه كلام معصوم لا ينطق عن الهوى.

قال ما نصه: «قالوا: أحاديث متناقضة.

قالوا: رَوَيْتُم عن همام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرىّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن. فمن كتب عنى شيئاً فليمحه».

ثم رويتم عن ابن جريج عن عطاء عن عبدالله بن عمرو قال: قلت يا رسول الله: أقيد العلم؟ قال: نعم، قيل: وما تقييده؟ قال: كتابته.

ورويتم عن حَماد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن جده قال: قلت يا رسول الله: أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: فى الرضا والغضب؟ قال: نعم، فإنى لا أقول فى ذلك كله إلا الحق.

قالوا: وهذا تناقض واختلاف.

ويرد ابن قتيبة على هذه الدعوى الباطلة بقوله:

قال أبو محمد، (كنية ابن قتيبة): ونحن نقول: إن فى هذا معنيين:

أحدهما: أن يكون منسوخ السنة بالسنة، كأنه نهى فى أول الأمر عن أن يُكتب قولُه.

ثم رأى بعد ما علم أن السنن تكثر - وقد تفوت بالحفظ- أن تكتب وتقيّد.

والمعنى الآخر: أن يكون خص بهذا عبدالله بن عمرو، لأنه كان قارئا للكتب المتقدمّة، ويكتب بالسّريانية والعربية، وكان غيره من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يُتقن، ولم يصب التهجى، فلما خشى عليهم الغلط فيما يكتبون نهاهم، ولما أمن على عبدالله بن عمرو ذلك أذن له»[1].

* وحقيقة لقد أصاب ابن قتيبة المحزّ فى الرد الصائب، والإجابة المقنعة.

ونضيف إلى رأى ابن قتيبة رأيا آخر لا يقل وجاهة عنه وهو رأى الحسن بن عبدالرحمن الرامهرزى المتوفى نحو سنة ٣٦٠هـ حيث يقول فى معرض الرّد على هذه الدعوى الكاذبة

(١) تأويل مختلف الأحاديث لابن قتيبة.

دعوى الاختلاف والتناقض: «إنما كره الكتاب من كره من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله، ويرغب عن حفظه والعمل به، فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أشفى وأولى، والدليل على وجوبه أقوى.

وحديث أبي سعيد «حرصنا على أن يأذن لنا النبي ﷺ في الكتاب فأبى، فأحسبه أنه كان محفوظاً في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن»(١).

* على أن الخطيب البغدادي في كتابه «تقييد العلم» بين لنا أنّ السبب في عدم كتابة الحديث في الصدر الأول يرجع إلى خوف الاتكال على الكتابة، فيؤدي ذلك إلى نقص الحفظ، وفي نقص الحفظ إهمال لحديث رسول الله ﷺ، فعلى الذاكرة أن تعيه، وعلى الحافظة أن تستوعبه حتى يتلقاه الخلف عن السلف مأموناً من التحريف، مصوناً من التبديل.

قال البغدادي: «وكان غير واحد من السلف يستعين على حفظ الحديث بأن يكتبه ويدرسه من كتابه، فإذا أتقنه محا الكتاب خوفاً من أن يتكل القلب عليه، فيؤدي ذلك إلى نقصان الحفظ، وترك العناية بالمحفوظ»(٢).

على أن هناك من ندم من الصحابة على محو ما كتب من أحاديث، فعن عروة بن الزبير قال: كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أن أفديه بمالي وولدي وأني لم أمحه»(٣).

على أية حال كانت فإن كتابة الأحاديث كانت تسير جنباً إلى جنب مع حفظه واستيعابه. ولا شك أن التقاء المحفوظ بالمكتوب يؤدي إلى سلامة نص الحديث من التحريف والتصحيف والتبديل.

وأحب أن أختم هذه النقطة من البحث بما ذكره الدكتور صبحي الصالح في كتابه المشهور: «علوم الحديث ومصطلحه» في هذه القضية حيث يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن

---

(١) المحدّث الفاصل ـ مخطوط بمكتبة الظاهرية ـ دمشق رقم ٤٠٠ حديث نقلاً عن مقدمة التحقيق لكتاب: «تقييد العلم للبغدادي.

(٢) تقييد العلم/ ٦٠.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

كتابة الأحاديث أول نزول الوحى مخافه التباس أقواله وشروحه وسيرته بالقرآن... ثم أذن بذلك إذناً عاماً حين نزل أكثر الوحى، وحفظه الكثيرون، وأمن اختلاطه بسواه فقال ﷺ: «قيدوا العلم بالكتاب».

وحفظ عنه صلوات الله عليه المنعُ من كتابة أحاديثه بوجه عام، لأن كلامه كان موجَهاً إلى عامة أصحابه، وفيهم الثقة والأوثق، والصالح والأصلح والضابط والأشد ضبطاً، والحافظ والأمتن حفظاً، وأذن فى الوقت نفسه لبعض أفرادهم إذناً خاصاً، لنظاهر الكتابة الحفظ إن كانوا ضابطين، أو تساعدهم على زيادة الضبط إن خيف نسيانهم، ولم يوثق بحفظهم، فكان إذنه لهؤلاء وأولئك أشبه بالاستثناء الذى خص به ﷺ نفرًا من أصحابه لأسباب وجيهة قدر أهميّتها تبعاً للظروف والأشخاص[1].

علوم الحديث:

واضح إذاً من هذه النصوص التى قدّمناها أن المسلمين منذ عهد رسول الله ﷺ حفظوا عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله، وسيرته، لأنه الرسول المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وهو المبلغ عن ربه، والدّاعى إلى نوره، وهو المبين لما أنزل، الموضح لما شرع، وهو الذى أعلن فى حجة الوداع أن على المسلمين أن يبلغوا عنه: «فليبلغ الشاهد الغائب، فربّ مبلّغ أوعى من سامع».

وكانت هذه انطلاقة كبيرة انتشرت أنوارها فى الجزيرة العربية أوّلاً ثم أشرقت أنوارها فى أرجاء الدنيا بعد ذلك حينما حمل المسلمون الراية القرآنية وراية السنة النبوية تخفقان جنبا إلى جنب على ربوع الدنيا.

ولا أدل على عناية المسلمين بأحاديث نبيهم من هذا الجهد العظيم الذى قاموا به فى محيط دراستها إلى أن تكوّن من هذه الدراسة علم نضج واكتمل وهو علم الحديث يقول عنه ابن خلدون فى مقدّمته:

«وأمّا علوم الحديث فهى كثيرة متنوعة، لأن منها ما ينظر فى ناسخه ومنسوخه.. ومعرفة الناسخ والمسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهرى أعيا الفقهاء وأعجزهم أن

(١) علوم الحديث ومصطلحه / ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢.

يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسُوخه.. وكان للشافعى رضى الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم الأحاديث النظر فى الأسانيد، ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط.

إلى أن يقول: ولهم فى ذلك ألفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل: الصحيح، والحسن، والضعيف، والمرسل، والمنقطع، والمعضل، والشاذّ والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم، وبوّبوا على كل واحد منها، ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة الشأن أو الوفاق، ثم النظر فى كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة، وتفاوت رتبها وما للعلماء فى ذلك من الخلاف بالقبول والرّد.

إلى أن يقول: ثم عنى الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدها المختلفة.. وجاء محمد ابن إسماعيل البخارى إمام المحدثين، فى عصره، فوسع نطاق الرواية، وخرج أحاديث السّنة على أبوابها فى مسنده الصحيح.. ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيرى ـ رحمه الله ـ فألف مسنده الصحيح، حذا فيه حذو البخارى، فى نقل المجمع على صحته، وحذف المتكرر منها، وجمع الطرق والأسانيد، وبوّبه على أبواب الفقه وتراجمه[1] إلخ.

شبهة زائفة:

بعد هذا العرض لهذا الجهد العظيم الذى قام به علماء الإسلام فى حقل الحديث الشريف دارسين باحثين باذلين كل ما فى وسعهم لتنقية الحديث مما علق به من أحاديث موضوعة أو ضعيفة أحب أن أوجه القارىء إلى أن يصم أذنيه عن الدعاوى المغرضة التى تدعو إلى عدم الاحتجاج بالأحاديث الشريفة لأنها «تسمّى فى اصطلاحات بعض الفنون ظنيّة الثبوت» أى أنها لم تثبت بالتواتر الموجب للقطع فى النقل.

وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً، وقد كفانا مئونة الرد على هؤلاء العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقدمة تحقيقه لكتاب «الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث» لابن كثير قال ردًا على الدعوى السابقة بما نصه: «وكان هذا اتباعا لاصطلاح لفظى [يقصد دعوى ظنية الثبوت] لا أثر له فى القيمة التاريخية لإثبات صحة الرواية، فما

(١) مقدّمة ابن خلدون من ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧.

كل رواية صادقة يثق بها العالم المطلع المتمكن من علمه التصديق بها، واطمئنان القلب إليها أن تكون ثابتة ثبوت التواتر الموجب للعلم البديهى، وإلاّ لما صحّ لنا أن نثق بأكثر النقول فى أكثر العلوم والمعارف».

ثم يردّ أيضاً على فئة أخرى زعمت أن كل الأحاديث لا صحة لها ولا أصل، يقول: «ونبغ فى عصرنا هذا بعض النوابغ ممن اصطنعتهم أوربّا وادخرتهم لنفسها من المسلمين، فتبعوا شيوخهم من المستشرقين ـ وهم طلائع المبشرين ـ وزعموا كزعمهم أن كل الأحاديث لا صحة لها ولا أصل، وأنه لا يجوز الاحتجاج بها فى الدّين.

وبعضهم يتخطى القواعد الدقيقة الصحيحة، ثم يذهب يثبت الأحاديث وينفيها بما يبدو لعقله وهواه من غير قاعدة معينة، ولا حجة ولا بينة.

وهؤلاء لا ينفع فيهم دواء إلا أن يتعلموا العلم، ويتأدبوا بأدبه ثم الله يهدى من يشاء»[1]!.

الحديث النبوى فى ميزان الفصاحة والبلاغة:

يعتبر الحديث النبوى من حيث بلاغة التعبير، وجزالة اللفظ، وسمو المعنى، وحسن النظم، وجمال السبك فنًّا أدبيًّا يلى القرآن الكريم من حيث الدرجة والرتبة، ولا غرو فى ذلك فمحمد ﷺ وإن كان أميا لا يتلو كتابا، ولا يخط بيمينه حرفاً قد أوتى جوامع الكلم، وهى جوامع شحنت بما يدلّ على العقل الواسع، والفكر المتزن، والإدراك الكبير للثقافة والعلم.

وخير ما نسترشد به فى هذا المقام إجابته ﷺ المشهورة لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حينما سأله مرّة فقال: لقد طفت فى العرب، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدّبك؟ قال: أدّبنى ربى فأحسن تأديبى».

ومن الحق أن نقول: إن محمداً ﷺ تربىّ فى رحاب القرآن، فأشرق كلامه، وسما أسلوبه، وعلت فصاحته مما جعله أبلغ العرب إلى جانب النشأة الأولى التى عاشها فى البادية حيث استرضع فى بنى سعد بن بكر «والبادية تطبع من يعيش فيها، ويحيا بها على سلائق فصيحة وألسنة ذليقة إلى عارضة شديدة، وبداهة عجيبة، واستحواذ على جيد الكلام[2]».

---

(١) مقدمة كتاب: «الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث» لابن كثير ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر.

(٢) الأعرابيات: خليل مردم/ ٦.

الزمخشري يصف بلاغة الرسول عليه السلام:

ويصف الزمخشري بلاغة الرسول عليه السلام فيقول: «ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته مخضه، وألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة، وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرِّجْل[1]، وما من مصقع يناهزه إلاّ رجع فارغ السَّجْل، وما قرن بمنطقه منطق إلاّ كان كالبَرْذون مع الحصان المطهّم، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلاّ أشبه الوضَح في نُقْبة الأدهم. قال عليه السلام: أوتيت جوامع الكلم وقال: أنا أفصح العرب بيْدأني من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر»[2].

وصف الجاحظ لبلاغة الرسول عليه السلام:

ويصف الجاحظ بلاغة الرسول عليه السلام فيقول: «هذا الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصَّنْعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغب عن الهجين السّوقيّ، فلم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وسُدَّ بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق.

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه،وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة وبينّ حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولازلت له قدم، ولابارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولايلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولايحتج إلا بالصّدق، ولايطلب الفَلج إلا بالحق، ولايستعين بالخَلاَبة، ولايستعمل المواربة، ولايهمز ولايلمز، ولايبطيء ولايعجل، ولا يُسْهب ولايحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولاأصدق لفظًا، ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ»[3].

---

(١) كناية عن العيّ والعجز عن المقاومة.

(٢) من مقدمة الزمخشري لكتاب: الفائق في غريب الحديث.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٤ تحقيق السندوبي

الحديث الشريف والغريب:

كلمة الغريب فى حقل دراسات الحديث الشريف تعنى نوعين:

أ - غريب الحديث، وهو مُصْطلح فنىّ من مصطلحات: «علم مصطلحات الحديث الشريف» تحدّث عنه ابن الصّلاح فى مقدمته المشهورة فى علوم الحديث فى النوع الحادى والثلاثين بقوله :«الحديث الذى ينفرد به بعض الرّواة يوصف بالغريب. وكذلك الحديث الذى ينفرد فيه بعضهم بأمر لا يذكره فيه غيره إمآ فى متنه وإمّا فى إسناده[1].

ودرجة هذه الأحاديث الموصوفة بالغرائب ضعيفة فقد روى عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال غير مرّة:«لاتكتبوا هذه الأحاديث الغرائب، فإنها مناكير ، وعامتها من الضعفاء»[2].

قال ابن الصلاح: وينقسم الغريب أيضاً من وجه آخر، فمنه ماهو غريب متناً وإسناداً ، وهوالحديث الذى تفر د برواية متنه راوٍ واحد.

ومنه ماهو غريب إسناداً لامتناً كالحديث الذى متنه معروف مروىّ عن جماعة من الصحابة إذا تفرد بعضهم بروايته عن صحابىٍّ آخر كان غريبا من ذلك الوجه مع أن متنه غير غريب»[3].

ب - غريب ألفاظ الحديث النبوى: وهو الغريب الذى يعنينا فى هذا البحث، لأن النوع الأول من الغريب مجاله دراسات علوم الحديث.

وليس ببدع أن يشتمل الحديث الشريف على غرائب لغويّة، وألفاظ تحتاج إلى كشف عن معانيها شأنه فى ذلك شأن غريب القرآن الكريم.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ عربى وأوتى جوامع الكلم، وملم بلغات العرب يتكلم مع كل قوم بلغتهم، ويشاركهم فى أحاديثهم، ويستمع إلى كلامهم من دون عناء فى فهمه أو صعوبة فى كشفه.

---

(١) مقدمة ابن الصّلاح/ ١٣٦.
(٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.

ولله درّ أبى سليمان الخطابىّ فقد أعطانا صورة واضحة عن الغريب فى حديث رسول الله ﷺ أحب أن أعرضها على القارىء ليقف على حقيقة هذا الغريب فى ضوء الشرح والتحليل والتعليل.

قال رحمه الله :« ثم إن الغريب من الكلام على وجهين:

أحدهما : أن يراد به بعيدُ المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر.

والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار، ونأى به المحلّ من شواذّ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربنا ها وإنما هى كلام القوم وبيانهم. وعلى هذا ماجاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن حرف من الغريب، فقال: هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه».

ولم يكتف الخطابىّ بتعريف الغريب من الكلام بل أعطانا صورة أخرى علّل فيها كثرة الغريب فى حديث رسول الله ﷺ فيقول.

«إنه ﷺ بعث مبلغًا ومعلّماً ، فهو لايزال فى كل مقام يقومه وموطن يشهده يأمر بمعروف، وينهى عن منكر ، ويشرع فى حادثة، ويفتى فى نازلة، والأسماع إليه مصغية، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية.

وقد تختلف عنها عباراته، ويتكرّر فيها بيانه، ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فقهاً، وأقرب بالإسلام عهداً، وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يُرعونها كلها سمعاً، ويستوفونها حفظاً، ويؤدّونها على اختلاف جهاتها، فيجتمع لذلك فى القضية الواحدة عدّة ألفاظ تحتها معنىً واحد، وذلك كقوله : «الولد للفراش» وللعاهر الحجر» وفى رواية أخرى :«وللعاهر الأثلب»[1] وقد مرّ بمسامعى ولم يثبت عندى: «وللعاهر الكَثْكث» [2] .

(١) فى القاموس: الأثلب : التراب والحجارة، وكذلك الكثكث.

(٢) من كتاب : «غريب الحديث لأبى سليمان الخطابى مخطوط بالمكتبة السلمانية - نقلاً من مقدمة الزميل الدكتور محمود الطناحى لكتاب : «منال الطالب فى شرح طوال الغرائب».

ومجال الحديث عن غريب الحديث لاتتّسع له مساحة هذا البحث الموجز وقد نرجئه إلى بحث آخر إن شاء الله.

والذى يعنينى فى هذا البحث هو تفسيرغريب القران بحديث رسول الله ﷺ لتكمل المرحلة الثالثة من تفسير غريب القرآن الكريم.

غريب القرآن الكريم فى ضوء الحديث الشريف:

هناك مؤلفات عدة فى غريب الحديث نكتفى بذكر اثنين منها لهما شهرة فى حقل الغريب ، وهما : كتاب «الغريبين» للهروى، وكتاب «الفائق فى غريب الحديث» للزمخشرى.

كلا الكتابين تعرّض لبعض الألفاظ القرآنية الغريبة من خلال عرض ألفاظ الحديث النبوى.

وبالمقابلة بين لفظى القرآن الكريم ، والحديث النبوى تتضح معانى الألفاظ القرآنية ونظهر دلالتها، ويتبينّ المعنى المراد منها.

وسأتناول فى إيجاز تعريف هذين الكتابين،ومنهجهما فى عرض الغريب، ثم نختم هذا البحث بعرض نماذج لغريب القرآن الكريم المفسّر بألفاظ الحديث الشريف لتتجلى لنا صورة واضحة من صور الاستشهاد بالحديث لإزالة غرابة الكثير من الألفاظ القرآنية.

كتاب الغريبين للهروىّ:

وصف ابن الأثير كتاب الغريبين للهرويّ فقال: «فلما كان زمن أبى عبيد أحمد بن محمد الهرويّ صاحب الإمام أبى منصور الأزهرى اللغوى، وكان فى زمن الخطابى وبعده وفى طبقته صنف كتابه المشهور السائر فى الجمع بين غريبى القرآن العزيز والحديث، ورتبه مقفّى على حروف المعجم على وضع لم يسبق فى غريب القرآن والحديث إليه فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها وأثبتها فى حروفها وذكرمعانيها، إذ كان الغرض والمقصد من هذا التصنيف معرفة الكلمات الغريبة لغة وإعراباً ومعنىً. لامعرفة متون الأحاديث والآثار، وطرق أسانيدها، وأسماء رواتها، فإن ذلك علم مستقل بنفسه مشهور بين أهله».

إلى أن يقول: «فجاء كتابه جامعاً فى الحسن بين الإحاطة والوضع. فإذا أراد الإنسان كلمة غريبة وجدها فى حرفها بغير تعب إلاّ أنه جاء الحديث مفرقاً فى حروف كلماته حيث

كان هو المقصود والغرض، فانتشر كتابه بهذا التسهيل والتيسير فى البلاد والأمصار، وصار هو العمدة فى غريب الحديث والاثار»[1].

منهج الهروى فى كتابه:

إن تحقيق الغرض الذى حمل المؤلف على تأليف كتابه، والمنهج الذى ارتضاه لتحقيق هذه الغاية، والطريقة التى استنّها للوصول إلى هذا الهدف بينها فى مقدمة كتابه، وبذلك أغنانا عن تتبّع هذا المنهج من خلال دراستنا لهذا الكتاب: فقال:

«فإن اللغة العربية إنما يحتاج إليها لمعرفة غريبى القرآن، وأحاديث الرسول عليه السلام والصحابة والتابعين ، والكتب المؤلفة فيها جمّة وافرة، وفى كلّ منها فائدة، وجمعها متعب، وحفظها عن آخرها معجز، هذا والأعمار قصيرة، والعلوم كثيرة، والهمم ساقطة، والرغبات نائمة، والمستفيد مستعجل، والحفظ كليل، والحرص قليل فمتى اشتغل المرء بتحصيلها كلها بعدت عليه الشقة، وعظُمت الكلفة. وفات الوقت، واستولى الضجر.

وكنت أرجو أن يكون سبقنى إلى جمعهما، وضمّ كل شىء إلى لفقه منهما على ترتيب حسن ، واختصار كاف - سابق، فكفانى مؤونة الّدأب وصعوبة الطلب، فلم أجد أحداً عمل ذلك إلى غايتنا هذه، فاستخرت الله عزوجل وتقدس - فيه ، وسألته التوفيق له، ليكون تذكرة لنفسى مدى حياتى، وأثراً حسناً لى بعد وفاتى إن شاء الله، وبه الثقة».

ثم وضح منهجه بقوله: «وهو موضوع على نسق الحروف المعجمة نبدأ بالهمزة ، فنفيض بها على سائر الحروف حرفاً حرفا، ونعمل لكل حرف باباً، ونفتتح كل باب بالحرف الذى يكون أخره الهمزة ثم الباء، ثم التاءّ إلى اخر الحروف.. ليصير المفتش عن الحرف إلى إصابته من الكتاب بأهون سعى، وأحث طلب، وشرطى فيه الاختصار إلاّ إذا اختل «الكلام دونه»[2].

نماذج من تفسير غريب القران بالحديث الشريف:

١ - ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [3] أى فضّلك، يقال: له على أثرة أى فضل.

---

(١) مقدمة النهاية لابن الأثير ١/ ٨،٩.
(٢) من مقدمة الغريبين لأبى عبيد الهروى.
(٣) يوسف/ ٩١.

وفى الحديث «إنكم ستلقون بعدى أثرة» أى يستأثر عليكم، فيفضل غيركم نفسه عليكم فى الفيء» (١).

٢ - ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾(٢) . وقرىء: ﴿ أَوْ إِثَارَةٍ﴾ أى من علم مأثور ويقال : بقية من علم. والأثارة والأثر: البقية ، يقال : ما ثمّ عين ولا أثر.

وفى الحديث :«من سرّه أن يبسط له فى رزق، وينسأ فى أثره فليصل رحمه» (٣).

٣ -﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (٤)، يقال : جاء بأمر إدٍّ، أى منكر عظيم. ومنه حديث علىّ. قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام، فقلت : ما لقيت بعدك من الإدّ. والإدد : الدّواهى العظام واحدتها إدّة» (٥).

٤ - ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٦)، أى سمعت سمع طاعة وقبول، وبه سميّت الأذن أذناً.

وفى الحديث: «ما أذن الله لشىء كإذنه لنبىّ يتغنى بالقرآن» يريد ما أستمع الله لشىء ، ولايشغله سمع عن سمع»(٧).

٥- ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾(٨) البعولة : جمع البَعْل. والرجل بعل المرأة، والمرأة بعلته، وقد بعل يبعل بعْلاً: إذا صار بعلاً.

وباعل مباعلة: إذا باشرها.

ومنه قوله عليه السلام لأيام التشريق :«إنها أيام أكل وشرب وبِعال»(٩).

٦ - ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾(١٠).

قال ابن عرفة: الجانّ : الحية الصغيرة.

وفى الحديث فى كَسْح زمزم. قال العباس: يارسول الله : إنّ فيها جنّاناً كثيرة، يعنى حيّات، وهى جمع الجانّ.

---

(١) الغريبين ١ / ١٥
(٢) الأحقاق : ٤
(٣) الغريبين١/ ١٦/ ١٧
(٤) مريم/ ٨٩
(٥) الغريبين ٦/ ٢٩
(٧) الغريبين ١ / ٣٣.
(٦) الإنشقاق :٢
(٨) البقرة: / ٢٢٨
(٩) الغريبين ١/ ١٨٧
(١٠) النمل / ١٠.

وفى حديث اخر «أنه نهى عن قتل الجنّان التى تكون فى البيوت»[1].

وهناك أمثلة متعددة فسرت فيها ألفاظ القرآن الكريم الغريبة بالحديث الشريف نكتفى بعرض النماذج السابقة منها. وننتقل الآن إلى الكتاب الآخر المشهور فى غريب الحديث وهو كتاب «الفائق» للزمخشرى.

كتاب «الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى»:

وكما أعطانا ابن الأثير فكرة واضحة عن كتاب «الغريبين» للهروىّ، فإنه لم ينس أن يعطينا أيضاً فكرة أخرى عن كتاب «الفائق» للزمخشرى ، فيقول:

«صنف كتابه المشهور فى غريب الحديث، وسمّاه:الفائق»، ولقد صادف هذا الاسم مسمّى، وكشف من كل غريب الحديث كل معمّى، ورتّبه على وضع اختاره مُقفّى على حروف المعجم، ولكن فى العثور على الحديث منه كلفة. ومشقّة.. إلى أن يقول :«فكان كتاب الهروى أقرب متناولاً، وأسهل مأخذا، وإن كانت كلماته متفرقة فى حروفها، وكان النفع، أتمّ ، والفائدة منه أعمّ»[2].

بعد هذا الوصف الدقيق للفائق فى الغريب من ناحيتى الموضوع والمنهج أحب أن أقول فى هذا المقام: إن الفائق لم يهتم كثيراً بالألفاظ القرآنية الغريبة فى كل ما عرض له من أحاديث اللهم إلا بعض ألفاظ جاءت على سبيل الاستطراد، ولم تكن مقصودة فى منهجه الذى رسمه لنفسه فى هذا الكتاب وهو يتضح فى كشف معانى غريب الحديث مؤيدة بالشعر، وبالقول المأثور من كلام العرب.

فإذا جاءت ألفاظ قرآنية تحتوى على مادة غريب الحديث نفسها لم يشر إليها إلا لماماً ، ولم يفعل كما فعل الهروى حيث تتبع هذه الألفاظ الغريبة فى الحديث فى ضوء ألفاظ غريب القرآن الكريم ومن ها كان عنوان كتابه: «الغريبين» ، فكلاهما مقصود وتتبعهما مراد، وإجلاء حقيقتهما من المنهج.

على أن الزمخشرى فى منهجه يطمئن الباحثين والدارسين بأنه بذل كل ما فى جهده للوصول إلى حقيقة هذا الغريب معتمداً على : «فَسْر موضح» [3] وكشف مفصح،اطلعت به على حاقّ المعنى وفصّ الحقيقة اطّلاعاً مؤداه طمأنينة النفس ، وثلج الصدر، مع الاشتقاق

---

(١) الغريبين ١ / ٤١٣.

(٢) انظر مقدمة النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

(٣) الفسر: التفسير والبيان

غير المُسْتكره ، والتصريف غير المتعسّف، والإعراب المحقّق البصرى، الناظر فى نص سيبويه، وتقرير الفسوىّ [1] فأيّة نفس كريمة ونسْمة زاكيّة، نوّر الله قلبها بالإيمان والإتقان مرّت على هذا التبيان والإتقان ، فلا يذهبنّ عليها أن تدعولى بأنه يجعله الله فى موازينى ثِقلاً ورُحْجاناً، ويثيبنى عليها رَوْحاً وريحاناً»[2].

أمّا الأمثلة القليلة من الألفاظ القرانية التى وردت على سبيل الاستطراد فى الفائق فإليك نماذج منها.

نماذج من غريب القرآن فى الفائق:

١ - فى الحديث : كانوا يتأمّون شرار ثمارهم فى الصدقة» أى يقصدون وفى قراءة عبدالله ﴿ولا تأمّموا الْخَبِيث﴾[3]

٢ - قال النبى ﷺ :«يخرج قوم من المدينة إلى العراق والشام يبسّون المدينة، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

البسّ: السوق والطرد، ويقال: بسّ القومَ عنك أى اطردهم. وبه فسِّر قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[4].

والمعنى : يسوقون بهائمهم سائرين» [5].

٣ - الرّوح هو القرآن لقوله تعالى :﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[6].

خطب ﷺ فقال: تحابوا بذكر الله وبروحه [7].

٤ - قال تعالى :﴿لا مُعقِّبَ لحُكْمه﴾[8]. أى لا أحد يتبع حكمه ردّا.

وقال عز وجل: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [9] أى لم يتبع إدباره إقبالاً والتفاتًا.

وفى حديث أنس رضى الله عنه: أنه سئل عن التعقيب فى رمضان ، فأمرهم أن يصلوا فى البيوت. هو أن يصلوا عقب التراويح»[10].

---

(١) الفسوى: هو أبو على الفارسى
(٢) انظر مقدمة الفائق للزّمخشرى
(٣) البقرة/ ٢٦٧، انظر الفائق ١/ ٥٩.
(٤) الواقعة: / ٥
(٥) الفائق ١/ ١٠٧
(٦) الشورى / ٥٢
(٧) الفائق ٢ / ٨٩
(٨) الرعد : ٤١
(٩) النمل/ ١٠.
(١٠) الفائق ٣/ ٣١

٥ - ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾[٢].

العنوة: القهر والذل

فى حديثه ﷺ:«عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكُّوا العانى» [٣].

٦ - ﴿بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [٤] فيمن حرّك بأنه جمع :«قصَرة» وهو أصل الشجرة ومستعظمها، وأعناق الإبل، وأعناق النخل.

وفى الحديث: من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، ومن لم يكن له فليجعل له بها أصلاً ولو قَصَرَة»[٥].

٧ - قال النبى عليه السلام: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نتقفَّى من أبينا ولا نقفوا أمنا. أى لانتهمهاولانقذفها، يقال: قفا فلان فلاناً: إذا قذفه بما ليس فيه.

ومنه قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [٦].

وبعد، فأرجو أن أكون قد قدمت للقارىء صورة واضحة عن أثر الحديث الشريف فى بيان غريب القرآن.

* * *

(١) ط / ١١١ (٢) الفائق ٣/ ٢١

(٣) المرسلات ٣٢ (٤) الفائق ٣/ ٢٢

(٥) الإسراء / ٣٦ وانظر الفائق ٣/ ٢١٤.

مصادر البحث ومراجعه

١ - الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر - المطبعة الشرفية.

٢ - الأعرابيات لخليل مردم: طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣- الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث - ابن كثير.

٤- البيان والتبيين - الجاحظ - مكتبة الخانجى.

٥ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة - نشر دار الكتاب العربى بيروت.

٦ - تقييد العلم للخطيب البغدادى - طبع دمشق.

٧ - الطبقات الكبرى لابن سعد - طبع ليدن.

٨ - علوم الحديث ومصطلحه - الدكتور صبحى الصالح- طبع دار العلم للملايين.

٩ - الغريبين للهروى - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

١٠ - الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى . طبع عيسى الحلبى.

١١ - مقدمة ابن خلدون - طبع دار الشعب.

١٢ - مقدمة ابن الصلاح - منشورات دار الحكمة - دمشق.

١٣ - منال الطالب فى شرح طوال الضرائب - نشر مركز البحث العلمى بمكة المكرّمة.

* * *

١٢. القراءات فى ضوء الدراسة والبحث (*)

ما القرآن؟ وما القراءات؟

قبل أن أبدأ بحثى أحب أن أبين معنى هاتين الكلمتين اللتين نكثر من تكرارهما على الألسنة، ونتناول كلمة **قرآن**:

ـ الشافعى يرى أن القرآن اسم علَم غير مشتقّ خاص بكلام الله تعالى.

ـ الأشعرى والفراء والزجاج وقطرب يرون أن القرآن مشتق ولكنهم اختلفوا فى مادة اشتقاقه.

فالفراء والزجاج وقطرب يرون أن القرآن مشتق ولكنهم اختلفوا فى مادة اشتقاقه: فالفراء يرى أنه مشتق من القرائن، لأن الآيات يصدق بعضها بعضا، ويشابه بعضها بعضها وهى قرائن.

ـ الزجاج يرى أنه وصف على فُعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء فى الحوض أى جمعته.

ـ قطرب يقول: إنما سمى قرآنا، لأن القارىء يظهره ويبينه من فمه أخذاً من قول العرب: ما قرأت الناقة سلًى قط أى ما رمت بولد أى ما أسقطت ولدا، والقرآن يلفظه القارىء من فيه ويلقيه فيسميه قرآناً.

والسيوطى فى الإتقان يرى أن المختار عنده فى هذه المسألة ما نص عليه الشافعىّ.

وفى رأيى أن أسهل الآراء هو رأى ابن عطية الذى يرى أنّ القرآن مصدر من قولك: قرأ الرجل ـ إذا تلا ـ يقرأ قرآناً وقراءة ولا أدل على ذلك من قول حسان رضى الله عنه يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يُقَطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا.

أى قراءة. وسمى «أيضاً بالكتاب» «ذلك الكتاب» والفرقان «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده» والذكر «وإنه لذكر لك ولقومك»، «إن هو إلاَّ ذكر للعالمين».

(*) نشر فى مجلة الموسم الثقافى عام ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧م ـ جامعة الكويت .

أما كلمة قراءة أو قراءات: فهى اختلاف ألفاظ الوحى فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما.

ـ المقرىء: هو العالم بالقراءات ورواها مشافهة، فلو حفظ الشاطبية مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيها إن لم يشافهه من فوقه به مسلسلاً، لأن فى القراءات شيئاً لا يحكم إلا بالسماع والمشافهة.

ـ القارىء : المبتدىء من عرف ثلاثاً من القراءات.

ـ المتوسط : من عرف أربعاً أو خمساً.

ـ المنتهى : من عرف أكثر القراءات وأشهرها.

* * *

قسمت البحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توثيق النص القرآنى.

القسم الثانى: كيف نشأت القراءات؟

القسم الثالث: الرسم العثمانى وعلاقته بالقراءات القرانية.

أما القسم الأول، وهو توثيق النص القرآنى. فهذا التوثيق مرّ بعدة خطوات:

١ ـ نزول القرآن الحكيم منجماً أو مجزأ: ونزوله على هذه الكيفية يساعد على حفظه وتثبيته فى الصدور. ومن ثم رد الله تعالى أبلغ رد على هؤلاء الذين تساءلوا لِمَ لم ينزل القرآن عليه جملة واحدة، كما نزلت التوراة على موسى، وكما نزل الإنجيل على عيسى؟ «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا»[الفرقان/ ٣] .

وفى الحقيقة تناول الاجابة عن هذا السؤال الفخر الرازى فى تفسيره حيث ذكر سبب

النزول منجماً: ولا أستطيع أن أسرد إجاباته المتعددة عن هذا السؤال، وإنما اكتفى بتلخيصها، وأحب أن اذكر القارئ الكريم أن القرآن الكريم نزل فى اثنتين أو ثلاث وعشرين سنة.

قال الفخر الرازى مجيباً عن هذا التساؤل:

١ -: إن النبى عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة، فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه، ولجاز عليه الغلط والسهو.

٢ ـ إن من كان القرآن عنده جملة واحدة ربما اعتمد على الكتاب وتساهل فى الحفظ، فالله تعالى ما أعطاه القرآن دفعة واحدة بل كان ينزل عليه جزءا جزءاً، ليكون حفظه له أكمل، وليكون أبعد له عن التساهل، وقلة التحصيل.

٣ ـ لو نزل القرآن جملة واحدة لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك، وحينما نزل مفرقا نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل.

٤ ـ لما عجز العرب عن الإتيان بمثله مفرقاً كان ذلك دليلاً على عجزهم أن يأتوا بمثله جملة.

٥ ـ القرآن الكريم كان ينزل بحسب أسئلتهم، والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة. إلخ ما قال.

والخطوة الثانية فى التوثيق: كتابته حين النزول، فقد كان للرسول ﷺ كتاب وحى بذلوا أنفسهم فى إتقانه، وتلقوه منه عليه السلام حرفا حرفا لم يهملوا فيه حركة ولا سكونا ولا إثباتاً ولا حذفا. ولا دخل عليهم فى شىء منه شك ولا وهم.

وهنا نشير إلى مشكلة أثارها بعض المستشرقين وعلى رأسهم أرثر جفرى.

هؤلاء المستشرقون ينكرون كتابة القرآن الكريم حين نزوله على الرسول عليه السلام اعتماداً على بعض الأحاديث التى رواها ابن أبى داود فى كتاب المصاحف، ومن المحققين لهذا الكتاب أرثر جفرى، ومن هذه الأحاديث أن النبى عليه السلام «قبض ولم يجمع من القرآن شىء» ويؤيد جفرى هذا الحديث الذى ساقه ابن أبى داود بقوله: وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استحر القتل بالقراء إلى أن يقول: وسبب

الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما.

وأطلت التفكير فى هذا القول فهديت إلى أن وراء هذا الرأى الاستشراقى التشكيك فى نص القرآن الكريم، لأن الذاكرة لا تستطيع أن تمسك على كل ما فيها فترة طويلة وذلك يؤدى إلى نقص فى النص القرانى أو زيادة عليه ويكون شأنه شأن الشعر المروى عرضة للتغيير والتبديل.

ولو صح هذا الحديث الذى اعتمد عليه المستشرقون فى أن النبى عليه السلام قبض ولم يجمع فى القرآن شىء فليس معناه أنه لم يكن مكتوباً حينذاك بل المراد أنه لم يجمع فى مصحف.

وقد أشار إلى ذلك السيوطى فى إتقانه فقال: قال الخطابى: إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى مصحفه لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته عليه السلام ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك» أى كتابة القرآن فى مصحف.

على أن هناك أحاديث تنص صراحة على كتابة القرآن فى عهد الرسول عليه السلام فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحه».

وردى على هولاء المستشرقين فى الشق الثانى من آرائهم وهو خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق حين استحرّ القتل يوم اليمامة بالقُرَّاء فهذا استدلال فى غير موضعه، لأن خوفهما زيادة تحرٍّ فى صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقى المحفوظ فى ذاكرة القراء بالمكتوب فى المصحف فلا تكون هناك فجوة بينهما وذلك لأن طريقة أداء المكتوب لا تأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، ومن ثم نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء فتتعثر طريقة الأداء.

ومالى أذهب بعيدا فهناك مستشرقون منصفون وقفوا ضد هذا الرأى حيث قالوا ما نصه: «بين أيدينا كتاب معاصر فريد فى أصالته وفى سلامته لم يشك أحد فى صحته كما أنزل أى شك جدى، وهذا الكتاب هو القرآن، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد إلى أن يقول: وإن الحسنة الوحيدة فى طريقة زيد أنها كانت أمينة فوق الشبهات فلم

يفعل شيئاً ليضيف فقرات أو يضع جمل ربط أو يحذف أو ينسخ، لقد عمل بإخلاص لايمكن تصوره إلى أن يقول: والمهم هو أن القرآن هو العمل الوحيد الذى عاش دون أن يبدل فيه ثم قالوا: ولا يوجد شيء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة فى الديانة اليهودية ولا فى الديانة المسيحية...

والخطوة الثالثة فى التوثيق متمثلة فى التنافس الكبير على حفظ القرآن الكريم وكثرة تلاوته فالرسول عليه السلام يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص:

اقرأ القرآن فى كذا ليلة يدعوه إلى التيسير وهو يقول: إنى أطيق أكثر من ذلك إلى أن قال له: اقرأ القرآن فى ثلاث ليال.

والخطوة الرابعة فى التوثيق متمثلة فى أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعرضون ما يحفظونه على رسول الله ﷺ، ونذكر من هؤلاء ابن مسعود الذى يقول: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ على ففتحت سورة النساء فلما بلغت: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» فقال: حسبك الآن.

والخطوة الأخيرة فى التوثيق ممثّلة فى أن جبريل كان يعارض النبى ﷺ بالقرآن كل سنة فى شهر رمضان(١).

توثيق النص القرآنى فى عهد أبى بكر الصديق.

فى عهد أبى بكر رضى الله عنه بدأت المرحلة الثانية من مراحل توثيق النص القرآنى.

وكانت ظروف الدولة الإسلامية بمقتضى الأحداث التى وقعت فيها تستوجب من أبى بكر أن يقف هذا الموقف الكريم من القرآن العظيم، فيعمل على جمعه فى مصحف صوناً له من التحريف ومبالغة فى الدقة والتحرى.

ونترك زيد بن ثابت كاتب الوحى على عهد رسول الله ﷺ ليحدثنا عن قصة توثيق النص القرآنى بكتابته فى مصحف موحد يقول زيد ما نصه: «أرسل إلى أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من

(١) انظر كتابى: القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية فى هذه القضية.

القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن، اجمعه. قال زيد: فوالله لو كلفونى فى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن»[1].

وليس هناك شك فى أن جمع القرآن فى عهد أبى بكر كان يسير على خطة علمية منظمة تتميز بالدقة، والإتقان والمبالغة فى الاحتياط.

فعن عبدالرحمن بن حاطب: قال: قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به.... وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان ويعلق السيوطى على هذا الخبر الأخير بقوله: «وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً[2] حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. ومن المسلم به فى هذه المرحلة أن جمع أبى بكر كان مشتملاً على سبعة الأحرف التى نزل القرآن بها، ولم يخصّ أبو بكر فى جميعها حرفاً بعينه.

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا الموقف هل كان مصحف أبى بكر ملزماً للجميع أو كانت هناك مصاحف بجانبه؟

الواقع: أنه بجانب مصحف أبى بكر كانت هناك مصاحف خاصة لبعض كبار الصحابة الذين سجلوا فيها ما سمعوه من النبى ﷺ.

وأبو بكر لم يمنع القراءة فى هذه المصاحف لقرب عهده من عهد النبى ﷺ، ولم تحدث وقائع ذات بال فى قراءة القرآن تدل على خلاف، أو تشير إلى نزاع.

ومن أشهر هذه المصاحف مصحف على، ومصحف أبى، ومصحف ابن مسعود.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه المصاحف لانجد اختلافاً كبيراً بينها وإن وجد بعض الاختلاف فمرجعه ترتيب السور لا اختلاف النص بالزيادة أو النقصان.

---

(١) الإتقان ١/ ٥٧.

(٢) الإتقان ١/ ٥٨.

من أجل تعدد المصاحف بجانب مصحف أبى بكر وانتشار القراء فى الأمصار تعددت القراءات وثار الجدل، واحتدم النزاع، واتسعت الفروق بين القراءات، وأطلّت الفتنة برأسها على كتاب هذه الأمة فهيأ الله الخليفة الورع عثمان بن عفان ليقضى على كل فتنة تحاول أن تمس جلال القرآن الكريم.

وبتوفيق الله وإلهامه قام عثمان رضى الله عنه بالمرحلة الثالثة لتوثيق نص القرآن الكريم وهى المرحلة الأخيرة التى امتدّت إلى عصرنا هذا وستمتد إلى العصور الأخرى حتى تقوم القيامة وها نحن أولاء نطرق باب الحديث فيها.

توثيق النص القرآنى فى عهد عثمان رضى الله عنه.

«حدث ابن شهاب عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان، وكان يغازى أهل الشام مع أهل العراق مع فتح أرمينية وأذربيجان فأفزعه اختلافهم فى القراءة.

قال: يا أمير المؤمنين: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب كما اختلفت اليهود والنصارى، فبعث عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف، ثم نردها عليك فأرسلتها إليه، فأمر عثمان زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوا الصحف فى المصاحف»[1].

فلما تم لهم ذلك، ونقلت الصحف فى المصاحف بعث عثمان إلى كل أفق مصحفاً من تلك المصاحف التى نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»[2]. على ضوء هذا النص يتضح لنا أن هذه المرحلة فى الحركة القرآنية التى قام بها عثمان رضى الله عنه امتداد للمرحلة السابقة التى قام بها أبو بكر، بيد أن الجديد فى حركة عثمان أنه جمع الناس على مصحف واحد، وحرق ماعداه على حين كانت مصاحف كبار الصحابة تقرأ فى عهد أبى بكر، وكانت مصونة لا تمس.

ومن هنا وجهت موجات من النقد لعثمان رضى الله عنه وحاولت بعض كتب الطبقات والتاريخ أن تجعل من ابن مسعود مصدراً لهذا النقد، فقد قال ابن شهاب: «أخبرنى عبدالله ابن عبدالله بن عتبة أن عبدالله بن مسعود قال: يا معشر المسلمين أعزل عن كتابة المصحف،

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص١٨-١٩.
(٢) المرجع السابق والصفحة.

ويولاها رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت. قال ابن شهاب: فبلغنى أنه كره ذلك من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ»(١).

ووقفت أمام هذا الخبر طويلاً: كيف يصدر هذا عن ابن مسعود؟

قلت: لعل عثمان رضى الله عنه انفرد بهذا العمل وحده دون أن يستشير أولى الرأى من كبار الصحابة، وربما كانت الفتن التى أعلنت عن نفسها تجاه القرآن والقراءات تتطلب عملاً حاسماً سريعاً يضع الأمر فى نصابه ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو لأخذ الآراء أو مناقشتها فى أمر خطير يتطلب عملاً عاجلاً سريعاً.

وفى غمار هذه الأحداث تولى زيد كتابة المصحف دون ابن مسعود مما أثار انفعاله.

أقول: كنت أميل إلى هذا الاتجاه، وأميل إلى أن ثورة ابن مسعود انفعالات صدرت لأنه كان يود أن يسهم فى هذا العمل الخطير الذى تتوحد به الأمة لولا أنى وقفت على نص آخر يثبت أن عمل عثمان جاء ثمرة لإجماع الصحابة، وأنه لم يتفرد برأيه فى هذا العمل الخطير.

وبيان ذلك ما رواه مصعب بن سعد قال: «لما كثر اختلاف الناس فى القرآن قالوا: قراءة ابن مسعود، وقراءة سالم مولى حذيفة، قال فجمع أصحاب محمد ﷺ عثمان بن عفان فقال: إنى رأيت أن أكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت ثم أبعث بها إلى الأمصار قالوا: نعم ما رأيت»(٢).

إذن فعثمان رضى الله عنه جمع أصحاب محمد عليه السلام واستشارهم فى هذا الأمر، فقالوا: نعم ما رأيت.

ومن هنا لا يصح فى رأيى أن يقف ابن مسعود بعد هذا الاجماع موقف المعارض.

أكبر الظن أنها رواية مدسوسة نسبت إليه وهو منها برىء وقد اسعفنى فى الاستدلال على براءة ابن مسعود من هذه التهمة ما رأيته بعد طول بحث فى كتاب المصاحف حيث وضع مؤلفه عنوانا جاء فيه: رضا عبدالله بن مسعود لجمع عثمان رضى الله عنه فى المصاحف وقد جاء تحت هذا العنوان ما نصه.

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن / ٢٠

(٢) المرجع السابق ص٤٤-٤٥.

«عن عثمان بن حسان العامرى عن الجعفى قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله بن مسعود فى المصاحف فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر فقال:إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف أوحروف»[1].

ومالى أذهب بعيداً وهذا على كرم الله وجهه الذى يحاول التاريخ ان يجعله خصما لبنى أمية يشيد بعمل عثمان ويبين: أنه ما فعل ذلك لهوى فى نفسه أو استبداد برأيه فيقول: «يامعشر الناس: اتقوا الله عز وجل وإياكم والغلو فى عثمان، وقولكم: حراق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن كلامنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم»[2].

القسم الثانى: وهو نشأة القراءات:

لنا أن نتساءل هل تعددت قراءات القرآن الكريم فى عهد الرسول عليه السلام؟

والإجابة عن هذا السؤال بنعم، فما بين أيدينا من قراءات هو موصول السند والرواية إلى قراءة النبى صلى يالله عليه وسلم.

أول نص يطالعنا فى ذلك هو نص البخارى الذى رواه عن عمر بن الخطاب «قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأ فيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ؟ قال: اقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد اقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: ارسله، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التى أقرأنى فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»[3].

وقد تواترت رواية هذا الحديث الشريف فى صحة سنده ففى المسند الكبير للحافظ أبى يعلى «أن عثمان رضى الله عنه قال يوماً وهو على المنبر اذكر أن رجلاً سمع النبى ﷺ قال:

---

(١) المصاحف لابن أبي داود/ ١٨.
(٢) مقدمتان في علوم القرآن/ ٤٦.
(٣) صحيح البخاري ٦/ ١٨٥.

أنزل القران على سبعة احرف: كلها شاف كاف لما قام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا ان الرسول ﷺ قال: انزل القرآن على سبعة احرف كلها شاف كاف. فقال عثمان وأنا أشهد معهم»[1].

وقد اختلف علماء العربية فى تفسير هذا الحديث الشريف اختلافاً كبيراً إلى حد أن روى له السيوطى فى كتابه: «الإتقان» أربعين وجهاً.

ومن علماء العربية الذين أدلوا بدلوهم فى مجال هذا الحديث ابن قتيبة ـ والطبرى ـ وأبو حاتم السجستانى ـ وابن أبى شامة والرازى، وقد سجّلنا أراء هؤلاء العلماء فى مقدمة معجم القراءات وفى كتابى: أثر القراءات القرآنية فى الدراسات النحوية ولنقتصر فقط من هذه الآراء على رأى الرازى.

يذهب الإمام أبو الفضل الرازى فى كتابه: «اللوائح» إلى أن الكلام لا يخريج عن سبعة أحرف فى الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث.

الثانى: اختلاف تصريف الأفعال من ماض، ومضارع، وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف اللغات.

ولا يفوتنا أن نذكر أن رأى الرازى هذا اختاره اثنان من المحدثين أحدهما: الشيخ الزرقانى فى كتابه: مناهل العرفان فى علوم القرآن حيث يقول: «والذى نختاره بنور الله وتوفيقه من بين تلك المذاهب والآراء هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازى فى اللوائح» وثانيهما: المرحوم الدكتور صبحى الصالح فإنه اختار رأى الرازى مع التعديل فيه، وهذا

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١/ ٢١.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني - مطبعة الحلبي ، طبعة ثالثة ص١٤٨.

التعديل يتمثل فى الاختلاف بالحروف نحو يعلمون، وتعلمون، ثم نقد اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وامر فى جعلها وجها خاصاً قائماً برأسه مع أنه يندرج تحت وجه الاختلاف فى الإعراب ذكر ذلك فى كتابه «مباحث فى علوم القرآن»(١).

رأيى:

وفى رأيى أنه لا داعى لهذه الاختلافات، فالحديث معناه واضح لا يحتاج إلى تأويل أو تخريج.

ذلك لأنّ الرسول ﷺ بين لنا فى هذا الحديث أن القرآن الكريم نزل بلهجات متعددة من لهجات العرب ليتيح للعرب جميعاً أن يتدبروا معانيه، ويكثروا من التلاوة فيه، فنزل بهذه اللهجات للتيسير والتسهيل وإن كان معظمه بلغة قريش.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختارون من القراءات التى سمعوها ما وافق لهجتهم، ومن هنا كانت القراءات مرجعها الرّواية والنقل عن رسول الله ﷺ، وليس لأحد أن يقرأ بلغته كما يشاء.

ولعل معترضاً يقول: كيف تقول ذلك وقد وردت فى القرآن الكريم قراءة ابن مسعود: «عتىّ حين» و«حتى حين» سورة يوسف آية ٣٥؟

وللإجابة عن هذا الاعتراض أقول: إنّ ابن مسعود لعله سمع من النبى ﷺ هذه القراءة فى هذه الآية فحسب بدليل أن هذه القراءة لم تكن فى غير سورة يوسف مع تكرر «حتّى» فى غيرها وهذا يدل دلالة واضحة على التقيد بالقراءة المسموعة فحسب ولو كان هناك إطلاق للقراءة على حسب ما يدعى بعض المحدثين لقرئت حتى: عتى فى كل آية توجد فيها هذه ناحية.

وناحية أخرى قد يحتملها الموقف وهى أن ابن مسعود غلب عليه لسانه الهذلى فقرأها كما قرأ من غير أن يسمعها فنبهه عمر إلى أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش لا بلغة هذيل، ومعنى ذلك أن عمر أراد أن يسد باب القراءة الواسع باللغات المختلفة من غير أن تكون هناك روايات تسند إلى النبى ﷺ فى ذلك.

فالقراءات إذاً ليس مصدرها هذه اللهجات المتعددة، وإنما مصدرها قراءة النبى ﷺ.

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص١٤٥، ١٤٦.

ومن أجل ذلك نحن ننكر رأى الدكتور طه حسين فى كتابه «الأدب الجاهلى» الذى ألفه فى صدر شبابه الفكرى ليخالف ما استقر عليه رجال الفكر والعلماء من قضايا شعرية، ومسلمات علمية.

أثار الدكتور طه حسين فى كتابه هذا مشكلة القراءات القرآنية ورأيه فيها كما يقول مانصه: «إن القراءات السبع ليست من الوحى فى قليل ولا كثير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً، ولا مغتمزاً فى دينه، وإنما هى قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها، وقد حاولوا فيها بالفعل وتماروا، وخطأ فيها بعضهم بعضاً. ولم نعلم أن أحداً من المسلمين كفر أحدا لشىء من هذا، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن»(١).

لست أدرى ما الذى حمل طه حسين أن يلقى هذا الكلام على عواهنه؟ إن كل كلمة فى هذا النص تحمل دليل زيفها، وحجة بطلانها، ولو فكر قليلا لما تجرأ أن يصدر هذا الحكم قبل أن يلم بجوانب هذه القضية.

وقد تكلم الباحثون قبله فى القراءات واختلفوا، وتباينت أراؤهم ولكن أحداً منهم لم يقل مثل هذا القول.

وثمة دليل آخر يؤيد ما ذهبت إليه من أن القراءات ليس مرجعها اللغات المختلفة للقبائل على الإطلاق من غير أن تقيد بالسند والرواية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اختلف مع هشام بن حكيم فى قراءة سورة الفرقان كما بينت، وكلاهما قرشى، فبم نفسر هذا؟ هل اختلفت قريش، وهى قبيلة واحدة فى قراءتها؟

أكبر الظن أن المقاييس اللغوية الحديثة لاتثبت أمام هذه الحقيقة حقيقة اختلاف القبيلة الواحدة فى نطقها بعض الكلمات وإنما مرجع ذلك إلى أن أحدهما سمع من النبى ﷺ قراءة بعض آيات من سورة الفرقان بلهجة ما وسمعها الثانى بلهجة أخرى، فاخذ كل منهما بالقراءة التى سمعها، وهذا لا يتنافى فى أنهما قرآ بغير لهجتهما، لأن القرآن الكريم لم تنزل كل كلمة فيه بلهجات متعددة، وإنما نزل بعض آياته ببعض اللهجات فحفظها الصحابة كما سمعت بغض النظر عن تلاقيها مع لهجتهم أو عدم تلاقيها.

وقد وضع الأمر فى نصابه ابن حجر فى هذه القضية فى كتابه «فتح البارى» فقد جاء

(١) في الأدب الجاهلي ص٩٥ -طبع دار المعارف بمصر.

ما نصه: «نقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: أنزل القرآن أولاً بلسان قريش، ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم على استعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته إلى لغة أخرى للمشقة.

قال ابن حجر معلقاً: وتتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى، أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى ﷺ»(١).

أما الناحية العددية فى الحديث فإنى أوافق استاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم انيس على أن المراد بالسبعة مجرد التعدد وليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة، وذلك لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد فى الأساليب العربية(٢). وقد قمت بإحصاء للفظ كلمة سبع أو سبعة فى القرآن الكريم، وفى كتب الصحاح فوجدتها تمثّلت فى القرآن الكريم فى ثمانية وعشرين موضعاً، كما قمت بإحصاء هذه الكلمة فى معجم ألفاظ الحديث النبوى فوجدتها ملأت أعمدة خمس صفحات من هذا المعجم.

القراءة والكتابة:

أما الإجابة عن السؤال حوْل رسم المصحف ما هو؟ فأقول: «عند أهل القراءات: قدرة موصولة بحركات القلم بين الأنامل وفقاً لمذاهب أو لقواعد»(٣).

ومن المعروف أن رسم الكلمات فى القرآن كان غاية ما وصل إليه فن الرسم الإملائى فى هذا العهد، وسجل القرآن الكريم بهذا الرسم وأطلق عليه الرسم العثمانى.

ومازال هذا الرسم سنة متبعة فى مصاحفنا لا تخضع للتعبير أو للتبديل.

ومن ثم قال السيوطى: قال أشهب:« سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى»(٤).

---

(١) فتح البارى لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى ج ٩ ص٢٢ - المطبعة البهيّة.
(٢) في اللهجات العربية / ٣٩.
(٣) مجلة المجمع العلمى العربي بدمشق ، المجلد ٢٢ ج ١ ص ١٠٦.
(٤) الإتقان ج ٢ ص ١٦٧.

والحقّ الذى يقال فى هـذا المجال: إن رسم المصحف الذى سار عليه عثمان أو بمعنى آخر سار عليه الكتبة فى المصحف العثمانى اصطلاحى يسير على قواعد الكتابة التى كانوا بها يكتبون.

ولما اتخذ المصحف هذا الرسم شعاراً له أصبح وقفاً عليه، وسنة متبعة لا تخالف، ولذلك حكمة، فإن رسوم الهجاء تتغير جرياً على سنة التطور، وتختلف فى تغيرها من زمن إلى زمن، بل من شعب إلى شعب فصيانة لكتاب الله من عبث العابثين، وإغلاقاً لباب التغيير فيه واحداث ما ليس منه أصبح هذا الرسم العثمانى مقدساً لا يمس ولذلك قال الإمام أحمد: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أوياء أو ألف أو غير ذلك»[1].

وقال البيهقى فى شعب الإيمان: «من كتب مصحفا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوا شيئاً فإنهم كانوا أكثر علما، وأصدق قلبا ولسانا وأعظم أمانة منا، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليم»[2].

ومشكلة الرسم الاملائى المستحدث الذى يخالف الرسم العثمانى فى كثير من المواضع لم يقف أمامها علماء الإسلام، مكتوفى الأيدى فقد ذللوا صعوبة الرسم العثمانى بل جعلوه علما يدرس وتؤلف فيه الكتب التى تبين مسالكه وتوضح طرقه.

ومن الكتب التى ألفت فى هذا الفن كتاب «المقنع فى رسوم الأمصار» لأبى عمرو الدّانى، و«عنوان الدليل فى مرسوم التنزيل» لابى العباس المراكشى والقصيدة الرائية الموسومة بالعقيلة للشيخ الشاطبى.

والحق الذى يقال: إن الرسم العثمانى لم يسر على قواعد مطرده فكثير من الكلمات القرآنية رسمت فى موضع برسم خاص، وفى موضع آخر برسم مخالف، وذلك مثل كلمة «لدا» فعن خلف: سمعت الكسائى يقول: «لدا الباب» كتب فى يوسف بألف، واتفقت المصاحف جميعاً على ذلك، واختلفت فى «لدى الحناجر» فى غافر فبعض المصاحف كتبت فيها بالياء وفى بعضها بالألف.

ومن صور الاختلاف: «عما» قال أبو عمرو الدانى:

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص٢٢٥.
(٢) المصدر السابق والصفحة.

كل ما فى كتاب الله عز وجل «عمّا» فهو بغير نون إلا حرفا واحداً فى الأعراف وهو قوله تعالى: «عن ما نهوا عنه» فإنه كتب بالنون.

على أية حال كانت إن الرسم العثمانى له نهجه الخاص، وطريقته المتفردة سواء كان خاضعاً لقواعد معينة أم خارجاً عنها فى بعض المواضع فهو سنة متّبعة، وبذلك وضع الأمر فى نصابه، فكل محاولة تجديد للخروج بهذا الرسم عن تقليده المعروف محاولة مردودة.

الرسم والقراءات القرآنية:

وإذا كان الرسم العثمانى لا يخالف، ولا يصح الخروج عن رسمه فهل هذا يعنى أن هذا الرسم تلزمنا القراءة به، وأنه صورة للكلمات القرآنية المنطوقة، وأنه بهذا الاعتبار يحدد طريقة القراءة أو الأداء كما يحدد طريقة الرسم أو الكتابة؟ ذلك سؤال وارد يتردد فى النفس وللإجابة عنه نقول:

الحق الذى لا مرية فيه أن الرسم غير القراءة لأن القراءة مصدرها الرواية، والرسم مصدره طريقة الكتابة المعروفة إذ ذاك، وبناء على هذا أننا نقرأ الآية وننطق بكلماتها كما رويت لاكما رسمت ولو سرنا فى طريق الرسم وحده لخرجنا بالقرآن عن حقيقته التى نزل بها وترتب على ذلك أننا نقرأ كلمات من القرآن الكريم بطريقة لم ترو عن النبى عليه السلام: كما لو قرأنا اتباعا للرسم: الصلاة والزكاة، والربا لقلنا الصلوة ـ الزكوة ـ الربو مثلاً.

ويطالعنا فى هذا المجال رأى أثاره المستشرق جولد زيهر فى كتابه: «مذاهب التفسير الإسلامى» الذى ترجمه الدكتور المرحوم عبدالحليم النجار يقول هذا المستشرق بصدد قراءات القرآن: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربى الذى يقدم هيكله الموسوم مقادير صوتية مختلفة تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط ـ إلى أن يقول: «وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات كانا هما السبب الأول فى نشأة حركة اختلاف القراءات فى نص لم يكن منقوطاً أصلاً أو لم تتحر الدقة فى نقطة أو تحريكه»[1].

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ص٨، ٩.

وفى رأيى أن رأى هذا المستشرق جانبه الصواب فى عرض هذه المغالطة التى تنجافى عن الواقع وعن التاريخ.

أما مجافاتها عن الواقع: فإنه لو كانت القراءات ترجع إلى ما ذهب إليه لراعتنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التى يحتملها الرسم والتى لم تثبت أو ترو عن النبى ﷺ.

ذلك لأن الرسم تحتمل الكلمة فيه وبخاصة إذا لم تكن منقوطة أو مجردة من الحركات وجوها عدة من القراءات والقراءات التى بين أيدينا والتى صنفها العلماء ودققوا فى عرضها وتثبتوا من سندها قراءات معروفة، ولها مقاييس مضبوطة وكلّها ترجع إلى الرواية والنقل لا إلى الكتابة والرسم.

وأما مجافاتها عن التاريخ، فإن عثمان رضى الله عنه جرد المصحف من النقط، ليحتمل رسم القراءات المروية، عن رسول الله ﷺ حتى لا يحدده فى قراءة بعينها أو حرف بعينه، وأصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا على صنيعة عثمان فى المصحف وبذلك كانت هذه القراءات المتعددة لا ترجع إلى الرسم وإنما مرجعها الأول والأخير إلى السند والرواية.

والذى يدل على بطلان ما ذهب إليه المستشرق أنه لو كان ما ذهب إليه صحيحاً لصحت قراءة حماد الراوية: «وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه» بالباء الموحدة.

وهذه قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الاربع عشرة ولو كان مجرد الخط كافيا لاعتمدت.

ولو صح ما ذهب إليه المستشرق لصحت القراءة التى نسبت إلى حمزة الزيات من أعدائه «ذلك الكتاب لازيت فيه» بدلا من لاريب فيه...

الرسم واللحن:

تطالعنا كتب الرواة والمؤرخين بروايات مؤداها ان الرسم العثمانى وقع فيه لحن أى خطأجعلت أعداء القرآن يتهمونه باللحن والخطأ.

من هذه الروايات مارواه أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن عن قوله: «إن هذان لساحران»[1] وعن قوله: «لكن الراسخون فى

(١) سورة طه آية ٦٣.

العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك نؤتيهم أجراً عظيماً»[1].

وعن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ المائدة/ ٦٩ فقالت: يا ابن أخى: هذا عمل الكتاب أخطئوا فى الكتاب.

ورواية أخرى عن عكرمة قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضى الله عنه فوجد فيها حروفا من اللحن، فقال: لا تغيروها فإن العرب ستعربها بالسنتها، لو كان الكاتب من هذيل، والمملى من ثقيف لم يوجد فيه هذه.

ورواية ثالثة: عن ابن الانبارى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ «والمقيمون الصلاة» ويقول: هو لحن من الكاتب[2].

هذه الروايات راعتنى وراعت السيوطى من قبلى، وهى روايات مشكلة عصيّة، حتى إنه يلمس من كلامه الإنكار عليها، ولا أدل على ذلك من قوله: «كيف يظن بالصحابة أنهم يلحنون فى الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد، وكيف يظن بهم ذلك ثانيا فى القرآن الذى تلقوه عن النبى ﷺ كما أنزل، وحفظوه وضبطوه، وأتقنوه، ثم كيف يظن بهم ثالثا، اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته.

ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه. ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروى بالتواتر خلفا عن سلف. ولم يكتف السيوطى بذلك بل أنكر هذه الروايات فى صراحة ووضوح حيث قال: وهذه الأمور مستحيلة عقلاً، وشرعاً وعادة»[3].

ويعرض صاحب مفتاح السعادة حلولاً عدة لهذه المشكلات ألخصها فيما يأتى:

أولاً: ضعف السند فى حديث عثمان من ناحية، وعدم التصديق منطقياً أن عثمان رضى الله عنه بترك للناس إماماً يقتدون به ثم يترك فيه لحناً لتقيمه العرب بألسنتها من ناحية أخرى.

---

(١) سورة النساء آية ١٦٢.

(٢) انظر هذه النصوص في : مفتاح السعادة ٢/ ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

ثانيا: قد يكون ما ذكره عثمان رضى الله عنه محمولاً على الرمز والإشارة ومواضع الحذف نحو: الكتاب بلا ألف والصبرين فى الصابرين بلا ألف.

ثالثا: قد يكون محمولاً على مخالفة رسم الخط لأن خط المصحف خالف رسم الخط فى كثير من المواضع.

وأجابوا عن حديث عائشة فقالوا: إنه ليس فى اسناده ضعف لأن إسناده صحيح غير أنهم قالوا: إن المراد بالخطأ الخطأ فى اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليهم.

وأجابوا عن حديث سعيد بن جبير أن المراد باللحن القراءة واللغة أى أنها لغة الذى كتبها وقراءته، وفيها قراءة أخرى.

رأى ومناقشة

وفى رأيى أن الحديث الذى روى عن عثمان رضى الله عنه والإجابة عن إشكاله فيه نظر، ذلك لأنا لو سلّمنا بصحة هذا الحديث لما كان هناك إشكال يستلزم هذه الإجابات المتعددة التى لا تقنع، وأيضاً لا تلزم فإن رسم المصحف فى نظرى لم يختلف عن رسم الخط المعهود فى زمنهم، لأنهم كانوا هكذا يكتبون.

وكذلك الإجابة التى تقول: إن الرسم القرآنى خالف رسم الخط فى كثير من المواضع إجابة لا تستند إلى دليل.

وكذلك الإجابة التى تقول: إن عثمان رضى الله عنه رأى فى المصحف شيئاً كتب على لسان غير لسان قريش كالتابوه والنابوت فوعد أنه سيقيم على لسان قريش فإنها لا تقوم على سند أيضاً. لأن القرآن الكريم احتوى على الكثير من لغات العرب غير اللغة القرشية.

وأما إضعاف سند هذا الحديث فإنه اشتهر عن عثمان فى أكثر من رواية مما يدل على أن أصله يكون صحيحاً.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نخرج من هذا الإشكال؟

فى رأيى أن الخروج من هذا الاشكال يقوم على أن عثمان رضى الله عنه حينما قال قوله السابق فإنما أراد أن يعرف الحقيقة التى قدمها سابقاً وهى أن القراءة غير الرسم وأن القراءة مرجعها الرواية والنقل، وأن الرسم قد يختلف مع القراءة فالعبرة حينئذ بالقراءة لا بالرسم.

ومن هنا اطلق عثمان عليها لحنا حينما رأى أن هذه الحروف تختلف عن القراءة، ولم

يهتم بها ثقة منه ان العرب حينما يقرءون لا يقرءون بالرسم وإنما يقرءون بالرواية والنقل ولا أدل على ذلك من قوله: «لو كان المملى من هذيل، والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا»(١).

ذلك لأن النفر الثلاثة الذين املوا القرآن على زيد بن ثابت قرشيون، والقراءات التى رويت عن النبى عليه السلام لم تكن وقفاً على لغة قريش ولهذا كانت هناك قراءات غير قرشية فإذا ما كتبت بلغة قريش أدى ذلك إلى مخالفة الرسم القراءة من أجل هذا ترك عثمان رضى الله عنه المصحف على رسمه تاركا العرب يقرءون بما رووا.

وفى حديث سعيد بن جبير تأكيد لما ذهبت إليه من أن المراد باللحن القراءة واللغة أى أنها لغة الذى كتبها وقراءته وفيها قراءة أخرى وبقى من هذه الروايات المشكلة حديث عائشة.

أقول فى حل إشكال حديثها: لعل عائشة رضى الله عنها لم تكتب مصحفها على العرضة الأخيرة، فلما رأت هذه الآية مختلفة عما فى مصحفها نسبت الخطأ إلى الكاتب.

ودليلى فى هذا ما ذكره ابن أبى داود قال: «أخبرنا هشام عن زيد عن أبى يونس مولى عائشة قال: كتبت لعائشة مصحفها فقالت: إذا مررت بآية الصلاة فلا تكتبها حتى أمليها عليك قال: فأملتها على: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وصلاة العصر ثم قالت سمعتها من رسول الله ﷺ»(٢).

ويدل على ذلك أيضاً ماروواه ابن أبى حميد قال: «أخبرتنى حميدة قالت: أوصت لنا عائشة رضى الله عنها بمتاعها فكان فى مصحفها: إن الله وملائكته يصلون على النبى والذين يصلون الصفوف الأولى»(٣).

المصحف العثمانى والقراءات.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل المصحف العثمانى أو المصاحف العثمانية التى أرسلت إلى الأمصار هل هى مشتملة على جميع الأحرف السبعة أى على القراءات الكثيرة المتعددة؟

وللإجابة عن هذا السؤال فإنّ جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين يقررون أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحملها رسمها من الأحرف السبعة فقط

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص٢٧٧.
(٢) المصاحف ٨٤.
(٣) المصدر نفسه والصفحة.

وهى جامعة للعرضة الأخيرة التى عرضها النبى عليه السلام على جبريل عليه السلام، متضمنة لها لم تترك حرفاً منها.

هل الأحرف السبعة هى القراءات السبع المنسوبة إلى سبعة قراء مشهورين؟ ليس الأمر كذلك فالقراء السبعة وهم: نافع ـ ابن كثير ـ أبو عمرو بن العلاء ـ عاصم بن أبى النجود ـ حمزة الزيات ـ الكسائى ـ ابن عامر؟.

اختار ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤هـ قراءتهم، واطلق على قراءاتهم: القراءات السبع، وألف فى ذلك كتابا سمى كتاب «السبعة فى القراءات»، وقد حققه استاذنا الدكتور شوقى ضيف، ومما نُنبِّه عليه أن لا علاقة مطلقاً بين القراءات السبع التى جمعها ابن مجاهد وبين الأحرف السبعة التى ذكرت فى الحديث الشريف، ولذلك قال ابن الجزرى: «لا يجوز أن يكون المراد من الأحرف السبعة هؤلاء السبعة القراء المشهورين وإن كان يظن بعض الناس لأن هؤلاء السبعة لم يكونوا خُلقوا ولا وجدوا»(١).

هذا وقد أضاف العلماء إلى القراء السبعة ثلاثة قراء آخرين هم ابو جعفر ـ يعقوب ـ خلف، فقد كان لكل واحد منهم قراءة خاصة، وقراءتهم هى القراءات الثلاث المكملة للعشر ـ وهذه القراءات الثلاث دار حولها الجدل هل هى متواترة كالقراءات السبع أو ليست متواترة وقد وصل العلماء فى مجالها إلى أنها قريبة من التواتر وان لم تكن متواترة، وقد ألف فى هذه القراءات العشر الإمام الجزرى كتاباً سماه: «النشر فى القراءات العشر» وهو مطبوع ميسر.

وهناك قراءات أربع زيدت على القراءات العشر، وهى: قراءة ابن محيصن ـ واليزيدى ـ والحسن البصرى ـ والأعمش. وقد ألف فى هذه القراءات الأربع عشرة الأمام الدمياطى كتابا سماه: «إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر».

وقد بين الدمياطى فى مقدمة كتابه السبب الذى حدا به لجمع قراءات هؤلاء القراء الأربعة الزائدين عن العشرة فيقول: وإنما نسبت القراءات اليهم لتصدِّيهم لضبط الحروف، وحفظ شيوخه فيهم، ومع كل واحد منهم فى طبقته ما يبلغها عدد التواتر، وما عدا هذه

(١) النشر ج ١ ص٢٤.

القراءات الأربع عشرة يعتبر شاذاً، والشذوذ جاء من جهة الانحراف عن أركان أو مقاييس القراءة الصحيحة وهى مقاييس قد وضعها العلماء فى وقت مبكر لخصها ابن الجزرى بقوله:

«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة ام عمن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف إلى الخلف»[1].

وبعد، فلعلى بهذا قد أكون استوعبت الخطوط العريضة التى رسمتها لهذا البحث، وأقول عريضة لأن هناك تحليلات لقضايا متعددة تبرز من داخل هذه الخطوط، وتلح على الباحث أن يتناولها ولكن مساحة البحث لا تسمح، ومن أراد المزيد من هذه القضايا ففى مقدمة معجم القراءات الكثير منها وفيه الإجابة عن معظم التساولات.

***

(١) النشر جـ ١ ص٩.

١٣. أثر القرآن الكريم فى تطور اللغة العربية (*) ونشرها بين المسلمين

اللغة العربية حوّلها القرآن الكريم إلى لغة فتية شابة ليس لها طفولة ولا شيخوخة لارتباطها به، فالماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة لها حلقة مفرغة، لايدرى أين طرفاها؟

والقرآن الكريم منهج وإصلاح، وأخلاق وقيم، ودستور وتشريع فهى لسانه فى كل هذه الميادين.

والمسلمون الذين امتزجت قلوبهم وعقولهم بالقرآن الكريم، كما يمتزج الماء بالعود الأخضر أمة واحدة، جنسيتها الإسلام، وقد عبّر عن هذا المعنى شاعرهم العربى القديم حينما قال:

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ونسيج الإسلام هو اللغة العربية التى بلغت جزالتها فى اللفظ، وفخامتها فى المعنى وقدرتها على التعبير ، وروعتها فى التصوير لأن تستقبل القرآن الكريم بجلال بيانه وروعة أساليبه، وسمو معانيه، وإشراق ألفاظه.

وواجهها القرآن الكريم بالتحدى، فسقط فى يدها، واستسلمت لهذه القوة البلاغية القرآنية، ووضعت نفسها فى حقل القرآن الكريم لتنبت بأذن ربها نباتًا حسنًا يؤتى أكله فى كل زمن، وفى كل عصر، وفى كل جيل بفضل القرآن الكريم الذى نمت تحت ظلاله، وأشرقت فى ضوء شمسه المشرقة.

إن القرآن الكريم منذ نزوله بلهجة قريش جعل هذه اللهجة تفرض سلطانها على جميع اللهجات العربية الأخرى، فقد توارت هذه اللهجات لتدين بالولاء والانقياد إلى اللغة الأدبية النموذجية المتمثلة فى لهجة قريش التى نزل بها معظم القرآن الكريم.

(*) بحث ألقى فى مؤتمر نشر اللغة العربية فى العالم الإسلامى بكراتشى - باكستان فى إبريل ١٩٨٨م.

وعمل القرآن الكريم على تهذيب اللغة العربية، وبهذا التهذيب تطورت اللغة العربية فى الأغراض والمعانى والألفاظ.

فمن ناحية التطور فى الأغراض فقد عولجت باللغة العربية أمور لم تكن تعنى بعلاجها من قبل، وذلك كمسائل القوانين، والتشريع، والقصص، والتاريخ، والعقائد الدينية، والإصلاح الاجتماعى.

ومن ناحية التطور فى المعانى، والأخيلة والأساليب، فقد استطاعت اللغة العربية أن توضح المعانى الدقيقة التى تحتاج إلى اللفظ المعبّر، والكلمة الدالة، وقد تشابكت صور الخيال، ودنت قطوف المعانى، وكثرت التشبيهات التى توضح ماخفى من التراكيب، وما غمض من الأساليب.

ومن ناحية التطور فى الألفاظ فقد تجردت بعض الألفاظ من معانيها القديمة وأصبحت تدل على معايير جديدة، تتعلق بالعبادات أو المعاملات أو التشريعات أو الشئون السياسية، والإدارة والحرب مثل :الصلاة - الصوم - الزكاة - الحج - الخليفة - الإمام - الوالى الكاتب - الشرطة - الوظيفة ...إلخ.

وللمحافظة على القرآن الكريم نشأت علوم قرآنية تطورت فى ضوئها اللغة تطورا كبيرا.

وأول هذه العلوم القرآنية التى نشأت فى وقت مبكر هو علم النحو العربى الذى كان السبب المباشر فى نشأته هو اللحن الوافد إلى اللغة العربية بسبب اختلاط المسلمين غير العرب بالمسلمين العرب. وقد تمت هذه النشأة على يد أبى الأسود الدؤلى الذى قام بعملين عظيمين فى مجال المحافظة على القرآن الكريم من ناحية، ووضع قوانين لتراكيب اللغة العربية من ناحية أخرى.

أما العمل الأول فيتمثل فى تنقيط المصحف تنقيط اعراب، لأن المصحف لم يكن مضبوطاً ضبطًا إعرابيا قبل أبى الأسود.

وأما العمل الثانى فهو وضع الجذور الأولى لنشأة النحو العربى، وقد تفرعت هذه الجذور وآتت أكلها على يد سيبويه المسلم الذى تنتمى جذوره إلى غير العرب،والذى أصبح بكتابه العملاق أستاذ المسلمين جميعاً فى علم النحو عربا أو غير عرب.

وأما العلوم الإسلامية الأخرى التى نشأت فى ظلال القرآن الكريم، كالأصول، والفقه ،

والقراءات والحديث، والجدل، والفلسفة فقد أشار إليها ابن خلدون فى مقدمته مبينًا أهداف كل علم، ومحللا الكثير من قضايا هذه العلوم.

ولم تقف علوم القرآن عند العلوم الدينية فقط، فهناك علوم تتعلق بالإنسان من حديث تكوينه وطبيعته، وصحته ومرضه، ومعاشه، ومن حيث الأرض التى يعيش عليها من جبال وأنهار، وبحار ومحيطات وحيوان ونبات، ومن حيث السماء التى يحيا تحتها من نجوم وكواكب وشموس وأقمار.

هذه العلوم المادية التى ازدهر الغرب على أساسها، وتقدم فى مضمار الحضارة بفضلها لم يقف القرآن الكريم عقبة أمامها، بل دعا إليها، وحث على السير فى طريقها، والعمل فى ميدانها.

والناظر إلى كتاب:«معترك القرآن فى إعجاز القرآن» للإمام جلال الدين السيوطى يرى أنه أشار إلى هذه العلوم المادية فى القرآن، بل وعدد الكثير منها فى ضوء الآيات القرآنية التى أتى بها ليستدلّ على ما يقول.

وفى عهد عمر رضى الله عنه دونت الدواوين، ولم يكن للعرب بها عهد ، وباختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم اقتبسوا كثيرا من علومهم وصنائعهم، ولم يجدوا غضاضة فى ذلك بل رأوا أن تعلم علوم العصر واجب لامفر من القيام به من أجل خدمة الإنسان، وتحقيق ما يسعى إليه من سعادة فى ظلال الإيمان.

والكلمة الفاصلة فى هذه القضية كلمة على - كرم الله وجهه - حيما قال:«العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدى المشركين».

وهذه الجذور الأولى فى شجرة العلم نمت وترعرعت، وأينعت وأثمرت وآتت أكلها حينما اتجه المسلمون لترجمة علوم غيرهم من الأمم ذات الحضارة والتقدم العلمى إلى اللغة العربية.

وبإيجاز نقول : إن المسلمين الذين ترجموا هذه العلوم إلى لغة القرآن الكريم جلسوا على قمم العلم، وذرى المعرفة فى مدة قصيرة كونوا فيها هذه الحضارة الإسلامية العظيمة التى انطلقت من مسيرة القرآن الكريم تُقدّم للإنسانية فى الشرق والغرب زادا لا ينفد من العلم النافع فى الدين والدنيا.

وقد لفتت هذه الحركة العلمية العظيمة رجال الفكر من غير المسلمين ليشيدوا بها، ويرفعوا من شأنها، ويعلوا من قدرها، لأنها حركة مليئة بالإعجاب والتقدير.

إن نظرة واحدة إلى هذه الحركة العلمية التى قام بها المسلمون على أساس قرآنهم الذى يدعو إلى العلم، ويحث عليه تؤكد مانهدف إليه من هذا البحث، وهو أن هذه الحركة أدت إلى أزدهار اللغة العربية من ناحية، وعملت على نشرها من ناحية أخرى ولا عجب فى ذلك، فإن الإنسان يفكر عن طريق لغته، فالفكر واللغة عنصران امتزج أحدهما بالآخر.

وحينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم والشعوب التى فتحوها احتكت اللغة العربية بلغات هذه الأمم، وأدى هذا الاحتكاك إلى صراع عنيف بين لغة الغالب، ولغة المغلوب.

وقد استطاعت اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم أن تنتصر فى صراعها، لأنها تملك باسم القرآن الكريم رصيدًا ضخمًا من الألفاظ وتراكيب محكمة من الأساليب، وصورا رائعة من البيان، وتعبيرات مشرفة من بلاغة المعانى.

«اشتبكت فى صراع لغوى مع اللغات الآرامية فى سوريا ولبنان، والعراق ومع القبطية فى مصر، ومع البربرية فى شمال أفريقيا ومع الفارسية فى إيران ومع التركية فى بلاد المغول، ومع القوطية فى أسبانيا.

وقضت قوانين الصراع اللغوى أن تصرع اللغة العربية اللغات الثلاث الأولى حتى أصبحت المساحة التى تستخدم فيها اللغة العربية لغة حديث وكتابة نحو أربعة عشر مليون كيلو متر مربع، وبلغ عدد المتكلمين بها زهاء مائة مليون» (١).

وبفضل هذا الاحتكام أو الصراع اللغوى تطورت اللغة العربية فى ظلال القران الكريم تطورا آخر فقد دخلت مفردات كثيرة إلى ساحة اللغة العربية عن طريق التعريب والوضع والاشتقاق والقياس، وهذا التطور ضرورة أدى إليها استيعاب الجديد من الأفكار، والمصطلحات العلمية، والعلوم المادية.

عوامل انتشار اللغة العربية فى العالم الإسلامى.

بعد هذا الحديث الموجز جدا عن تطور اللغة العربية فى ظلال القرآن الكريم يجمل بنا

(١) انظر فقه اللغة للدكتور على عبدالواحد وافى / ١٢٤/ ١٢٥٠.

أن نعطى إلمامة موجزة أخرى عن العوامل التى أدت إلى انتشار اللغة العربية فى العالم الإسلامى .

من هذه العوامل:

١ - وجوب تعلم اللغة العربية، فعلى كل مسلم أن يتعلم من القرآن ما تصح به الصلاة ومايعرف به أحكام الإسلام من حلال وحرام، ولن يتيسر ذلك عن طريق الترجمة، لأن القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربى مبين لايمكن أن تستوعب معانيه أية لغة أخرى من لغات العالم مهما كان مستواها اللغوى، إنها تعجز عن التعبير فى مجال المعانى الدقيقة، والتشبيهات الرائعة ، والتصورات البليغة والإشارات البارعة، وما يموج من خفايا المعانى فى بريق الألفاظ، وتناسق الكلمات وروابط الجمل.

وقد عبر عن عجز هذه اللغات لترجمة معانى القرآن ابن فارس حيث يقول: «ولو أراد معبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة، واليقين، والشك ، والظاهر والباطن، والحق والباطل، والمبين والمشكل، والاعتزاز والاستسلام لعىّ به، والله جل ثناؤه «أعلم حيث يجعل الفضل» (الصاحبى/ ١٩).

ويقول فى موضع آخر:

«وقد قال بعض علمائنا حين ذكر للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن فقال: «ولذلك لايقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شىء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة وسائر كتب الله عزوجل بالعربية لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع لغة العرب».

وفى مجال وجوب تعلم اللغة العربيّة على كل مسلم أشار إليه الإمام الشافعى فى رسالته حيث يقول:

«يجب تعلم العربية على كل مسلم حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو كتاب الله، ويتعلق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك».

ولقد أحس المسلمون بما للغة العربية من أثر كبير فى تصحيح عقيدتهم ، وفهم إسلامهم

واستيعاب أحكام دينهم فأقبلوا على تعلمها، فصار منهم العلماء الأفذاذ أمثال سيبويه الذى لحن فى مجلس استاذه حماد فى كلمة لغوية فى حديث شريف فكسّر قلمه وقال: لااكتب شيئا حتى أحكم العربية.

وأمثال الزمخشرى الذى ذكر فى مقدمة كتابه: «المفصل» مانصه:« الله أحمد أن جعلنى من علماء العربية، وجبلنى على الغضب للعرب والعصبيّة».

ومن أمثال البيرونى الذى يقول : «لأن أهجى بالعربية خير لى من أن أمدح بالفارسية».

٢ - ومن عوامل انتشار اللغة العربية : تعريب البلاد المفتوحة عن طريق التعليم، والدعوة والإرشاد فكان فى كل جيش فاتح فئة تنتظم فى سلكه من الدعاة والمعلمين المثقفين فى الدين ومن الأمثلة على ذلك جيش عمرو بن العاص فاتح مصر فقد ضم هذا الجيش فئة من كبار الصحابة أمثال عبدالله بن عمرو بن العاص الذى كانت له حلقة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاس ، وقد أفاد منه الطلاب المصريون حتى أحدثوا حركة فكرية دينية لغوية كان لها أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية.

ومما يؤيد ذلك أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز جعل الفتيا فى مصر إلى ثلاثة رجال: رجلان من الموالى العجم، ورجل من العرب، فأما العربى فجعفر بن ربيعة، وأما المولیان فيزيد بن حبيب، وعبدالله بن أبى جعفر، وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك، فقال عمر بن عبدالعزيز قولته المشهورة:

«ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لاتسمون»؟

٣ - ومن العوامل هجرة بعض القبائل إلى الأقاليم الإسلامية المفتوحة ، و لا أدل على ذلك من هجرة بنى هلال إلى المغرب، ومع أن العرب فتحو ا المغرب فى وقت مبكر إلا أن العرب كما يقول ابن خلدون:«لم يكن المغرب لهم فى الأيام السابقة وطن، وإنما انتقل إليه فى أواسط المائة الخامسة أفاريق من بنى هلال وسليم،واختلطوا بالدول هناك».

وفى فارس هاجرت بعض القبائل العربية إلى الدول الفارسية من :«عبد القبس كانت تقيم فى منطقة ساحل عمان عن طريق الخليج، واستقرت بعض هذه القبائل على الساحل، وتوغل بعضها فى الداخل، وظلوا هناك عدة قرون حتى العصر المغولى».

٤ - التعريب عن طريق التجارة:

إن التاجر العربى المسلم كانت التجارة بالنسبة له هدفا ثانويا أما هدفه الأكبر فهونشر الإسلام، وتثبيت العقيدة، وفى انتشار الإسلام انتشار للغة العربية وذلك لأن العقيدة الشاملة كما يقول العقاد: «تجعل المسلم وحدة كاملة فى نشر العقيدة الإسلامية، فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الأفريقية على يد تاجر فرد أوصاحب طريقة منفرد فى خلوته، لايعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسيم كهانة، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولاسطوة الفتح والغلبة، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها الجيوش الإسلامية هم الآن أربعون أوخمسون مليونا بين الهلال والخضيب، وشواطىء البحرين الأبيض والأحمر.

«فأما الذين اسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين».

٥ - والإسلام لم يقف انتشاره عند القارتين الأفريقية والأسيوية، بل تعّدى ذلك إلى انتشاره فى أوروبا، وبانتشاره انتشرت اللغة العربية معه.

ففى عهد عبدالرحمن الناصر كانت أكثر القواعد البحرية فى أسبانيا على طول الساحل الشرقى بين طرطوشة، وبلنسية، وكانت لشبونة هى قاعدة الأسطول الأندلسىّ على المحيط الأطلسى .

وفى عهد عبدالرحمن الغافقىّ دخلت الجيوش الإسلامية إلى فرنسا، وتوغلت حتى وصلت«بواتييه» فالتقت بجيش «شارل مارتل» فى معركة مشهورة فى التاريخ هى معركة «بلاط الشهداء».

وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة ولذلك يقول المؤرخ المشهور جيبون (Gibbon) : «لو انتصر العرب فى بواتييه «لتلى القرآن وفسّر فى أكسفورد» «وكمبردج».

ومع هزيمة العرب فى هذه المعركة فإن اللغة العربية أثرت فى اللغة الفرنسية تأثيرا كبيرا فكما يقول المؤرخ محمد كرد على فى كتابه: الإسلام والحضارة العربية مانصه: «فى ذك العهد انتقلت إلى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية، والكسور العشرية، وجاءت

التعابير النادرة إلى اللغة الفرنسية من اللغة العربيّة أكثر من اللاتينية» إلى أن يقول : «أخذ الفرنجة نحو تسعمائة كلمة من العربية وأدخلوها فى معاجمهم واستعمالهم».

هذه مجمل العوامل فى انتشار اللغة العربية فى العالم الإسلامى فى قرونه الأولى.

أمّا اللغة العربية فى عالمنا المعاصر فنجمل الحديث عنها فيما يلى:

اللغة العربية فى العالم الإسلامى المعاصر:

بلى العالم فى عصرنا الحاضر بالاستعمار سواء كان غربياً أو شرقياً استطاع الاستعمار بشراسته أن يمزّق جسم العالم الإسلامى من الناحية السياسية إلى أجزاء متفرقة.

ومن الناحية الفكرية أشاع فيها روح الهزيمة العقلية، وقضى على روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية ليتيح للمبشرين أن يعبثوا بقيم الأمة الإسلامية ، وقد تمثل ذلك فى الأمور التالية:

١ - تشجيع الإلحاد باسم حرية الفكر وباسم التطور والتجديد.

٢ - تشجيع الحكومات الإسلامية التى تخضع لسلطان المستعمر لإرسال بعثات إلى أوروبا وروسيا لينهلوا من موارد الغرب والشرق، ثم يعودوا إلى بلادهم، وقد انسلخوامن جلودهم ليحملوا معاول هدم التراث، لأنه فى نظرهم سبب التخلف.

٣- مهاجمة الإسلام فى قضاياه الفكرية والدينية ومحاولة تشويهه باسم النظريات الفلسفية والمذاهب الرأسمالية والشيوعية، والاشتراكية.

٤ - إثارة العصبية الجاهلية بين الشعوب الإسلامية ليحارب بعضهم بعضا باسم القومية وعلى أساس الجنسية، ومن منطلق العصبيّة.

٥ - فتح مدارس متعددة للتبشير فى أنحاء العالم الإسلامى.

٦ - محاربة اللغة العربية، واتخذت هذه المحاربة ألوانًا متعدّدة، فالحديث بها تخلف والكتابة بها تأخر، وأنها ليست لغة علم، ومجالها وصف الناقة والفرس، وأن العلوم الحديثة بينها وبين اللغة العربينة حواجز، وأن اللّهجات المحلّية هى اللهجات التى يجب أن تسود، لأنها لغة الحياة، وليست لغة حداء الأبل والوقوف على الأطلال كما هو الحال فى اللغة الفصحى.

ومازالت حتى هذه اللحظة المعركة على أشدّها بين لغة القران، واللغات المحلية والأجنبية فى العالم الإسلامى. وما هذا المؤتمر إلا ثمرة من ثمار هذا الصراع الذى جعل من أهم أهدافه انتصار لغة القرآن الكريم على كل اللغات المنتشرة فى بلاد الإسلام.

على أية حال كانت، فإن لغة القرآن الكريم إزاء هذه الحملات الضارية لم تستلم ولم ترفع راية الاستسلام ، وخرجت من هذه المعارك عزيزة الجانب، قوية السلطان، ولذلك أسباب نجملها فيما يلى:.

١- تزييف دعاوى المغرضين الداعية إلى هدم اللغة الفصحى:

وذلك لأن حملة الأقلام المتعصبة للإسلام جردوا أقلامهم للدفاع عن لغة القرآن الكريم، وعلى رأس هؤلاء عبدالله النديم الذى كتب فى مجلة: «التنكيت والتبكيت» حوارا ساخنا بين ابن البلد، وعربى متفرنج فى العدد الأول من هذه المجلة ، وتتالت مقالاته ليحرس بناء اللغة العربية من هذا الهجوم الشرس، ومما ورد فى مقال من مقالاته: «أسمعك تقول : إذا فقدت لغتى استعضت عنها بأخرى، استَعْضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطنية، والمعتقدات الدينية فتيبت وأنت وطنى حر، وتصبح وأنت فى يد أجنبى، يصرفك كيف يشاء، لأن إضاعة اللغة تسليم للذات».

وشارك النديم رجال وقفوا أنفسهم على الدفاع عن لغة الضاد، أمثال مصطفى صادق الرافعى، وعبد الرحمن البرقوقى، وعبد الوهاب عزام، ومنصور فهمى، وأحمد أمين، وطه حسين.

٢- وضع أسس مرسومة ومخططة للإصلاح اللغوى: ومن هذه الأسس:

أ- التزام الوضوح واليسر فى استخدام ألفاظها، والتقريب بينها وبين مدارك الناس ومألوف تعبيرهم.

ب- العمل على تنمية قاموسها، وتحسين طرائق تعليمها، وربطها بحياة العصر الحديث وحضارته.

ج- إنشاء المجامع اللغوية فى مصر والعراق والشام والأردن للنهوض باللغة العربية وتعريب المصطلحات العلمية، ووضع المعاجم الحديثة لها.

وبهذا أصبحت اللغة العربية حيّة فتية على الرغم مما يعترض طريقها من أشواك وصخور.

وقبل أن أنهى هذه الكلمة الموجزة أحب أن أضع النقاط الآتية فى طريق نشر اللغة العربية بين البلاد الإسلامية غير العربية:

أولاً: إيفاد هيئات تدريسية لتدريس اللغة فى البلاد الإسلامية من أبناء البلاد العربية أو أبناء البلاد الإسلامية الذين استوعبوا اللغة العربية كأبنائها على أن ترصد ميزانيات ضخمة من البلاد العربية الغنية لهذه الهيئات، وعلى أن تكون هناك أسس منهجية مدروسة ومخططة من المختصين فى هذا المجال من أجل نشر اللغة العربية.

ومما يدعو إلى الأسف والحزن أن الأتراك الذين حكموا العالم الإسلامى طوال ستة قرون لم يتأثروا بلغة العرب، لأن العرب لم يبذلوا جهدًا فى نشرها، إن الإسلام دخل البلقان، ولم تدخله اللغة ، وإن جنوب آسيا وشرقها كذلك، والأمل كبير فى عصر التكتلات أن يتكتل العالم الإسلامى العربى وغير العربى تحت راية واحدة وهى راية القرآن. ولغة واحدة هى لغة القرآن.

ثانيًا: جعل اللغة العربية فى البلاد الإسلامية غير العربية لغة ثانية، فاللغة الإنجليزية ليست أكثر مستوى، وأعظم حضارة من اللغة العربية، ومع ذلك فاللغة الإنجليزية أصبحت اللغة السائدة فى جميع البلاد الإسلامية حديثًا وكتابة، علمًا وثقافة.

ثالثًا: ترجمة العلوم الحديثة إلى اللغة العربية وتدريسها بالعربية.

ولا شك أن التعامل باللغة العربية، فى مجال الحديث و «التقدم التكنولوجى» يغرس فى نفوس المتعلمين حبهم للعربية، ويملأ نفوسهم ثقة بأن لغة القرآن الكريم ليست عاجزة لاستقبال هذا التقدم العلمى، بمصطلحاته وفنونه.

رابعًا: استغلال وسائل الإذاعة والتليفزيون فى نشر اللغة العربية بواسطة برامج مخصصة لتعلمها عن طريق العرض الحسن والتبسيط الجميل، ومن خلال نماذج النصوص القرآنية، والأحاديث الشريفة، والنصوص الأدبية «التى تهدف إلى غرس القيم الإسلامية» والفضائل الدينية.

خامسًا: وضع دروس مُبرجمة على أشرطة تسجيلية، ونشر هذه الأشرطة بوسائل مختلفة بين صفوف المسلمين من أجل أن يتقنوا لغة القرآن الكريم التى يتعاملون بها فى صلواتهم وأدعيتهم.

سادسًا: إيفاد مجموعات من الطلاب من أنحاء الوطن الإسلامى إلى البلاد العربية لتعلم اللغة العربية فى المعاهد المتخصصة ليعود هؤلاء الطلاب إلى بلادهم لينشروا بدورهم اللغة العربية.

سابعًا: تأليف كتب تعليمية تحتوى على دروس متدرجة لدراسة اللغة العربية، وفهمها والتعبير بها حديثًا وكتابة.

ثامنًا: الإكثار من انتشار المساجد لتقوم بدورها فى نشر الثقافة الإسلامية، لأن المسجد فى الإسلام دار عبادة، ودار علم ، ودار تعليم.

تاسعًا: وضع منهج تعليمى بالمواصفات التالية:

أ- التجربة هى العماد الأول لعملية تعليم اللغة العربية بمعنى أن يكون هناك منهج مرسوم قائم على التجربة.

ب- تبسيط قواعد اللغة العربية:

ومن التبسيط ألا تدرس قواعد اللغة العربية فى الكتب التراثية القديمة لأنها مملوءة بالعلل والمنطق والفلسفة، وهذه الكتب فقط للمتوغلين فى التخصص اللغوى، وإنما تدرس فى ظلال التيسير ، والتجريد من العلل والفلسفة.

ج- الاهتمام بالتدريبات اللغوية، وإعطاءالقدر الكافى من الرعاية، ولا قيمة لحفظ القاعدة ما لم تستعمل.

د- التعاون بين فروع اللغة العربية، فليست هناك حواجز بين فروع اللغة العربية المختلفة، لأن كل الفروع تدور حول محور واحد هو تعليم اللغة العربية.

هـ- عدم السماح للهجات المحلية، واللغات الأجنبية أن تتدخل فى تدريس تعليم اللغة العربية.

و- إتاحة الفرص أمام الطلاب فى جـمعيات ثقافية مختلفة ليعبـروا عن أفكارهم أو يطرحوا قضاياهم فى لغة فصيحة سليمة.

ز- الجمعيـات التى تشرف علـى نشر اللغة العـربية فى الأوطان الإسلامـية عليها أن تـتعامل باللغة العربية فى كل مكاتباتها، ورسائلـها، ونشراتها، لأنه بهذا التعامل يرسخ فى نفوس المتعلمين حُبّ اللغة العربية. وهذه المكاتبات تـعتبر وسيلة من وسائل نشر اللغة العربية. وهو هدف من أهم أهداف هذه الجمعيات، وبعد.

فهذه مقتـرحات بدت لى أثناءكتابتى هـذا البحث، وهى وجهة نظر تمثـلت لى من خلال دراستى لقواعد اللغة العربية وتدريسها فى المراحل التعليمية المختلفة.

على أية حـال كانت، فإن اللغة الـعربية ارتبطت بالـقرآن الكريم، وهذا الارتبـاط أتاح لها فرصًا طيبة فى أن تنمو وتتطور، وتشق طريقها إلى المستقبل، وهى ثابتة الخطا، رابطة الجأش.

تصدّت لها عواصف اللغة العامية ، ولهجـات السوقة، ومحاربة المستعمرين ودعاة الهدم باسم التطور والتجديد، وخرجت من هذه المعارك فى طريقها الطويل منتصرة عزيزة.

وأختم بحـثى هذا بقصة لطـيفة خيالية كـتبها «جول فرن» أشاد فـيها بلغة القـرآن الكريم ذلك لأنه بنى قصته الخيالية على سيّاح يخـترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها.

ولما أرادوا العـودة إلى ظاهر الأرض بـدا لهم أن يتركـوا هنالك أثرًا يـدل على رحلـتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربـية. ولما سئل «جون فرن» عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرتفع القرآن نفسه».

***

١٤. حول نسبة كتاب الحجة فى القراءات السبع(*) لابن خالويه - نقد النقد.

تفضل الأستاذ الكريم محمد العابد الفاسى، الأستاذ بجامعة القرويين بالمغرب بنشر بحث قيّم فى مجلة «اللسان العربى»، المجلد الثامن، الجزء الأول ص ٥٢١، ينقد فيه توثيقى لكتاب الحجّة، ونسبته إلى ابن خالويه، وقد نشر بحثى فى المجلة نفسها، والجزء نفسه ص٥٠٢.

وقد أسعدنى هذا النّقد، لأن الحقيقة بنت البحث كما يقولون. وقد اقتصر نقدُه على الفصل الذى كتبته، وأثبتُّ فيه نسبة الكتاب إلى ابن خالويه.

وإنى لا أضيق ذرعاً بالنّقد البناء، فاحتكاك الأفكار بعضها ببعض ينمّى العلم، ويطوّر المعرفة، ويبعث فى الفكر الحركة والحياة.

وكنت أودّ أن أبارك هذه الأدلة التى أوردها النّاقد الفاضل لنفى نسبة الحجة إلى ابن خالويه، وأضع يدى فى يده مسلّماً له بكلّ ما قال، ولكن الحقيقة التى دفعته إلى أن يكتب هذا النقد هى الحقيقة نفسها التى دفعتنى إلى أن أنقد هذه النقد، لأنه قائم على أدلة لم تقتنع بها نفسى، وأنا طالب معرفة، فإذا اقتنعت آمنت وسلّمت، وإذا لم أقتنع لا ألوذ بالصمت أو بالصّبر فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

عَلَىَّ إذن أن أبيِّن السبب فى عدم اقتناعى من غير أن أسمح للحظوظ النفسية أن تتدخّل فى هذه المناقشة، لأن الحقيقة العلمية أكبر منّى، ومِنْ أخى الأستاذ العابد.

وقبل مناقشة أدلة سيادته أحب أن أشير هنا إلى أن بعض المعاصرين الذين شكّوا فى نسبة هذا الكتاب إلى ابن خالويه فريق من أصدقائى ناقشونى مشافهة فى هذه النسبة، وكل أدلتهم تنحصر فى أن كتب الطبقات لم تشر إلى ذلك، ولم يقدّم لنا هؤلاء الزملاء دراسة مفصلة

(*) نشر فى مجلة ـ اللسان العربى ـ المجلد التاسع ـ الجزء الأول ص/ ٣٤٥ ـ تصدر عن مكتب التنسيق والتعريب فى الوطن العربى ـ الرِّباط ـ جامعة الدولة العربية.

منشورة فى نفى هذه النسبة، وليست هناك دراسة لابـن خالويه، ولكتابه الحجة تضمّها المكتبة العربية فى الشرق أو فى الغرب غير الدّراسة التى قـمت بها، وغير هذا التعليق الذى تفضل به الأخ الأستاذ العابد على هذه الدراسة.

وأمّا الأدلة التى ذكرها الأستاذ العابد ليناقض بها أدلتى، فإنى أنقدها على الوجه التالى:

(١) ذكرتُ أنّ تـلمذة ابـن خالويه لابـن مُجاهـد فَرضت عـليه أنْ يحـيا فى الـدراسات القرآنية، ويتمكـن منها، ويلم بالقراءات، ويدافع عنها، وأنه ألّف الحـجة فى القراءات السّبع لينافـس به كتاب الحجة الذى ألّـفه أبو علىّ الفـارسىّ، وأنّ عدَمَ ذِكْر الحجة لابن خـالويه فى كتب الطبقات يرجع إلى أنّ الكتاب فى القراءات، فاستغنوا بذكرها عن كلمة الحجة.

ولكن هذا الدّليل لم يقنع الأستاذ العابـد «لأن كونه من تلامذة ابن مجاهد وكونه برع فى الدراسات القرآنية، وألّف فيها كتباً لا يكفى ذلك دليلاً على إثبات نسبة كتاب الحجّة له، وأمّا كونه ليس بـدعا أن يؤلف فى الموضوع كما فعـل معا صروه أبو علىّ وغيره فصـحيح، ولكن المسألة مسألة إثبات لا مسألة احتمال وتخمين..».

أقول:

إن تلمذة ابن خالويـه لابن مجاهد، وبراعة ابن خالويه فى الدّراسات الـقرآنية حيث ألف كتباً فـى هذاالمجال نصّت علـيها كتب الطـبقات ككتاب: إعـراب ثلاثين سورة، والبـديع فى القراءات، ومـختصر شـواذّ القراءات، وكتاب مُـجَدْوَل فى القراءات ألـفه لعضـد الدولة، أقول: إن هذا كله يشير إلى أن كتاب الحجة موضع القضية نسبتة إلى ابن خالويه صحيحة.

وقد قلت فى بحثى المـنشور فى مجلة «اللسان العربى» بصدد عدم ذكـر هذه التّسمية فى كتب الطبقات: إن شهـرة كتاب الحجة للفارسىّ غطّت على شهرة الحـجة لابن خالويه حيث اشتغل الناس به قراءة وتلـخيصاً كما فعل أبو محمّد مكّى بن أبى طالـب فى كتابه: المنتخب فى اختصار كتاب الحجة للفارسى وغيره.

ومن الجَلـى أن أصحاب كتـب الطّبقـات، وابن خالويـه نفسه أشـاروا إلى أن له كتـاباً فى القـراءات، فأين ذهـب هذا الكـتاب؟ لا يمـكن أن يـكون كتـاب القراءات المـصور بمعـهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٥٢ قراءات، لأن منهج ابن خالويه فيه يقوم على الاستطراد

والإطناب، إذ يتحدث عن تفسير الآيات، وأسباب نزولها، ويحشد قصصاً متعددة فى مناسبات مختلفة، وليست القراءات فيها. والاحتجاج بها إلا جزءاً يسيراً من هذا المنهج، فكتابه فى حقيقة أمره كتاب تفسير لا قراءات، شأنه شأن كتب التفسيرالتى تتعرض لهذه الأغراض جميعاً، وقد نسخ هذا الكتاب المصور سنة ٦٠٠هـ بخطوط مختلفة آخرها خط صديق بن عرين محمد بن الحسين [١].

على أننا نجد كتاب الحجّة موضوع الحديث نسخ بخط واحد سنة ٤٩٦هـ وهو موقوف على القراءات وحدها، والاحتجاج لها.

إن الذى يطمئن إليه القلب، ويرتضيه العقل أن كتاب القراءات المنسوب إلى ابن خالويه فى كتب الطّبقات هو كتاب الحجة نفسه، لأنه لا يعقل أن يكرر ابن خالويه ما كتبه أستاذه ابن مجاهد فى القراءات، لأن ابن مجاهد كل عمله فى القراءات أنه انتخب من القراءات الكثيرة هذه القراءات السّبع، وليس فيه الاحتجاج النّحوى أو اللّغوى لهذه القراءات، على حين يطالعنا كتاب الحجة لابن خالويه بالتوجيه لكل قراءة ، والاحتجاج لها فى مجال النحو واللغة وكذلك فعل أبو على الفارسى فى حجته، اعتمد على هذه القراءات السّبع التى جمعها أستاذه ابن مجاهد، واحتج لها فى ميدان النحو واللغة.

يقول الفارسى فى مقدّمته: «فإن هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم فى كتاب أبى بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد» [٢]، فأبو على الفارسىّ كما يبدو فى مقدمته، لم يرد أن يكون كتابه نسخة مكررة من كتاب أستاذه ابن مجاهد، بل كان عمله التوجيه والاحتجاج. إذا كان الأمر كذلك فهل يُعْقل فى باب المنطق أنْ يأتى معاصر لأبى على كانت بينهما منافسات علمية خطيرة أشرت إليها فى بحثى المنشور فى مجلة «اللسان العربى» ـ ليؤلف فى القراءات وتكون مهمته تكرار كتاب أستاذه؟

إن العصر الذى ضمّ هؤلاء الأعلام كان عصر احتجاج للقراءات التى ثبتت عن ابن مجاهد، ولم يكن الأمر مقصوراً على أبى علىّ الفارسىّ فقد شاركه فى ذلك محمد بن الحسن الأنصارى المتوفى ٣٥١ حيث ألف كتاب السّبعة بعِللِها الكبير، وكتاب السّبعة

---

(١) فهرس مخطوطات الجامعة العربية ١٢، وفهرس المخطوطات، الجزء الأول: ١س/ ٢٧٦.

(٢) مقدمة الحجة لأبى على الفارسى ١ ـ دار الكتاب العربى.

الأوسط، وكتاب السّبعة الأصغر [1] وألّف كذلك أبو محمد الحسن بن مقسم المتوفى ٣٦٢هـ كتاب السّبعة بعللها: الكبير، والأوسط، والأصغر [2].

أيصح أن يقال إذن: إن ابن خالويه اللّغوى الكبير كان عاجزاً عن متابعة هذه الحركة القرآنية فى عصره، وهو من خيرة أعلامه، ومن أشهر تلاميذ ابن مجاهد؟.

الواقع أنّ العقل لا يسلّم بذلك، فإن الظروف المحيطة بهذا اللون من الدراسات تلحّ على ابن خالويه أن يؤلف فى القراءات، ويوجّهها، ويحتجّ لها كما فعل معاصروه. وأكبر الظّنّ أن الكتاب عنوانه الحجة فى القراءات السّبع فعند النسخ سقطت كلمة الحجة، وهو أمر يحدث كثيراً على يد النساخ، أو اختصر عنوانه فأصبح: القراءات، واختصار العناوين ليس بدعاً فى مؤلفاتنا. وقد أشار إلى ذلك محققو كتاب الحجة للفارسى حيث ذكروا أن كتاب الحجة يرد «فى الكتب التى تذكره بأسماء مختلفة منها: الحجّة، والحجّة فى علل القراءات السبع، والحجّة فى شرح القراءات السبع [3].

ألا يدلّ ذلك على أن أبا علىّ لم يضع هذه الأسماء المتعدّدة لكتابه، وإنما وضع اسماً واحداً فقط، فجاء الرّواة، أو النّاسخون، فغيّروا وبدّلوا مما جعل اسم هذا الكتاب يتخذ صوراً متعدده.

على أن ابن خالويه كان فى مقدمته صريحاً، فقد ذكر أن الكتاب فى الاحتجاج وقد قلت: إن أنسب تسمية لهذا الكتاب هى الحجة، فكلمة الحجة تطالعك فى كل سطر من سطور هذا الكتاب.

(٢) ذكرت أن كتب الطّبقات ليست حُجّةً قاطعة نرجع إليها فى نفى نسبة الكتاب إلى ابن خالويه حيث لم تشر إليه، ذلك لأن هذه الكتب نفسها أغفلت ذكر كتب لابن خالويه، منها: كتاب أسماء الله الحسنى الذى أشار إليه ابن خالويه نفسه فى كتابه: إعرَاب ثلاثين سورة حيث قال: «وقد صنفتها فى كتاب مفرد، واشتقاق كلّ اسم منها ومعناه [4].

(١) الفهرست لابن النديم ـ٣٢ ـ٣٣.
(٢) المرجع نفسه والصفحة..
(٣) انظر مقدمة الحجة للفارسى ـ ٤.
(٤) إعراب ثلاثين سورة ـ ١٤.

وقد علق الأستاذ الناقد على هذا القول بقوله: «هذا كلام من نمط سابقه فإن كتابه الحجة جدير بأن يذكر فى أول قائمة كتب ابن خالويه لو صحت النسبة وحيث لم يذكر فى كتب الطبقات، ولا ذكر فى باقى كتب ابن خالويه، فهذا دليل على عدم صحة نسبته إليه، لأن كتب الطبقات لم تذكره، ولأن ابن خالويه لم يشر إليه فى تضاعيف كتبه».

أقول لأخى الناقد:

لا أحب أن أكرّر ما قلت فى شأن كتب الطبقات فليس أصحابها معصومين من النسيان، وليست هذه الكتب بمأمن من الخطأ، ولا أدل على ذلك من هذا التراث الضخم الذى حوته فهارس مكتباتنا فى الشرق والغرب، ولا تجد للكثير منه ذكراً فى كتب الطبقات المعروفة.

ألم أقل فى بحثى لإنتاج ابن خالويه العلمىّ: إننى استطعت أن أنسب إلى ابن خالويه كتباً لم تضمها كتب الطبقات؟ وعددت من هذه الكتب عشرة كتب أذكر منها: كتاب الريح، وكتاب أسماء الله الحسنى، وكتاب الهاذور، وشرح ديوانى أبى فراس الحمدانى.. أتسقط هذه الكتب لأنها لا توجد فى البغية، أو فى إنباه الرواة، أو فى معجم الأدباء.. إلخ؟ لو فعلنا ذلك لأجهزنا على تراثنا بأيدينا من حيث لا نشعر.

ولا أسلم أيضًا للناقد الفاضل بأن ابن خالويه لم يشر إليه فى تضاعيف كتبه، لأن ابن خالويه قد أشار إليه، فى كتابه «إعراب ثلاثين سورة» عند تعرضه للقراءات فى قوله تعالى: ﴿أنعمْتَ عليْهِمْ﴾ قال: «أجمع العلماء على كسر الهاء فى التثنية إذا قلت: عليهما، قال الله عز: ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾[1] إلا يعقوب الحضرمى فإنه ضم الهاء فى التثنية كما ضمّها فى الجمع، وقد ذكرت علة ذلك فى كتاب «القراءات»[2] وهذا التعليل تجده فى الحجة[3]، وأما عدم ذكره باسم الحجة فقد بينت السرّ فى ذلك، وأن هذه التسمية جاءت متأخرة عن عصر ابن خالويه.

إن ابن خالويه حينما يقول: ذكرت علة ذلك فى كتاب «القراءات» أليست هذه إشارة واضحة إلى أن المعنى بذلك هو كتاب الحجة؟ وما مدلول قوله: «علة ذلك»؟ أليست العلة

(١) المائدة (٣٣).

(٢) إعراب ثلاثين سورة - ٣٢.

(٣) الحجة فى القراءات السبع: تحقيق: عبد العال سالم مكرم - ص ٦٣ ـ طبع دار الشروق - بيروت.

هى التوجيه النحوى أو اللغوى؟ وما التوجيه النحوى أو اللغوى إلا الاحتجاج، وما الاحتجاج إلا ذكر الحجة، والحجّة تتكرر فى كل قراءة يعرضها.

إنّ الذى يعنينى يا سيدى أوّلاً وأخيراً هو المضمون لا الشكل، والجوهر لا العرض، والمعنى لا اللفظ، وهذا كله يشير إلى أن كتاب القراءات الذى أشار إليه ابن خالويه هو فى الاحتجاج ، وبذلك لا نسلم للناقد الفاضل قوله: إنه لم يشر إليه فى تضاعيف كتبه.

(٣) وحينما ذكرت أنّ التّسمية بالحجة قد تكون من عمل المتأخرين، وحتى كتاب الحجة الفارسى لم يقدمه أبو علىّ لعضد الدولة باسم الحجة.

يقول الأستاذ العابد معلّقًا: «إننا نؤكّد أن النسخ العتيقة التى توجد من كتاب الحجة لأبى علىّ الفارسىّ مكتوب بظهر أول ورقة من أجزائه بخط عريق فى القدم من نسخة كان يتملكها الحافظ الحجة أبو الحسن علىّ بن محمد الشارى ما صورته: الجزء السابع من كتاب الحجة لقراء الأمصار... إلخ. فمن أين الجزم بأن أبا على الفارسى لم يسم كتابه بالحجة؟

أقول:

أخى، إن الذى دفعنى إلى هذا القول هو أن عنوان الكتاب على الغلاف ليس هو الفيصل فى القضية كما فهمت سيادتك.. فقد درج المؤلفون أن يذكروا فى مقدمة كتبهم أسماء هذه الكتب أو موضوعاتها، ويقوم الناسخون بوضع هذه التسمية على الغلاف إن كانت مذكورة فى المقدمة، أو وضع اسم ينطبق على موضوع الكتاب إن لم يكن اسمه مذكوراً بنصه، على أن الغالب فى مؤلفات القدامى أنهم يذكرون موضوعات كتبهم فى مقدماتهم، ولا يشيرون إلى أسمائها، فعل ذلك أبو علىّ الفارسىّ حينما ذكر فى مقدمة كتابه الحجة ما نصه: فإن هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبت قراءاتهم فى كتاب أبى بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد[١] ولم يشر إلى هذه التسمية وإنما فهمت التسمية من موضوع الكتاب، ولذلك اختلف الرواة فيها كما بينت آنفًا.

وفعل ذلك ابن خالويه حينما ذكر فى مقدّمته ما نصه: «وأنا بعون الله ذاكر فى كتابى هذا ما احتج به أهل صناعة النحو لهم فى معانى اختلافهم»[٢] فكلمة «احتج» تجدها فى مقدمة ابن خالويه على حين تفتقدها فى مقدمة الفارسى.

---

(١)مقدمة الحجة للفارسى - ٣

(٢) الحجة لابن خالويه - ٦٢ طبع دار الشروق - بيروت.

وفعل ذلك أيضًا الفارسى فى كتابه: «الإغفال» حيث يقول فى مقدّمته بصدَد المسائل التى أغفلها الزجاج ما نصه: «ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإيضاح للإغفال الواقع فيها» وكتب على غلاف النسخة المخطوطة «الإغفال لأبى علىّ الفارسىّ»[1].

وكذلك فعل أبو محمد مكّى بن أبى طالب الأندلسى فى مقدمة كتابه «تفسير مشكل إعراب القرآن» حيث يقول: «فقصدت فى هذا الكتاب إلى تفسير مشكل الإعراب، وذكر علله، وصعبه، ونادره، ليكون خفيف المحمل»[2] ... إلخ، ولم يشر إلى أن هذا الكتاب اسمه: «تفسير مشكل إعراب القرآن» وإنما ذكر الموضوع، ولا يخفى على الرّاوية أو الناسخ لبّ هذا الموضوع، فاستنتج الاسم منه ونسب إليه.

ولا أبالغ إذا قلت: إن كتاب سيبويه أشهر كتاب انتشر فى الآفاق لم يسمه سيبويه بهذا الاسم، وإنما جاءت التسمية من الرواة أو الدارسين أو الناسخين، يقول أستاذنا المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون فى مقدمته القيمة لتحقيق كتاب سيبويه ما نصه: «وقد عرف كتاب سيبويه من قديم الدهر إلى يومنا هذا باسم الكتاب أو كتاب سيبويه، ومن المقطوع تاريخيًا أن سيبويه لم يسمّه باسم معين»[3].

وفى العصور المتأخرة نجد المؤلفين ينصون على تسمية كتبهم فى مقدماتها وبذلك يكون عنوات الغلاف وفق عنوان اسم الكتاب المشار إليه فى المقدمة فهذا ابن هشام فى مقدمة كتابه المغنى يشير إلى اسم كتابه فيقول: «سميته بمغنى اللبيب عن كتب الأعاريب». والسيوطى فى مقدمة كتابه الهمع يقول: «فتخيرت لهم هذه العجالة الكاملة بحل مبانيه، وتوضيح معانيه إلى أن يقول: مسماة بهمع الهوامع فى شرح جمع الجوامع».

ولعل فى هذا الدليل الشافى فى أنّ عنوان الكتاب قد لا يكون فى بعض الأحيان من وضع المؤلف، أو من تسمية المؤلف.

(٤) وقد ذكرت أنّ من الأدلة على أنّ الحجة لابن خالويه دليل التنافس العلمى فى هذا العصر، ولكن هذا الدليل لم يرق فى نظر الناقد فكتب يقول: «وأنا لا أدرى ما وقع هذا الدليل. والتنافس العلمى ولو بلغ ما بلغ لا ينتج مثل هذا الفرض المشكوك فيه من أصله،

---

(١) الإغفال لأبى على الفارسى مخطوط رقم ٦٤٩ تفسير - دار الكتب المصرية.

(٢) مشكل إعراب القرآن مخطوط رقم ٢٣٢، تفسير - دار الكتب.

(٣) مقدمة المحقق ١-٢٣- طبع دار القلم.

وقدوقع التنافس فى كثير من الفنون فى عصره، ولم يؤلف ابن خالويه فى جميع تلك العلوم المتنافس فيها»؟

أقول:

لعل الناقد الفاضل يذكر أن أهمَّ ما كان يشغل ذهن ابن خالويه هوالعلوم القرآنية، وإذا نافس فإنه ينافس فى مجالها، أما ما عدا ذلك من ألوان المعرفة كالطب والفلك، والمنطق والفلسفة، والحساب والهندسة، فهذه علوم لا تدخل فى حساب المنافسة.

وقد أشرت إلى منافسته للفارسىّ وابن جنىّ، وغيرهما كما سبق بيانه فى مجال الدراسات القرآنية.

(٥) وقد قلت:

إنّ من أوضح أدلّة التوثيق لهذا الكتاب، ونسبته لابن خالويه تشابه أسلوبه ومنهجه مع مؤلفات ابن خالويه الأخرى، وهذا التشابه محصور فى الإيجاز والاختصار، وموضوعات أخرى ذكرتها فى بحثى، واستدللت عليها بنصوص لا تقبل الجدل، ولا تحتمل الشك.

ولكن الأخ الناقد لم يعجبه هذا التدليل فقال: «إن الأسلوب والمنهج الذى كان سائدًا فى عصر ابن خالويه لم يكن خاصًا به بل كان عامًا لدى الشخصيات التى تتلمذت لابن مجاهد، وأبو علىّ الفارسى فى كتابه لم يكن يتبع غير طريقة الإيجاز ولو نسبيًا».

أقول:

لقد جعلنى الناقد الفاضل أشك فى أنه قرأ أو اطلع على كتاب الحجة للفارسى الذى طبع منه الجزء الأول بتحقيق أستاذنا النجدى وزميليه، وقد أشار سيادته فى نقده إلى هذا الجزء المطبوع.

من قال: إن أبا علىّ الفارسى فى كتابه الحجة كان طابعه الإيجاز ولو نسبيًا؟ إن هذا قول لا تطمئن إليه النفس وإليك الدليل:

إن الجزء الأول المطبوع من حجّة الفارسى يحتوى على ٣٣١ صفحة من القطع الكبير، ابتداء بفاتحة الكتاب، وانتهاء بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية ٢٠ من سورة البقرة.

أى أنّ هذا الجزء الضخم كلـه توجيه لقراءات الفاتحة، ولعشرين آية مـن سورة البقرة، فهل هذا إيجاز يا سيدى؟

إن الأساتذة المحققين أحسوا أن نشر كتاب الحجـة للفارسى قد يصل إلى أربعين جزءًا على غرار الجزء الأول مما يتطلّب وقتًا طويلاً، وعمرًا مديدًا، ومنذ ثلاث سنوات لم ير النور من كتـاب الحجة للـفارسى غيـر هذا الجزء الأول، مما دفـعنى دفعًـا قويًا إلى إخـراج كتاب الحجـة لابن خالـويه، لأنه يقـدم للقـارئ خلاصة مـوجزة للاحـتجاج النـحوى واللـغوى للقراءات السبع فى أسلوب ممتع، وفى عرض يشرق على القارئ بهاؤه، ويستولى على نفسه جماله، وقد جعل الاختصار رائده ليحقق الهدف الأكبر من تأليفه، وهو انتفاع الناس به، أو كما يقول فى مقدمته:

«قاصد قصد الإبانة فى اقتصار من غير إطالة ولاإكثار، جامع ذلك بلفظ بين جزل، ومقال واضح سهل، ليقرب على مريده، وليسهل على مستفيده»[١].

ومن حسن الحظ أن كتاب الحجة لابن خالويه أصدرته ونشرته دار الشروق ببيروت فى أوائل أغسطس سنة١٩٧١[٢]، وهو الآن يشق طريقه إلى عقول القراء ، لأنّه الكتاب الوحيد فى المكتبة العربية الآن الذى يمكن للقارئ الرجوع إليه عند توجيه قراءة فى مجال النحو واللغة من القراءات السبع.

وإلى أخى الفاضل الأستاذ انعابد أقدم دليلاً ملموسًا من كلام ابن جنّى تلميذ الفارسى حول هذا الكتاب، ورأى ابن جنى الذى امتص ثقافة أستاذه الفارسى فى هذا المجال رأىٌ لا يتسرّب إليه الشك أو الضعف لأنه شهادة على النفس، ولأن ابن جنىّ من الفارسى بمثابة الروح من الجسد. يقول ابن جنى فى المحتسب: «فإن أبا على رحمه الله عمل كتاب الحجة فى القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء، إلى ما يجفو عنه كثير من العلماء»[٣].

ويقول فى موضع آخر : «وقد كان شيخنا أبو علىّ عمل كتاب الحجة فى قراءة السبعة فأغمضه وأطاله حتى منع كثيرًا ممن يدّعى العربيّة فضلاً عن القراء، وأجفاهم عنه[٤].

---

(١) مقدمة ابن خالويه- ٦٢.

(٢) طبع بعد ذلك أربع طبعات فى دار الشروق بمصر وطبعة خامسة فى مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

(٣)انظر: مقدمة المحتسب لابن جنى - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٤) مقدمة المحتسب المرجع السابق.

ألا يدل هذا على أنّ أبا على الفارسى لم يكن رائده الإيجاز والاختصار كما يقول الناقد. بل كان رائده التطويل الممل، والاستطراد المخلّ، والأسلوب المعقد كما أشار إلى ذلك تلميذه ابن جنى.

وليقتنع الناقد الفاضل بما أقول فإليه هذا المثال من كتاب حجة الفارسى:

قال أبو على فى قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . «اختلفوا فى إثبات الألف وإسقاطها من قوله : ﴿ملك يوم الدين﴾ ثم يبين قراءة عاصم، وقراءة غيره وبعد ذلك ينقل عن أبى بكر محمد بن السرّى نصًا يستدلّ فيه على أن «ملك» يَجمع (مالكًا) أى مَلَكَ ذلك اليوم بما فيه، ومالِك إنما يكون للشىء وحده.

ولا يكتفى بهذا، بل ينقل حكاية عن عاصم الجحدرى، وبعد ذلك ينقل رواية ثعلب يحتجّ فيها لقراءة الكسائى «ملك الناس» ويستطرد إلى قول أبى عبيد فى تفسير معنى ﴿ملك يوم الدين﴾ ويبين أن المالك والملك يجمعهما معنى واحد ويرجعان إلى أصل وهو الرّبط والشدة، ويستدل على ذلك بالشعر العربىّ، ويستطرد مرة أخرى إلى تفسير معنى الإملاك، وهو ربط الرجل بالمرأة، ويعود من حيث بدأ إلى قراءة «ملك» ، وقراءة «مالك» وسرعان ما يترك توجيه القراءة إلى موضوع آخر ليس منها فيقول: قال أبو الحسن الأخفش يقال: ملك بيِّن المُلك: الميم مضمومة، وتقول: مالك بين المَلك والمِلك بفتح الميم وكسرها.

ولا يكتفى بهذا بل ينقل عن أبى عثمان فيقول: وقال أبو عثمان: شهدنا أملاك فلان وملكه، ولا يقال: ملاكه، وينتقل إلى الحديث عن إملاك المرأة وهو العقد عليها، وقد ذكره فيما قبل، ثم عاد إليه.

ومن غير وحدة أو ترابط يرجع بعد ذلك إلى قراءة «ملك» أو «مالك» فإذا فرغ من هذا اتّجه إلى الحديث عن إضافة مالك إلى يوم الدين والإضافة باب من أبواب النحو، أخذ أبو على يشقق الحديث عنها إلى منتصف ص٣٦، أى أن الحديث عن مالك يوم الدين تناول ٣٦ صفحة من القطع الكبير. فهل هذا إيجاز أو اختصار؟

انظر إلى ما كتبه ابن خالويه فى «مالك يوم الدين» قال ما نصه: «يقرأ بإثبات الألف

وطرحها، فالحجة لمن أثبتها أن الملك داخل تحت المالك، والدليل له قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾[1]، والحجة لمن طرحها أن الملك أخص من المالك وأمدح، لأنه قد يكون المالك غير ملك ، ولا يكون الملك إلا مالكًا[2].

وقد بلغت صفحات حجة ابن خالويه بعد طبعه ٣١٨ صفحة من القطع الكبير خلاف المقدمة والفهارس مع أنه تناول توجيه القراءات السبع فى القرآن الكريم كله مبتدئًا بفاتحة الكتاب، ومنتهيًا بسورة الناس.

(٦) ومن أدلّتى فى أن كتاب الحجة تصح نسبته إلى ابن خالويه: أن الأعلام الذين سجلهم ابن خالويه فى كتابه كانوا أسبق منه زمنًا مما يدل على أن الكتاب لم يؤلف بعد عصر ابن خالويه، ولكن هذا الدليل من الأدلة الواهية فى نظر الناقدالفاضل حيث يقول: «هذا من الاستدلالات الواهية، ومتى كان النقل عن أعلام سابقين فى الزمان دليلاً على تثبيت نسبة الكتاب لشخص معيّن».

أحبّ أن أذكّر الأستاذ النّاقدبما ذكره أستاذنا المحقق عبد السلام هارون حيث قال ما نصه فى كتابه المبتكر «تحقيق النصوص ونشرها»: «وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس فى تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها، فالكتاب الذى تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذى نسب إليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف. ومن أمثلة ذلك كتاب نسب إلى الجاحظ وعنوانه «كتاب تنبيه الملوك والمكايد» ومنه صورة مودعة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٤٥ (أدب) وهذا الكتاب زيف لا ريب فى ذلك، فإنك تجد من أبوابه باب «نكت من مكايد كافور الأخشيدى» و«مكيدة توزون بالمتقى لله»، وكافور الأخشيدى كان يحيا بين سنتى ٢٩٢، ٣٥٧، والمتقى لله كان يحيا بين سنتى ٢٩٧و٣٥٧، فهذا كله تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات من السنين[3].

ومن الأمثلة على ذلك أيضًا ما ذكرته فى كتابى «القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية» أن كتاب إعراب القرآن للزجاج المخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٨ تفسير

---

(١) آل عمران -٢٦.

(٢) الحجة لابن خالويه - ٦٢.

(٣) تحقيق النصوص ونشرها- ٤٣ طبعة ثانية (الحلبى).

ليس للزجاج بأدلة ذكرتها، منها: ورود عبارة فى هذا الكتاب وقفت عندها طويلاً وهى قوله فى باب التقديم والتأخير: «وقد تصالح الأستاذ والغلام على أن الظرف يعمل فيه الوهم ورائحة الفعل» . وذهبت أبحث عن: من الأستاذ؟ ومن الغلام؟ لأنه إذا تمَّ التعرف عليهما أو على أحد منهما، وتبين أنهما عاشا فى عصر متأخر عن عصر الزجاج أمكن أن يكون ذلك دليلاً على أن كتاب إعراب القرآن هذا ليس للزجاج.

أقول: بعد بحث طويل وجدت فى تاريخ الأدب العربى «لبروكلمان» ما نصه:

«وكان أوفى تلاميذ ثعلب له، وأقربهم إليه أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرز الورّاق البارودى، ومن ثم سمى غلام ثعلب، وتوفى غلام ثعلب ببغداد سنة ٣٤٥ه»[١] . على أن الزجاج المنسوب إليه هذا الكتاب توفى عام ٣١١ ه[٢] ولعلّ فى هذا القدر الكافى لإقناع الأخ الناقد.

(٧) وأما الدليل السابع من أدلة النقد، فإنه ينصبّ على قولى: «ومن الأدلة تقارب بعض النصوص فى مؤلفات ابن خالويه الأخرى مع بعض نصوص الحجة، وقلت: إننى لا أبالغ فى أن هناك نصوصًا بأساليبها وكلماتها فى هذه المؤلفات هى بعينها فى كتاب الحجة».

ولكن الناقد لمْ يقتنع بهذا أيضًا فيقول: «إن هذه المشابهة أوالمقارنة بين النصوص لا تفيد شيئًا فى الواقع، ومجرّد إلقاءالباحث نظرة فى كتاب الحجّة لأبى علىّ الفارسىّ المعترف به من الجميع مع مراجعة ما قاله النحويون، والقراء والمفسرون والمعاصرون، للفارسى ولابن خالويه يجد أنَّ جميع تلك النصوص متشابهة ومتقاربة فى المعنى حتى وفى اللفظ فى بعض الأحيان، ومع ذلك التشابه، والتقارب لا يمكن أن نستدلّ بذلك على إثبات نسبة كتاب معيّن لشخص معيّن بمجرّد التشابه والتقارب».

أقول:

كنت أودّ من الزّميل الفاضل أن يذكر لى، ولو نصًا واحدًا من هذا التشابه والتقارب المعنوىّ أواللفظى كما ذكر.

(١) تاريخ الأدب العربىّ لبروكلمان -٢١٨، والقرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية - ٢٧٥.
(٢) البغية ١ -٤١٣.

يا سيدى.. لقد علمتنا كتب التراث أمانة النقل فإذا رجع مفسّر من المفسرين أو النحويين أو القراء إلى حجة أبى علىّ مثلاً، فإنه لا ينقل نصوصًا متقاربة المعنى أو متشابهة اللفظ إلا بعد أن يذكر قوله: (وقال الفارسىّ فى الحجة) أما أن يعتدى على المعانى، ويكسوها ألفاظًا من عنده فهذه سرقة لا تليق بعالم يعتدّ بقوله . ومن وقع فيها شهّر به، وسخر منه، والروايات على ذلك متعدّدة. والمعانى يا سيدى ليست مطروحة على الطريق، وإنما هى نتيجة كدّ الذهن، وإعمال الفكر، وبذل الطاقة ، والاطّلاع الواسع والإلهام المبدع. كيف تتقارب المعانى، ولكل مفسر منهجه وطريقته ولكل كتاب من كتب القراءات فى الاحتجاج وغيره أسلوبها الخاصّ، وطريقتها الخاصة؟ نعم إن النقول قد تعدّدت فى كتب التراث ، ولكنها نقول لها مصادر معروفة، وأشخاص معروفون صدرت عنهم، ونقلت منهم، ولا يصحّ التصرف فيها بالتغيير أو التبديل. وما عدا ذلك ففردية فى الطّريقة، وفى المنهج وفى الأسلوب، وإلا كان تكرارًا أو سطوًا وكلاهما لا يليق بأولى العلم والمعرفة، هذا فى مجال المعانى فما بالك فى مجال تشابه اللّفظ. أظنّ أنّ توافق الخواطر قد يحدث فى جملة أوكلمة أمّا أن يحدث فى نص تتعدّد سطوره فذلك أمرٌ لا يقبله المنطق. وقد ذكرت يا سيدى تشابه أسلوب ابن خالويه فى كتاب الحجة بأساليبه فى كتبه الأخرى، لأن المؤلف واحد، والعقل واحد، والأسلوب واحد، وطريقة التفكير واحدة. وقد بيّنت أنّ فى الحجة من كتاب «إعراب ثلاثين سورة» نصوصًا بألفاظها ومعانيها، وأن فى الحجة من كتاب «الريح» نصوصًا بألفاظها ومعانيها، وقد سجلت ذلك فى بحثى المنشور فى مجلة اللسان العربى» نفس العدد الذى ذكر فيه نقد الأستاذ الفاضل . ألا يكفى هذا دليلاً واضحًا على أنّ الحجة لابن خالويه لا لغيره.

(٨) والناقد الفاضل لم يعترف بقدَم النسخ، «لأن الناسخ مجهول أمره، ولأن الخط ليس من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس الهجرى، يعرف هذا بالبداهة مَنْ له خبرة بالخطوط ، وتطوّراتها، والمقابلة المذكورة لا تفيد أى شىء، ولأن كاتبها مجهول».

أقول:

إن هذا الدليل لا نسلّم للسيد الفاضل بصحته، لأن كثيرًا من الكتب المخطوطة لم تظفر بذكر اسم ناسخها، وجهل الناسخ لا يقلل من قيمتها، لأن الدراسة التى تقوم حولها،

وتحليل مناهجها وطريقة تأليفها، والتمرس بأسلوب مؤلفها، والخبرة بالعصر الذى نسخت فيه كل ذلك يزيل الغموض عنها، كما فعلت ذلك فى دراستى لكتاب الحجة.

على أن كتاب الحجة للفارسى لم تظفر ا لنسخة الأصل التى اعتمد عليها المحققون باسم الناسخ ، فهل جهل الناسخ ينفى أنّ كتاب الحجة للفارسى. أليس من التناقض أن أثبت أن كتاب الحجة منسوب للفارسى مع جهل الناسخ، وأنفى نسبة كتاب الحجة لابن خالويه لأن الناسخ مجهول؟

أما جهل ناسخ الحجة للفارسى فإليك الدليل:

قال المحققون: «اعتمدنا فى تحقيق كتاب الحجة على نسختين، كتبت أولاهما سنة ٣٩٠هـ بخط النسخ الواضح، وضبطت كلماتها بالشكل ضبطًا كاملاً وهى فى مكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٣٥٧٠ع، وفى دار الكتب المصرية صورة منها برقم ٤٦٢ قراءات. وفى خزانة مجمع اللغة العربية مصورة منها كذلك، وقد جعل المحققون هذه النسخة هى الأصل لأنها الأقدم فى النسخ، ولم يشيروا إلى اسم الناسخ لأنه غير موجود».

من هذا ، يتبيَّن أنّ ظاهرة كتابة اسم الناسخ قد تتخلف فى كثير من الكتب المخطوطة وليس الجهل بالناسخ ينقص من قدر المخطوط، ويقلل من قيمته، وإلا لما اعترفنا بكتاب الحجّة للفارسىّ، وهو لا يتطرّق إليه الشك.

مع أنّ هذه النسخة كما يقول المحققون كتبت بخطوط مختلفة فقد ذكروا ما نصه:

«ويلاحظ أن خطّ الصفحتين الأولى والثانية مخالف لخط سائر الصفحات فى كلٍّ من الجزء الأول ، والثانى، والسابع، وخط الصفحات الأولى والثانية والأخيرة مخالف لخط سائر صفحات الجزء الثالث، وخط الصفحتين الأوليين والصفحتين الأخيرتين مخالف لخط سائر صفحات الجزء الرابع، وخط الصفحة الأخيرة مخالف لخط سائر صفحات الجزء السادس»[1].

وكتاب الحجة لابن خالويه كتب بخط واحد، لم يتخلف فى صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب.

---

(١) مقدمة الحجة للمحققين-٣٣.

وأحب أن أطمئن الأخ الفاضل بأنّ هذا الخط الذى كتبت به نسخة الحجة من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس، وقد رجعت إلى أستاذنا المحقق عبد السلام هارون، وعرضت عليه صفحات مصورة من هذه النسخة، فأقر بما لا يدع مجالاً للشك أنها من خطوط القرن الخامس الهجرى. وكذلك أقر هذا الزميل المحقق الأستاذ عبد الستار فراج رئيس قسم التراث بوزارة الثقافة بالكويت.

ومما يجدر ذكره أن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف رغب فى أن يقوم طالب من طلاب الدراسات العليا لتحقيق نسخة الحجة لابن خالويه للحصول على الدكتوراه تحت إشرافه وفعلاً بدأ الطّالب يستعد لتسجيل هذا الموضوع فى كلية الآداب - جامعة القاهرة، ولما علم الدكتور الفاضل أنى قمت بتحقيقه، وفرغت منه، عدل عنه، اكتفاء بتحقيقى.

ولا أنسى أن أذكر للناقد أن خبراء الخطوط بدار الكتب المصرية عرضوا هذا الكتاب فى معرض الخطوط العربية القديمة على أنه واحدٌ من الكتب التى تبيِّن معالم الخطوط فى القرن الخامس الهجرى.

ولعلّى بهذا أكون قد بينت للناقد الفاضل وجهة نظرى فى أدلته مؤيدة بالدليل، بعيدة عن هوى النفس، أو عن داء التعصّب للرأى.

بقيت ملحوظات أخرى عامة، أحب أن أوجه نظر الناقد الفاضل إليها:

(١) تناقض الناقد مع نفسه: فعنوان تعقيبه حمل العبارة التالية:

(نسبة الحجة إلى ابن خالويه لا تصح) ثم ذكر بعد ذلك فى السطور الأخيرة من تعقيبه أنه (لا يمكن أن ننفيه عنه نفيًا قاطعًا).

ومن حقّى أن أسأل الناقد: هل يجوز فى مجال البحث العلمى أن تنفى ثم تنفى هذا النفى ولو بدرجة ما؟ لأن نفى النفى إثبات، كان الأجدر أن يكون عنوان نقدك: «نسبة الحجة إلى ابن خالويه فيها نظر» أو ليست مؤكدة، أو يتطرق إليها الشك، أما أن تنفى هذه النسبة بلا النافية، ثم تعود بعد ذلك لتنفى ما نفيت، هذا أمر لا يتلاءم مع منهج البحث.

(٢) أثبت الناقد فى السطور الأخيرة من نقده: «أن الذى تميل إليه النفس هو أن كتاب

الحجة هذا هو أحد المختصرات التى اختصر بها كتاب الحجة الأصلى لأبى على الفارسى لعالم مجهول».

أقول:

إن الناقد الفاضل نقد نفسه بهذا القول، ألم يقل بعد ذلك بسطور «والذى يجعلنا نميل إلى نفى هذه النسبة هو أن جميع المصادر التى ترجمت لابن خالويه لم تذكر فى قائمة كتبه تأليفه الحجة. ولم يعوّل أصحاب المعاجم والفهارس وطبقات القراء عليه» هذا القول ذاته موجه إليك يا سيدى، فإذا كان حجّة ابن خالويه مختصرًا لحجة الفارسى فلم لم تشر إليه المعاجم والفهارس وطبقات القراء مع شدة اعتناء العلماء بحجة الفارسى، فقد ذكروا أن مكّى ابن أبى طالب المتوفى ٤٣٧ه اختصره فى كتاب سماه: منتخب الحجّة فى القراءات، واختصره أيضًا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الأندلسى المتوفى ٤٥٥ ه، ومحمد بن شريح الرعينى المتوفى ٤٧٦ ه[1].

ولم يشر أحد إلى أن عالمًا مجهولاً لخّص حجة الفارسىّ، وبذلك يكون الناقد وقع فيما نقد به غيره.

والحقيقة أن حجة ابن خالويه تبعد كل البعد أن تكون تلخيصًا أو اختصارًا لحجة الفارسى، وذلك لأمرين:

أ- إن مقدمة حجة ابن خالويه تختلف فى منهجها عن مقدّمة الحجة للفارسى، فابن خالويه يقول فى مقدمته: «وبعد، فإنى قد تدّبرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة المعروفين بصحة النقل، وإتقان الحفظ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ، فرأيت كُلاً منهم قد ذهب فى إعراب ما انفرد به من حرفه مذهبًا من مذاهب العربية، لا يدفع. وقصد من القياس وجهًا لا يمنع، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية، إلى أن يقول: وأنا بعون الله ذاكر فى كتابى هذا ما احتجّ به أهل صناعة النحو لهم فى معانى اختلافهم، وتارك ذكر اجتماعهم وائتلافهم إلى أن يقول: وقاصد قصد الإبانة فى اقتصار من غير إطالة ولا إكثار، إلى أن يقول: جامعًا ذلك بلفظ بين جزْل، ومقال واضح سهل ليقرب على مريده، وليسهل على مستفيده»[2].

(١) البغية: ٢٩٧- ١٩٥، وكشف الظنون ٢- ٢٤٤.

(٢) الحجة ٦١ - ٦٢.

والفارسى يقول فى مقدمته: «فإن هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم فى كتاب أبى بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المترجم بمعرفة قراءات أهل الأمصار والحجاز، والعراق، والشام بعد أن نقدم ذكر كل حرف من ذلك على حسب ما رواه، وأخذناه عنه، وقد كان أبو بكر محمد بن السرّى شرع فى تفسير صدر من ذلك فى كتاب كان ابتدأ بإملائه، وارتفع منه تبييض ما فى سورة البقرة من وجوه الاختلاف عنهم، وأنا أسند إليه ما فسر فى كتابى هذا، وإلى الله أرغب فى تيسير ما قصدته»[1]. و بمقارنة المقدمتين نتبين فى وضوح وجلاء أن المنهجين مختلفان، ولا يليق بعالم مختصر أن يتطاول هذا التطاول، ويكتب هذه المقدمة بهذا المنهج الذى رسمه، وكتابه تلخيص لكتاب معروف، وما الدافع إلى عدم الإشارة إلى هذا التلخيص.

ب- ولو كانت حجة ابن خالويه تلخيصًا لحجة الفارسى لرأينا تشابهًا فى اللفظ وتقاربًا فى المعنى، واتحادًا فى الفكرة مع أن الكتابين مختلفان لفظًا ومعنى، وفكرة ومنهجًا، و إن اتحد موضوعهما.

(٣) أود أن أقول لأخى الفاضل إن كتب المعاجم والفهارس لا يعتمد عليها كل الاعتماد، لأن بعضًا منها نسب كتبًا إلى غير أصحابها، وفهارس المخطوطات فى دور الكتب العربية تحتاج إلى نظر، لتفهرس من جديد ، فكثير من المخطوطات قالوا عنها: إنها مجهولة النسبة وكثير من المخطوطات نسبت إلى غير أصحابها، ولا أدل على ذلك من هذا التصحيح الذى قمت به لبعض المخطوطات: وهذه أمثلة منها:

(١) إعراب القرآن لمؤلف مجهول..

جاء فى فهارس المخطوطات المصورة لمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية ما نصه: «إعراب القرآن لمؤلف مجهول. الجزء الثانى من نسخة كتبت فى القرن التاسع، يبتدئ من أول سورة الأنعام، وينتهى بآخر سورة الإسراء[2].

وبعد بحث طويل استطعت أن أثبت أن هذا الجزء ليس لمؤلف مجهول، وإنما هو لمؤلف معلوم، وهو السّمين الحلبى، حيث قارنت نصوصه بنصوص النسخة المخطوطة بدار الكتب

---

(١) مقدمة حجة الفارسى - ٤

(٢) ١-٢٠.

المصرية رقم ٣٢١- تفسير - فوجدت النصوص متحدة متماثلة. نفس النصوص ونفس الأسلوب، ونفس الألفاظ[١].

(٢) معانى للقرآن للزجاج..

تضم دار الكتب المصرية نسختين مخطوطتين من هذا الكتاب.

- نسخة رقم ١١١- تفسير ، وقد وثقتها برجوعى إلى كتاب «الإغفال» لأبى على الفارسى لأنه ضم كثيراً من نصوص معانى القرآن للزجاج ثم علق عليها مصلحًا ما أخطأ فيه الزجاج، فرأيت أن نسبة هذه النسخة إلى الزجاج صحيحة، لأن النصوص التى أوردها الفارسىّ فى الإغفال هى نفس النصوص التى أوردها الزجاج فى المعانى .

- نسخةرقم ٦٣٦- تفسير ، وبعد تمحيص استطعت أن أثبت هذه النسخة ليست للزجاج، والزجاج منها برئ[٢].

(٣) إعراب القرآن للزجاج رقم ٥٢٨- تفسير - دار الكتب المصرية ليست للزجاج كما بينت سابقًا فى هذا البحث.

(٤) البرهان فى علوم القرآن للحوفى : نسخة رقم ٢٠٥٠٣ بدار الكتب المصرية. وقد صورت منها النسخة رقم ٢٠٧٨٤ب والنسخة رقم ٢٠٧٨٥ ب.

ومع مجهود التصوير المكرر لهذه النسخة ، فإنها ليست للحوفى، بل هى نسخة من إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس[٣].

وبتوفيق الله لم يسبقنى أحد إلى هذه التصحيحات أو التحقيقات، ولا فخر فى ذلك، فإن ما يبذل حول الدراسات القرآنية قليل بالنسبة لما يجب أن يكون. وقد ألقت هذه التحقيقات على هذه المخطوطات ضوءًا كاشفًا يحملنا على أن نعيد النظر فى هذه المخطوطات لتقويمها من جديد حتى لا تختلط القيم، وتضطرب الأمور.

وبعد فإنى أقدم شكرى العميق للأخ الفاضل الأستاذ العابد، على هذا النقد البرئ الذى تفضل به مشكوراً.

(١)القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية : عبد العال سالم مكرم - ٢٥٣.
(٢) انظر الأدلة فى ذلك المرجع السابق - ٢٥٢.
(٣) انظر الأدلة فى ذلك المرجع السابق -٢٨٤.

أشكره لأنه أتاح لى فرصة طيّبة لبيان وجهة نظرى فى نسبة كتاب الحجة إلى صاحبه وأشكره لأنه أثار القراء نحو هذا الكتاب ليطلعوا على ما فيه بأنفسهم، والقارئ شريك الناقد ، والباحث فى أن يكون له رأى والفكر ليس وقفًا على أحد.

ومن حسن الحظ فإن الكتاب قد تمّ طبعه فى دار الشروق ببيروت، وقد رأى النور بنشره، وأسعده الحظ فى أن يبعث من جديد بعد إحدى وعشرين وألف سنة.

والله أسأل أن يجنّبنا الخطأ، وأن يهدينا سواء السبّيل.

ومن حسن الحَظّ بعد نشر هذه المقدّمة رأيت فى مقدّمة الزبيدى لكتابه : «تاج العروس» أنّ من المراجع التى اعتمد عليها فى كتابه: كتاب الحجة فى القراءات السّبع لابن خالويه وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب.

***

١٥. أضواء على المعاجم القرآنية

* الجذور الأولى للمعاجم العربية:

مرت هذه الجذور بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة تدوين اللغة العربية:

إذا نظرنا إلى لغة العرب وجدناها لغة واسعة تفرّعت إلى لهجات متعدّدة، وتطورت هذه اللهجات تبعا لتطور القبيلة، وتغير ظروف المجتمع، فلكل قبيلة لهجة تلتزمها فى كلامها.

ولغة العرب سواء كانت لغة البادية أو الحضر لا تخضع لمقاييس معينة أو قوالب محددة، لأنها لغة متداخلة، وليس بينها حواجز.

ومن أجل هذا يقول ابن جنى ناقداً هولاء الذين يحكمون على اللغة بالشذوذ إذا تجاوزت لغة البادية: «واعلم أنه إذا أدّاك القياس إلى شىء ما ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته فأنت فيه مخير، تستعمل أيهما شئت، فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتّة، وأعددت ما كان قياسك أداك إليه لشاعر مولد أو لساجع أو لضرورة لأنه على قياس كلامهم»(١).

وهذه اللغة الواسعة التى تمثل قبائل العرب جميعاً سواء كانوا بدواً أو حضراً كثرت فيها أسماء المسميات.

يدل على ذلك قصة الأسماء المتعددة للكلب، فقد روى أكثر المؤرخين أن أبا العلاء المعرّى عثر وهو داخل إلى مجلس الشريف المرتضى فى بغداد برجل، فقال هذا مغضباً: من هذا الكلب؟ فقال المعرىّ بكل هدوء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً».

وقد حفزت هذه الكلمة السيّوطى فى القرن التاسع الهجرى إلى تتبع كتب اللغة باحثاً

---

(١) الخصائص جـ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

منقباً حتى عثر على هذه الأسماء السبعين فنظمها فى أرجوزة سمّاها: «التبرّى من معرّة المعرّى»[1].

واضح إذن أن القبيلة الواحدة لم تضع للكلب سبعين اسماً، فالكلب عندها لا يعرف إلا باسم واحد أما هذه الأسماء الكثيرة فإنها أسماء لقبائل متعددّة.

إن احترام السماع من العرب مهما كان قليلاً لا يرفض، فاللغة كائن حىّ متطوّر، فمن الظلم أن نحدّ انطلاقها، وأن نكتم أنفاسها بهذه القيود الثقيلة التى وضعها «أهل القياس لأن الأقيسة لم تولد نتيجة استقراء كامل، أو استيعاب دقيق للغة.

رحم الله أبا حنيفة فقد طلب النحو فى أوّل أمره، فذهب يقيس، وأراد أن يكون أستاذاً فيه، فقال: «قلب وقلوب، وكلب وكلوبٌ، فقيل له: كلب وكلاب، فترك النحو ووقع فى الفقه»[2].

وما أعظم قول الشافعى فى هذا المقام حينما قال: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»[3].

من أجل هذا يصح لى أن أقول: إن المصيب من يتخذ القرآن الكريم موضع استشهاد فى كل ما يصدر ويورد، وإن من وصل إلى قمة الحق من قال: هكذا قال القرآن، وذلك لأن القران الكريم مصدر موثّق، لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزل بلغة قريش، وغيرها من لغات العرب، وكان الأحرى باللغويين جميعاً أن يتزاحموا على مورده، ويسيروا على هديه فى كل قاعدة يقعّدونها، وفى كل مسألة يحرّرونها، وفى كل مشكلة يحاولون حلها، والفراء يرد على بعض علماء الشعر، ورواة الأخبار التاريخية الذين لايريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن الكريم فى قوالبه اللغوية، بل يرون كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية، فيقول راداً على جميع هؤلاء: «إن القرآن أفصح أساليب العربيّة على الإطلاق»[4].

---

(١) النقد واللغة فى رسالة الغفران للدكتور أمجد الطرابلسى ص٣٤ ـ ٣٥ مطبعة الجامعة السورية.

(٢) الردّ على الخطيب البغدادى ص٣٤، ٣٥ للملك المعظم عيسى، مطبعة السعادة ط أولى.

(٣) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ص١٥ للسيوطى مطبعة السعادة.

(٤) العربية ليوهان فك ص٤ ـ ٥ بتصرف.

أمثلة تدل على أن القرآن الكريم نزل بلغات العرب جميعاً:

١ـ أخرج أبو عبيد عن طريق عكرمة عن ابن عباس فقال: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾(١) قال: الغناء وهى يمانيّة.

٢ـ أخرج أبو عبيد عن الحسن قال: كنا لا ندرى: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾(٢)؟ حتى لقينا رجل من أهل اليمن، فأخبرنا أن الأريكة عندهم: الحجلة فيها السرير.

٣ـ وروى الضحاك فى قوله تعالى: ﴿لَا وَزَرَ﴾(٣) قال: لا جبل، وهى بلغة أهل اليمن. والوزر: ولد الولد بلغة هذيل.

٤ـ وأخرج عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾(٤) قال: اللهو: المرأة بلسان اليمن.

٥ـ وعن الحسن فى قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾(٥) هو بلغة طىء: ابن امرأته.

٦ـ والرفث فى قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾(٦): الجماع بلغة مذحج(٧).

الرواة وجمع اللغة:

وحرصاً على اللغة من الضياع قام الرّواة والعلماء منذ أواخر القرن الهجرى الأول وخلال القرن الثانى إلى الاتصال المباشر بالأعراب، لأخذ اللغة عنهم وتدوينها فى كتبهم.

يدل على ذلك «أن الكسائى على بن حمزة لقى الخليل بن أحمد، وجلس فى حلقته، فقال له رجل من الأعراب: تركت أسد الكوفةوتميماً وعندهم الفصاحة، وجئت إلى البصرة، فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادى الحجاز ونجد وتهامة، فخرج ورجع، وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ، فقدم إلى البصرة فوجد الخليل قد مات. وفى موضعه يونس، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدّره فى موضعه»(٨).

---

(١) النجم/ ٦١.
(٢) الكهف/ ٣١.
(٣) القيامة
(٤) الأنبياء/ ١٧.
(٥) هود/ ٤٢.
(٦) البقرة/ ١٩٧.
(٧) انظر الإتقان ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٨) بغية الوعاة للسيوطى ٢/ ١٦٣.

وعيسى بن عمر كان عالماً لغوياً محيطاً باللغة، فقد ذكر السيّوطى أن عيسى تحدث عن نفسه فى مجال الكتابة عن العرب والتسجيل فقال: «كنت أنسخ بالليل حتى ينقطع سوائى»[1] يعنى وسطه.

ولا يتسع المقام هنا لذكر العلماء والروّاة الذين نقلوا من العرب ما نقلوه، وسجلوه بأقلامهم غير أن طريقة جمع اللغة فى هذه الفترة كانت عشوائية بدون ترتيب أو تنسيق، ونسبة ما أخذوه من القبائل.

يقول الدكتور أمجد الطرابلسى: «إن مرحلة تدوين ألفاظ اللغة العربية وتفسيرها فى هذه المرحلة كانت بدون ترتيب، وكان السماع من العرب والأعراب أحد المصادر الأساسية التى اعتمدها الرواة فى جمع اللغة.

وكانت كل طبقة من الرواة تتلقف كل ما جمعته سابقتها من مفردات اللغة..... ثم أخذ الرواة يدونون هذا التراث اللغوى فى رسائل متفرقة تمتاز بطابعها الابتدائى العفوى، البعيد عن التنسيق والتبويب.

وقدم الدكتور أمجد الطرابلسى مثالا لذلك كتاب «النوادر» لأبى زيد، إذ ترى المؤلف يورد فيه النصوص الشعرية والنثرية الملأى بالمفردات الغريبة النادرة، فيشرحها ويعلق عليها بعض التعليقات اللغوية من غير ترتيب فى إيراد النص أو ربط معانى الألفاظ»[2].

* والمرحلة الثانية من مراحل جذور المعاجم العربية كانت تتمثل فى رسائل صغيرة دونت فيها ألفاظ اللغة العربية مرتبة فى رسائل صغيرة مثل كتاب المطر لأبى زيد، وقد أسهم الأصمعى برسائل أخرى تتمثل فى كتاب الإبل وكتاب الخيل، وكتاب الشاة، وكتاب النبات والشجر.

وقد عنى المستشرقون بنشر هذه الرسائل[3].

* والمرحلة الثالثة هى مرحلة وضع المعاجم الشاملة وهذه المرحلة يمثلها كتاب «العين»

---

(١) المزهر ٢/ ٣٠٤.

(٢) انظر: نظرة تاريخية فى حركة التأليف عند العرب ص١٢ ـ ١٣ بتصرف.

(٣) انظر هامش حركة التأليف عند العرب ص١٢.

للخليل بن أحمد. والخليل عبقرى زمانه، وريـاضى عصره حباه الله تعالى بذكاء مفرط، وذهن وقاد ونبوغ رائع، فقد عرض الخليل حروف الهجاء على أعضاء النطق حرفا حرفا، ورأى أنها تصدر من أعضاء النطق مندرجة من أعلى من أقصى الحلق نازلة إلى أسفل نهاية الشفتين، ثم قسمها مجموعات تتقارب حروف كل منها فى مخارجه قليلا أو كثيرا.

ووجد أن الحروف الصادرة من أقصى الحلق ستة، وهى الهمزة، وإن كانت أقطعها وآصلها خروجا من الحلق، يعتريها أحيانا ما يلحقها بحروف العلة، وتسهيلها فى بعض الكلمات، فأبى أن يبدأ بها حروف الحلق، كما لاحظ أن الهاء حرف مهموس، وأن الحاء بها بحة لولاها لـلحقت بالعين فأخرهما قليلا، وجعل مبدأ حروف الحلق عنده حرف العين، فبدأ بها معجمه، وإليها نسب، فسمى كتابه «العين»[1].

وبصدد معجم الخليل يقول الدكتور أحمد مختار: «ولقد انبثقت فكرة المعجم الشامل فى أذهان اللغويين العرب منذ وقت مبكر لا يتجاوز منتصف القرن الثانى الهجرى حينما ألف الخليل بن أحمد ١٠٠ ـ ١٧٥ هـ معجمه الشهير بالعين بطريقة إحصائية قامت على جملة من الأسس منها:

(حجم الكلمة ـ الترتيب الصوتى ـ نظرية العناصر ـ التوافق والتبادل ـ بدء الثانى مما يلى الأول)[2].

رأى اللغوين والعلماء فى كتاب «العين»

ثارت ضجة حول كتاب «العين» بين الإشادة والنقد. فمن العلماء الذين أشادوا به:

أبو الطيب اللغوى فى كتابه: «مراتب النحويين» حيث يقول: أبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف فى كتابه المسمى «كتاب العين» فإنه هو الذى رتب أبوابه، وتوفى من قبل أن يحشوه»[3].

---

(١) انظر كتاب «العين» القسم المطبوع منه ص٨ نقلا عن كتاب: «المعاجم العربية» للدكتور عبدالسميع محمد أحمد ص٢٦.

(٢) انظر صناعة المعجم الحديث ص٢٦.

(٣) المزهر ١/ ٧٨.

وبعض العلماء أنكر نسبة الكتاب للخليل. قال السيّوطى: قال بعضهم: ليس كتاب العين للخليل، وإنما هو لليث بن نصر بن سيار الخراسانى.

ولأن الخليل كان معروفاً بالورع، مشهوراً بالتقوى، موسوماً بالصلاح. قال ابن فارس معلقاً على قول بعض الفقهاء: كلام العرب لا يحيط به إلا نبى، وهذا كلام حرى أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أن أحدا ممّن مضى ادّعى حفظ اللغة كلها. فأماالكتاب المنسوب إلى الخليل وما فى خاتمته من قوله: هذا آخر كلام العرب، فقد كان الخليل أروع واتقى لله من أن يقول ذلك»[1].

وبعد كتاب «العين» تتابعت المعاجم العربية، ومن أهم الكتب التى تأثرت بكتاب العين، ونهجت نهجه كتاب «جمهرة ابن دريد» الذى يقول فى مقدمة كتابه ما نصه:

«وأملينا هذا الكتاب، والنقص فى الناس فاش، والعجز لهم شامل إلا خصائص كدرارى النجوم فى أطراف الأفق، فسهلنا وعره، ووطأنا شأزه، وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعلق، وفى الأسماع أنفذ، وكان علم اللغة بها كعلم الخاصة. وألقينا المستنكر الوحشى، واستعملنا المعروف، وسميناه كتاب الجمهرة، لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشى المستنكر»[2].

ومساحة البحث لا تسمح بعرض المعاجم العربية التى ظهرت بعد الخليل لأنها كتب شتى، بعضها مطول، وبعضها مختصر، وبعضها عام، وبعضها خاص»[3].

وترددت فى الحديث عن الجذور اللغوية للمعاجم العربية، لأن علاقتها بالبحث تبدو من أول وهلة أنها علاقة منقطعة، والواقع ليس كذلك، لأن هذه الجهود الجبارة التى بذلت فى جمع اللغة، وصناعة المعاجم لها لولا القران الكريم ولغته المعجزة ما جمع ما جمع، ولا بذل ما بذل، فالقرآن الكريم كان وراء هذه الجهود الجبارة ،لأن الحفاظ على لغته، وتسجيلها فى معاجم تحفظ اللغة من الضياع، وتصونها من الاندثار واجب دينى مقدّس، ومن أجل أن يظل هذا القرآن الكريم خالداً خلود الزمن باقيا ما بقيت الحياة كان هذا العطاء الكبير من الرواة واللغويين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[4].

(١) المزهر ١ ص٦٤ ـ ٦٥.
(٢) انظر مقدمة الجمهرة.
(٣) انظر المزهر ١/ ٩٧.
(٤) الحجر/ ٩.

القرآن الكريم والمعاجم

لا يفوتنى أن أذكر أن حركة تدوين القرآن الكريم كانت أسبق زمنا من حركة تدوين اللغة، وليس هناك كتاب مقدس وصل إلى ذروة التدوين والتوثيق كالقرآن الكريم، وهذا سر عظمته، ومفتاح خلوده ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١).

ولقد سجل القران الكريم تسجيلا رائعا فى مصحف لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ظل «ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة، لا يشكون ولا يختلفون فى أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا»(٢).

وكانت الخطوة الأولى فى مجال التوثيق فى هذه الفترة كتابته حين النزول، ومنع كتابة شىء سواه حتى لا يختلط به ما ليس منه.

يدل على ذلك ما رواه سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن، فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه»(٣).

ومع أن أبا هريرة رضى الله عنه كان يجيد الكتابة، ومع ذلك نهى عن كتابة الحديث، يحدثنا ابو هريرة فيقول: «خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذى تكتبون؟ فقلنا: أحاديث سمعناها منك فقال: أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى»(٤).

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم فى عهد رسول الله ﷺ كان موثقا توثيقا متينا حيث كتب كله بأقلام كتاب الوحى، وغيرهم من الصحابة الكاتبين. يبد أنه لم يجمع فى مصحف.

---

(١) الحجر/ ٩.

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص٢٨٣.

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادى/ ٢٩.

(٤) المصدر نفسه/ ٣٣.

على أن السيوطى فى «الإتقان» وضح السبب فى عدم جمع القرآن فى مصحف فى عهد النبى ﷺ بقول: قال الخطابى: إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وتلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق وهو حفظه على هذه الأمة(١).

نقد بعض المستشرقين:

راعنى ما ذكره الدكتور (أرثر جفرى) فى مقدمته لكتاب «المصاحف لابن أبى داود حيث قال ما نصه: الرأى الشائع فى أن القرآن الكريم كتب فى عهد النبى ﷺ لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما ورد فى أحاديث أخرى من أنه قبض ﷺ، ولم يجمع فى القرآن شىء»(٢).

ويقتنع (أرثر جفرى) بوجهة نظرهم مستندا إلى دليل آخر، فيقول: «وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة. وسبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما»(٣).

وأطلت التفكير فى هذا القول فهديت إلى أن وراءه التشكيك فى نص القران الكريم، لأن الذاكرة مهما أوتيت من القوة لا تستطيع أن تمسك بكل ما فيها فترة طويلة وذلك يؤدى إلى نقص فى النص القرآنى أو زيادة عليه، ويكون شأنه شأن الشعر المروى عرضه للتغيير والتبديل.

وهذا القول لا يستند إلى دليل، ولا يقوم على حجة، وذلك لأن ادعاء أن النبى ﷺ قبض ولم يجمع فى القرآن شىء، فليس المراد منه أن القرآن لم يكن مكتوبا حينذاك بل المراد أنه لم يجمع فى مصحف.

وليس هناك أصرح من الروايات التى تثبت كتابة القرآن الكريم فى عهد الرسول ﷺ

---

(١) الإتقان جـ١ ص٥٧.

(٢) مقدمة المصاحف لابن أبى داود.

(٣) المرجع نفسه ص٥.

والتى تؤكد أن القرآن كله كان مجموعا على عهد الرسول ﷺ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا[1].

وأما خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق حين استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فالاستدلال به فى غير موضعه، لأن خوفهما زيادة تحر فى صيانة القرآن الكريم وحفظه، لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأتى إلا عن طريق التلقى والرواية، ومن ثم نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء فتتعثر طريقة الأداء.

وقد حرص العلماء الأقدمون على أن يقوموا بدراسات إحصائيةفى وقت لم تظهر فيه الآلات الحاسبة. والسبب فى هذه الدراسات يكمن فى حرصهم البالغ على أن يقفوا على عدد آياته وكلماته بل حروفه. ولا شك أن هذه الألفاظ القرآنية التى حرصوا على عدها كانت النواة الأولى لظهور معاجم الألفاظ فيما بعد. أما آياته فقد بذلوا فى عدها جهدا كبيرا. قال الدانى: اجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية.

والأعجب منذ ذلك أن الدراسات الإحصائية فى القرآن الكريم شغلتهم إلى أن يجردوا عقولهم وأعينهم وأيديهم لعد حروف القرآن الكريم، وهى مهمة صعبة قد تعجز عنها الآلات الحاسبة.

فقد أخرج الطبرانى عن عمر بن الخطاب مرفوعا: القرآن ألف ألف حرف فمن قرأه صار محتسبا كان له بكل حرف زوجة من حور العين.

ومن الأحاديث الشريفة التى تنص على ذلك ما أخرجه الترمذى عن ابن مسعود مرفوعا: من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «ألم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[2].

لماذا وضعت المعجم القرآنية:

السر فى وضع هذه المعاجم القرآنية يرجع إلى أن المعاجم القرآنية تأخرت عن غيرها من العلوم القرآنية كالتفسير، وعلوم البلاغة وغير ذلك من العلوم الإسلامية والعربية فى تناول المعنى والمبنى، وطريقة الأداء وبيان الأحكام واستنباطها.

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص٢٧.

(٢) انظر هذه النقول فى الإتقان ١/ ٩٨.

ويرجع السبب الرئيسى إلى وضع المعاجم القرآنية الدكتور منصور فهى فى تقديمه للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

فيقول «إن المشتغلين بعلوم القرآن قديما كانوا حفظة لكتاب الله الكريم، فلا يشق عليهم أن يقعوا على الآية حين يعرض لهم لفظ من ألفاظها[1].

ولما اتصل الغرب بالشرق واطلعوا على كنوز المعرفة عند المسلمين فى شتى العلوم المختلفة ها لهم ألا يكون للقرآن الكريم صاحب الأثر الكبير على البشرية فهرس يبين ألفاظه فى آياته وسوره بحيث يسهل الرجوع بمجرد معرفة الكلمة القرآنية إلى الآية بتمامها، ورقمها فى السورة بحيث يتم ذلك فى ثوان معدودة مما يغنى الدراسين عن تقليب صفحات المصحف ليقعوا على الآيةورقمها من خلال السورة التى يحددها هذا المعجم.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن يكون أول عمل فى هذا الميدان المعجم الذى وضعه المستشرق الألمانى (فلوجل) المطبوع فى «ليبسك» عام ١٨٤٢م والمسمى كتاب «نجوم الفرقان فى أطراف القرآن».

وقبل أن أتناول المعجم، المكمّل وهو موضوع البحث أحب أن ألقى نظرة عامة لأهم المعاجم التى ظهرت فى محيط القرآن الكريم.

أهم المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم:

١ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى يعتبر بحق أعظم المعاجم التى ظهرت فى القرن العشرين، لأنه بذل فيه مجهودا كبيرا عبر عنه مؤلفه فى مقدمته بقوله: «والله ما أقدمت على وضعه، وإرهاق نفسى، وإضناء جسمى، وإنهاك قواى فى عمله والدؤوب فى ترتيبه، وتنسيقه، وإعادة مراجعته مرات متعددات إلا لما أيقنت من شدة الحاجة إليه، وفقدان ما يسد مسده مما ألف فى بابه»[2].

* ومن أدبه الجم، وأخلاقه العالية، وأمانته العظيمة، ووفائه النادر اعترف بفضل المستشرق الذى سبقه فى وضع معجم ألفاظ القرآن فى وقت مبكر جدا وسماه: «نجوم

(١) انظر تقديم الدكتور منصور فهمى للمعجم المفرس لألفاظ القران الكريم.
(٢) من مقدمة المؤلف.

الفرقان فى أطراف القرآن»، ذلك المستشرق هو (فلوجل) الألمانى الذى طبع لأول مرة عام ١٨٤٢م.

* لم يدع المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى أنه ابتكر معجمه ابتكارا، وأنشأه إنشاء، وأوجده من عدم، ولكنه أرجع الفضل إلى ذويه حينما قال:

«ولما أجمعت العزم على ذلك راجعت معجم فلوجل مادة مادة على معاجم اللغة، وتفاسير الأئمة اللغويين، وناقشت مواده حتى رجعت كل مادة إلى بابها».

ولم أقنع نفسى بذلك بل اخترت من أجلة العلماء، وصفوة الأصدقاء لجنة عرضت عليهم فيها مواده مادة مادة، فما كان بادىء الصحة أقروه، وما خفى عليهم من وجه الصواب فيه فزعنا إلى المعاجم نستوضحها، وإلى التفاسير نستلهمها.

* ويختم المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى تقديمه بهذه العبارة التى تنم عن ثقة بالنفس، واعتزاز بالعمل وتقدير المبذول بقوله: فلو كان كتاب من عند غير الله أوفر نصيبا من الصحة لكان هذا الكتاب».

* ولم ينس المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى قبل أن يترك مقدمته أن يبين للقارىء الأخطاء التى وقع فيها المستشرق الألمانى، فقدم لنا قائمة تبين الكلمات التى أخطأ فيها «فلوجل» إلى ردّها إلى موادها.

والسبب فى هذه الأخطاء يرجع إلى أن «فلوجل» اعتمد فى أرقامه التى يسوقها أمام اللفظة الدالة على رقم الاية من السورة على مصحفه الذى طبعه خصيصا لهذا العمل.

ولما كان عدد آياته غير مستند إلى علم وثيق فقد وقع اختلاف عظيم فى ألوف من المواضع بين مصحفه، ومصحف الملك فؤاد.

منهج المرحوم فؤاد عبدالباقى فى معجمه:

بين منهج معجمه فى الأمور التالية:

أ- تقعيد القواعد فى ترتيب فروع كل مادة، وحققتها، وحررتها تحريرا بليغا.

ب ـ نسخ المعجم من جديد فى أثناء الطبع حيث أضفت إليه تحت كل لفظة رقما يدل على عدد مرات ورودها فى الكتاب الكريم.

ت ـ رمز أمام كل آية مكية بحرف (ك) وأمام كل آية مدنية بحرف (م).

ث ـ الطريقة التى ابتعتها فى ترتيب مواد هذا المعجم هى طريقة الزمخشرى فى «الأساس» والفيومى فى المصباح.

جـ ترتيب أصول الكلمات على حسب أوائلها فثوانيها، فثالثها، فافتتح بمبادة (أ ب ب) واختتم بمادة (ى و م).

ح ـ الابتداء بالفعل المجرد المبنى للمعلوم، ماضيه ومضارعه، وأمره. ثم المبنى للمجهول من الماضى والمضارع، ثم المزيد بالتضعيف، فالمزيد بحرف الخ.

خ ـ باقى المشتقات من المصدر واسم الفاعل والمفعول، فباقى الأسماء متبعا فى ترتيب كل باب من هذه الفروع نفس الطريقة التى اتبعت فى ترتيب المواد الأصلية وهى ترتيبها أيضا حسب أوائلها، فثوانيها، فثوالثها وهلم جرا[1].

٢ـ معجم هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن أشرف على تنسيقه وإخراجه الدكتور محمد صالح البنداق من منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت طبع سنة ١٩٨١.

* مقدمة هذا المعجم وضعت بين أيدينا عدةمعاجم فى مجال القرآن الكريم وقد أفادنا بوجود معاجم متعددة، يصعب الحصول على بعضها، من هذه المعاجم:

أـ فتح الرحمن لطالب آيات القرآن الكريم، ترتيب زاده فيض الله الحسنى المقدسى طبع بيروت ١٣٢٣هـ المطبعة الأهلية.

ب ـ كشف آيات القرآن لمؤلفه الحاج إبراهيم سورى طبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى.

ت ـ معجم آيات القرآن الكريم للدكتور حسين نصار، طبع عيسى البابى الحلبى بمصر.

---

(١) انظر مقدمة: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

ث ـ إرشاد الراغبين فى الكشف عن آيات القران المبين، وضع محمد منير الدمشقى ـ المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٦هـ.

ج ـ المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته لمحمد فارس بركات دمشق ١٩٦٨م.

ح ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم «فى مجلدين» طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.

خ ـ مفتاح كنوز القرآن الكريم لميرزا كاظم بك مع مقدمة باللغة التركية.

د ـ معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم دار الفكر.

هذه هى معظم المعاجم فى القرآن الكريم، وقد أحسن صاحب هداية الرحمن فى الإشارة إليها فى مقدمته مع أن الكثير من طلاب الدراسات القرآنية يجهلونها.

مقارنة بين المعجم لألفاظ القرآن الكريم وبين معجم هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن.

* الناظر إلى معجم «هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن» يجد أنه لا يفترق عن المعجم لمفهرس لألفاظ القرآن الكريم للمرحوم محمد فؤاد عبدالباقى، بل أستطيع أن أقول: إنه نسخة منه طبق الأصل.

* وقد أقر مؤلف هذا المعجم بأنه استرشد بالمعجم المفهرس للمرحوم فؤاد عبدالباقى.

لهذا أستطيع القول بأن معجم هداية الرحمن سار فى درب المعجم المفهرس خطوة خطوة وليس هناك فرق إلا فرق التسمية فقط، وإضافة «ك» للمكى، وإضافة «م» للمدنى ليس جديدا ففى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ترى هذه الظاهرة تطل بوجهها فى كل صفحة من صفحاته.

٣ـ الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم تأليف الدكتور حسين محمد فهمى الشافعى نشر وزارة الأوقاف المصرية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٩٥م.

* يعتبر هذا المعجم أحدث معجم فى ألفاظ القرآن الكريم[١].

---

(١) انظر مقدمة: معجم هداية الرحمن.

* وبمقارنة هذا المعجم بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم نجد أنه يختلف عن المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فيما يلى:

أ ـ ترتيب الآيات بالنظر لأولها.

ب ـ ذكر الآيات كاملة كما وردت فى المصحف نظرا للتشابه بين كلمات بعض الآيات.

ت ـ عدم التفرقة بين الهمزة والألف فى أى موضع من الكلمة، واعتبارهما حرفا واحدا.

ث ـ اعتبار «ال» التعريف من صلب الكلمة.

ج ـ اعتبار الصورة المكتوبة للكلمة، ومراعاتها فى الترتيب بصرف النظر عن نطق الكلمة مثل: «هذا» تبحث عنها كالصورة المكتوبة وليس «هاذا».

ح ـ عدم التفرقة بين المجرد والمزيد، واعتبار الحرف المضعف حرفا واحدا، وليس حرفين مثل «إن» و«أن» نفس الحرف، ولا يبحث عن «إن» فى «أنن».

خ ـ التمييز بين «لأ» و«لا» فيبحث عن «لأ» فى باب اللام يليها حرف الألف أما لا فتوجد فى يباب اللام ألف.

د ـ الهمزة على نبرة تسبق حرف «الياء» مباشرة مثل: «لئلا» قبل ليأكلوا».

ذ ـ الهمزة المفردة قبل الواو تسبق حرف الواو مباشرة مثل «جاءوك» قبل «جاوزنا».

والحق أن هذا المنهج مغاير لمنهج المعجم المفهرس تماما، ويعتبر وسيلة سهلة ميسرة للوقوف على الآيات وأرقامها دون عناء وصعوبة، وتيسيره بهذه الصورة يساعد الباحث للوصول إلى ما يريد عند استخدامه.

غير أنه يحتاج إلى مران طويل حتى تعتاده النفس، ويصبح أداه طيعة فى أيدى الباحثين.

٤ـ مشروع معجم ألفاظ القرآن الكريم.

قرأت فى جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٢١ من أبريل سنة ٢٠٠٠: أن هناك مشروعا لمعجم القرآن الكريم قام بإعداده الدكتور حسن عز الدين الجمل عضو جماعة تحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة.

وخلاصة حديث المؤلف عن هذا المشروع تتضح فيما يلى:

* رتب مواد اللغة بمراعاة ترتيب حروف الهجاء فى أوائل المواد وما يليها.

* وهو مكون من ٢٨ مجلدا مرتبة بتسلسل هجائى من حرف الهمزة إلى حرف الياء.

* جمع ٥٠٣٣ كلمة قرآنية كما أحصى ١٧٢٩ مادة لغوية.

* كتب المعجم خصيصا للنشر الإلكترونى.

* يسهل تخزين مواده، واسترجاعها على الحاسب الآلى.

* يناشد صاحب المشروع الدولة بأن تتولى طباعة هذا المعجم ليعود بالنفع على المسلمين بعامة وعلى طلاب الدراسات القرآنية بخاصة.

٥ـ هناك معاجم خصصت للموضوعات وهى كثيرة، ولكن نكتفى بأن نذكر واحدا منها حرصا على مساحة البحث وهو:

المعجم الموضوعى لآيات القرآن الكريم للأستاذ صبحى عبدالرؤف عصر.

* وفكرة هذا المعجم نبتت فى ذهن مؤلفه حينما وجد أن كثيرا من الآيات القرآنية ترتكز على العقيدة، فإذا زالت مظلتها عن المسلم كان الفسق والفجور والعصيان.

* ويذكر الباحث أن الله تعالى ألهمه جمعه وترتيبه تحت عناوين ثلاثة رئيسة هى:

١ـ أركان الإيمان والإسلام ٢ـ التقوى.

٣ـ الكفر والفسوق والعصيان.

* ويذكر المؤلف أنه حاول أن يبذل جهده فى جمع الآيات المتصلة بالعناوين بطريقة مبتكرة.

وبعد فهذه جولة حو ل معاجم القرآن أردت أن أعرضها فى إيجاز ليتبين لنا أن الله تعالى سخر جنوده من العلماء، ليعيشوا فى محراب القرآن الكريم دراسين وباحثين، أما المعجم المكمل لهذه المعاجم، فهو معجم القراءات القرآنية، وسنخصه بمزيد من البحث فى الصفحات التالية.

معجم القراءات القرآنية

كان لى شرف إعداد هذا المعجم بالاشتراك مع زميلى الدكتور أحمد مختار عمر الأستاذ بكلية دار العلوم.

وقد تولت جامعة الكويت طبع هذا المعجم على نفقتها فى طبعتين، الطبعة الأولى ١٩٨٥ والطبعة الثانية فى ١٩٨٨ وقد اشتمل المعجم فى الطبعتين على ثمانية أجزاء دون الفهار س.

وفى عام ١٩٩٧م تولت طبعه «عالم الكتب» بالقاهرة طبعة ثالثة مع إضافة جزء خاص لفهارس هذا المعجم، ولأن القراءات قد تثير جدلا بين العلماء، وبخاصة القراءات الشاذة قدمنا هذا المعجم إلى «مجمع البحوث الإسلامية» الإدارة العامة بالأزهر ليصدر قراره عن هذا المعجم فجاء القرار بما يفيد: أن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه.

وهذا القرار مسجلة صورته على الغلاف الداخلى للمعجم.

وفى مقدمة هذا المعجم بينا توثيق النص القرآنى فى عهد الرسول ﷺ وفى عهدى أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما.

وناقشنا قضية تحريق عثمان رضى الله عنه للمصاحف، والإبقاء على المصحف الذى استند على مصحف حفصة رضى الله عنها، ونسخ بكتابة جديدة على أيدى ثقاة كاتبين. وبعد تمحيص دقيق، وتوثيق متكامل كتبت عدة مصاحف. فوجه عثمان رضى الله عنه مصحفا إلى البصرة ومصحفا إلى الكوفة، ومصحفا إلى الشام، وترك مصحفا بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفا.، وهو الذى يقال له: الإمام.

ووجه مصحفا إلى مكة، ومصحفا إلى اليمن، ومصحفا إلى البحرين. ومعنى هذا أن عثمان استوعب بهذا الإرسال للمصاحف معظم الأمصار الإسلامية التى فتحت باسم الإسلام.

وبذلك العمل توج عثمان خلافته بتوثيق النص القرآنى حيث جعل مصحفه هو مصحف المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد هذه الجولة فى توثيق النص القرآنى، والحديث عن المصحف العثمانى، نحب أن نلقى نظرة سريعة على نشأة القراءات.

ونشأة القراءات فى مقدمة المعجم شغلت مساحات واسعة من هذه المقدمة.

فحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» اختلف العلماء فى تفسيره، وتضاربت أقوالهم فى معناه، ووصل الخلاف بين العلماء إلى حد أن روى له السيوطى فى الإتقان ٤٠ وجها[١].

ولابن قتيبة وللطبرى، وأبى حاتم السجستانى، وأبى الفضل الرازى، لهؤلاء جميعا آراء مختلفة حول هذا الحديث.

وهناك من القراءات ما يسمى بالقراءات السبع، وهى القراءات التى جمعها ابن مجاهد المتوفى ٣٣٤هـ باختياره الخاص فاشتهرت عنه.

والمصحف الذى اشتمل على القراءات السبع تجرد له قوم كما يقول صاحب: إتحاف فضلاء البشر «للاعتناء بشأنه بحيث وجهوا إلى كل مصر نسخة من هذا المصحف، ومعه أئمة مشهورون بالثقة والأمانة فى النقل، أفنوا عمرهم فى القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل العصر على عدالتهم، ولم تخرج قراءاتهم عن رسم مصحفهم.

وهؤلاء القراء السبعة هم:

١ـ ابن عامر المتوفى ١١٨هـ.

٢ـ ابن كثير المتوفى ١٢٠هـ.

٣ـ عاصم أبو النجود المتوفى ١٥٨هـ.

٤ـ نافع المتوفى ١٦٩هـ.

---

(١) الإتقان جـ ١ ص٤٥.

٥ـ أبو عمرو المتوفى ١٥٧هـ.

٦ـ حمزة المتوفى ١٨٤ أو ١٨٥هـ.

٧ـ الكسائى المتوفى ١٨٩هـ.

على أنه لا يفوتنا أن تذكر أنه ليس هناك علاقة بين الأحرف السبعة التى نص عليها الحديث، والقراءات السبع التى يمثلها هؤلاء القراء، لأن حديث الأحرف السبعة التى نص عليها الحديث كان فى وقت مبكر على عهد النبى ﷺ، ولم يكن فيه هؤلاء القراء قد وجدوا.

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث فى المقدمة نجد أن له تفسيرات متعددة لا يتسع المقام لذكرها كما قلت ذلك سابقا.

ومن أراد المزيد فليقرأ كتابى: «القراءات القرآنية، وأثرها فى الدراسات النحوية»[١].

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو: إذا وردت قراءة ليست منسوبة إلى أحد هؤلاء القراء السبعة هل تعتبر شاذة، لا يقرأ بها؟

الحقيقة أن ابن الجزرى وضع النقاط على الحروف فى هذه القضية حيث وضع مقياسا للقراءة الصحيحة سواء كانت قراءة سبعية أو غيرها.

يقول ابن الجوزى:

«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين.

وإذا اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفلة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم»[٢].

هذا المقياس الذى نص عليه ابن الجزرى يوسع دائرة القراءات الصحيحة ولا يحصرها

(١) نشر مؤسسة الرسالة ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) النشر فى القراءات العشر جـ١ ص٩.

فى دائرة القراء السبعة، وفى الوقت نفسه لا يسمح للقراءات الشاذة أن تدخل فى هذه الدائرة، لأن مقياس القراءة الصحيحة يبعدها عن هذه الدائرة.

القراءات الثلاث المكملة للعشر:

وهناك قراءات ثلاث مكملة للعشر وهى ما يأتى:

١ـ قراءة أبى جعفر: وهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى إمام المدينة النبوية التابعى، توفى ١٣٠هـ.

٢ـ قراءة يعقوب: وهو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن إسحاق، توفى ٢٠٥هـ.

٣ـ خلف: وهو الإمام أبو محمد خلف بن هشام البزار، توفى سنة ١٥٠هـ.

وقد حمل لواء الدفاع عن صحة قراءة هؤلاء القراء الثلاثة، ابن الجزرى حيث ناقش ابن الحاجب الذى كان لا يعترف بقراءة هؤلاء القراء.

ويختم ابن الجزرى حواره أو مناقشته لابن الحاجب فى صورة استفتاء كتبه لابن السبكى قال فيه:

«وما تقول السادة العلماء أئمة الدين فى القراءات العشر التى يقرأ بها اليوم، هل هى متواترة أو غير متواترة؟ وهل كل ما انفرد به واحد من العشرة بحرف من الحروف متواتر أم لا؟ وإذا كان متواترا فما يجب على من جحدها أو حرفا منا؟

فأجابنى ومن خطه نقلت:

«الحمدلله» القراءات السبع التى اقتصر عليها الشاطبى، والثلاث التى هى قراءة أبى جعفر، وقراءة يعقوب، وقراءة خلف متواترة معلومة من الدين بالضرورة وكل حرف انفرد به واحد من العشرة معلوم من الدين بالضرورة أنه منزل على رسول الله ﷺ لا يكابر فى شىء من ذلك إلا جاهل، وليس تواتر شىء منها مقصورا على من قرأ بالروايات، بل هى متوانرة عند كل مسلم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ولو كان «جلفا لايحفظ من القرآن حرفا».

ولهذا تقرير طويل، وبرهان عريض لا يسع هذه الورقة شرحه، وحظ كل مسلم وحقه أن يدين لله تعالى، ويجزم نفسه بأن ما ذكرناه متواتر معلوم باليقين، لا تتطرق إليه الظنون، ولا الارتياب بشيء منه، والله أعلم[1].

القراءات الأربع الزائدة على العشر:

هذه القراءات الأربع قريبة فى الرواية والسند من روايات وإسناد القراءات السبع أو العشر، فإلحاقها بالقراءات السبع أو العشر على شذوذها من ناحية الرواية أو السند هو السبب فى إفرادنا لها هذا الحديث فى هذا الموضع وقد أثار صاحب الإتحاف فى مقدمة كتابه إلى هذه القراءات من حيث السند والرواية فقال: والحاصل أن السبع متواترة اتفاقا، وكذا الثلاثة أبو جعفر، ويعقوب وخلف على الأصح، بل الصحيح المختار، وأن الأربعة بعدها: ابن محيصن واليزيدى والحسن والأعمش شاذة اتفاقا[2].

- وابن ميحصن: أبو عبدالله محمد بن محيصن المكى توفى ١٢٣هـ.
- اليزيدى: هو أبو محمد يحيى المبارك اليزيدى، وتوفى ٢٠٢هـ.
- الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش وتوفى سنة ١٤٨هـ.
- الحسن البصرى: أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى وتوفى ١١٠هـ.

القيمة الدينية للقراءات القرآنية:

ولا ننسى أن للقراءات فوائد دينية كبيرة.

من هذه الفوائد: أن تتبين من دراستها القراءات المتواترة التى نقرؤها تعبدا، والقراءات التى نأخذها فى مجال الدراسات الشرعية واللغوية، وهى التى نطلق عليها القراءات الشاذة. ويترتب على هذه المعرفة بروز قضية خطيرة أعلنت عن نفسها فى حقل القراءات القرآنية وهى:

هل تجوز القراءة فى الصلاة بالقراءات الشاذة؟

لقد دار حوار حول هذه القضية حوار طويل، ونقاش حاد ذكره ابن الجزرى فى كتابه

---

(١) النشر جـ١ ص٤٥ ـ ٤٦. (٢) إتحاف فضلاء البشر/ ٧.

«النشر[1] وعلى الرغم من أن أصحاب الشافعى وأبا حنيفلة وإحدى الروايتين عن مالك يجوزون القراءات فى الصلاة بالشاذ فإن أكثر العلماء منعوا القراءة بها فى الصلاة، والصلاة باطلة والسبب فى ذلك أن هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبى ﷺ، وإن ثبت النقل فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة أو بإجماع الصحابة على المصحف العثمانى.

* ومن القيم الدينية للقراءات أننا أخذنا بها سواء كانت متواترة أو شاذة فى بناء الأحكام الشرعية. ومن الأمثلة على ذلك:

أ.فى الميراث:

قراءة حفص عن عاصم فى المصحف الذى بأيدينا: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾[2].

وقرأها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «وله أخ أو أخت من أم».

فإن القراءة الأولى المتواترة تفسر على أن المراد بالأخوة هنا هم الإخوة للأم بناء على هذه القراءة الشاذة[3].

ب.فى العبادات:

غسل الأرجل أو مسحها فى الوضوء وردت فيها قراءة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[4].

فقراءة حفص عن عاصم: «وأرجلكم» بالنصب معطوفة على وجوهكم، فتكون الأرجل مغسولة، والجر عطفا على رءوسكم فتكون الأرجل ممسوحة فبين النبى ﷺ القراءتين، فجعل المسح للابس الخف، والغسل لغيره[5].

---

(١) النشر فى القراءات العشر ١/ ١٤ ـ ١٥.

(٢) النساء/ ١٢، وتفسير الكشاف ١/ ٢٥٥، وانظر قراءة رقم ١٤٠٦ فى معجم القراءات.

(٣) البحر المحيط ٣/ ١٩٠.

(٤) المائدة/ ٦.

(٥) الحجة لابن خالويه/ ١٢٩ بتحقيقى.

ج.فى الظواهر الكونية:

هناك قراءات قد تفسر الظواهر الكونية، ففى الآية ٨٦ من سورة الكهف وهى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بلغ مَغْرِب الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ وهى قراءة حفص عن عاصم فى المصحف الذى بين أيدينا ومعنى حمئة: أنها مملوءة بالماء والطين من الحمأة.

وقرأها الباقون أى غير عاصم من القراء (فى عين حامية)،ويذكرون لهاتين القراءتين قصة وقعت بين معاوية رضى الله عنه، ومجموعة من الصحابة منهم: عبدالله بن عمر وابن عباس، فقد قرأها معاوية: «فى عين حامية».

واعترض ابن عباس قائلا: ما نقرؤها إلا« حمئة» فالتفت معاوية إلى عبدالله بن عمر وهو عالم بالقراءات يسأله: كيف تقرؤها؟ فأجاب كما قرأتها يا أمير المؤمنين، وغضب ابن عباس حينما اتهم بالجهل بالقرآن فقال محتجا: فى بيتى نزل القرآن.

وحسما للخلاف أرسل معاوية إلى «كعب الأحبار» وكان عالما من علماء اليهود أسلم، وأصبح من كبار التابعين، فقال له معاوية: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة؟

فأجاب: فأما العربية فأنتم أعلم بها، وأما أنا فأجد الشمس فى التوراة تغرب فى ماء وطين،فوافقه ابن عباس.

على أننا إذا ألقينا نظرة عل معجم القراءات القرآنية القراءة رقم ٤٨٨٠ رأينا أن قراءة «حامية» من القراءات السبع، فقد قرأها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى[١]، ويفسرها ما رواه أبو ذر من أنه كان ردف رسول الله ﷺ، وهو على حمار، فرأى الشمس حين غربت، فقال: يا أبا ذر: أين تغرب هذه؟ فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تغرب فى عين حامية، بل ينسب إلى عبدالله بن عمرو نفسه أنه قال: إن رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس حين غابت فقال: فى نار الله الحامية، ولولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض[٢].

د ـ ومن القراءات القرآنية التى تفسر الظواهر الكونية، وتتفق مع الظواهر العلمية ما ذكره الألوسى فى تفسير قراءة: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾[٣].

(١) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٧٤.
(٢) تفسير الألوسى ١٦/ ٣١ ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) يس/ ٣٨.

وهى قراءة حفص عن عاصم فى المصحف الكريم الذى بين أيدينا.

وتناول الألوسى تفسير هذه القراءة السبعية قائلا: تجرى لمستقرها تحت العرش، فالمستقر: اسم مكان والظاهر أن للشمس فيه قرارا حقيقة.

قال الواحدى: وعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع.

وساق ابن حجر فى فتاويه جملة من الأخبار تتعلق بالموافقة على هذا التفسير. على أن هذا التفسير لم يقتنع به أئمة آخرون، لهم وزنهم العلمى والدينى ومكانتهم فى عالم التفسير والعلوم الإسلامية، وعلى رأس هؤلاء إمام الحرمين فقد ذكر أن لا خلاف فى أنها تغرب عند قوم، وتطلع على آخرين، والليل يطول عند قوم، ويقصر عند آخرين. وهناك أماكن تكون فيها السنة نصفها ليل ونصفها نهار. والأدلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها وإلا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على أن غروبها فى أفق وطلوعها فى أفق آخر.

وأيضا هى قائمة على أنها لا تفارق فلكها، فكيف تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل العرش؟

وقد وقف الألوسى حائرا فى حل هذه المشكلة حتى قال: وقد سالت كثيرا من أجلة المعاصرين عن التوفيق بين ما سمعت من الأخبار الصحيحة، وبين ما يقتضى خلالها من العيان والبرهان فلم أوفق لأن أفوز بما يروى الغليل ويشفى العليل[1].

رحم الله الألوسى فقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها، وفى رأيى أن الألوسى لو نظر إلى القراءة الأخرى التى تفسر هذه القراءة، والقراءات يفسر بعضها بعضا لما وقع فى هذه الحيرة، فهناك قراءة أخرى وهى: ﴿والشمس تجرى لا مستقرّ لها﴾ وهى قراءة تتفق مع العلم الحديث والعلوم الفلكية وقد قرأ بها ابن مسعود وابن عباس، وعكرمة وعطاء بن أبى رباح. انظر قراءة رقم ٧٣٠٠ فى معجم القراءات.

وتنسجم مع النظريات العلمية التى تؤكد أن الشموس والنجوم والكواكب والأقمار كلها

(١) تفسير الألوسى جـ ٢٣/ ١٢ ـ ١٣.

متحركات، لأنها تدور حول نفسها تارة، وحول غيرها تارة أخرى، وهذا ما نجده في النص القرآني نفسه في هذا الموضع بعينه ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١).

هـ والقراءة توضح الإشكالات التفسيرية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

قرأ الكسائي: «هل تستطيع» بالتاء «ربك» نصب أي هل تقدر يا عيسى أن تسأل ربك، لأنهم كانوا مؤمنين، وكانت عائشة تقول: كان القوم أعلم بالله من أن يقولوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾(٣) إنما قالوا هل تستطيع ربك وحجته قوله قبلها: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا ﴾ والله تعالى سماهم حواريين، ولم يكن الله ليسميهم بذلك وهم برسالة رسوله كفرة.

قال أهل البصرة: المعنى هل تستطيع سؤال ربك، فحذف السؤال، وألقى إعرابه على مابعده فنصبه كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(٤).

وقرأ الباقون: هل يستطيع بالياء ربك، أي هل يستطيع لك ربك إن سألته ذلك؟ كما يقول القائل لآخر: أتستطيع أن تسعى معنا في كذا؟

وهو يعلم أنه على ذلك قادر، ولكن يريد السعي معنا فيه، وإنما أرادوا بذلك أن يأتيهم بآية يستدلون بها على صدقه، وحجته قول عيسى لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» استعظاما لما قالوه، فقالوا: نريد أن نأكل منها(٥).

القراءات والمعجم:

من حق القارىء أو الباحث أن يسأل: هل القراءات القرآنية تحتاج إلى معجم؟

---

(١) يس/ ٤٠. (٢) المائدة/ ١١٢.
(٣) المائدة/ ١١١. (٤) يوسف/ ٨٢.
(٥) الحجة لأبي زرعة / ٢٤٠ ـ ٢٤١.

أ ـ نعم تحتاج إلى معجم، لأن هذه القراءات يصعب جمعها، ويتعسر تتبعها فى كتب التفاسير وكتب التراث.

وأحياناً تجد بعض القراءات لها مصادر متعدّدة، وقراء كثيرون، وبعضها لا تجد له إلا مصدراً واحداً فمن ذلك مثلاً:

* قراء: يَخْرُجْ، فى النص المصحفى: يُخْرِجْ آية ٦١ سورة البقرة مسلسل ١٩٠، هذه القراءة لا نجد لها إلا قارئاً واحداً وهو زيد بن على، ومصدراً واحداً وهو الفخر الرازى.

* ومن ذلك أيه ٦١ من سورة البقرة مسلسل ١٩٢ : «تُنْبِتُ» قرئت: تَنْبُتُ بفتح التاء وضم الباء، لا تجد لها إلا قارئاً واحداً وهو زيد بن على ومصدراً واحداً وهو الفخر الرازى ١/ ٣٦٥.

* ومن ذلك: والمسجد الحرام بجر المسجد، البقرة ٢١٧ مسلسل ٦٤٦.

قرئت: والمسجدُ الحرامُ بالرفع فيهما. لا نجد لها قارئاً، ولها مصدر واحد وهو البحر ٢/ ١٤٧.

* ومن ذلك: فرجالا أو ركباناً البقرة ٢٣٩ مسلسل ٧٢٤، قرئت: فرجالاً فركباناً، ليس لها إلا قارىء واحد وهو بديل بن ميسرة، ومصدر واحد وهو البحر ٢/ ٢٤٣.

* ومن ذلك: «وَسِعَ كرسيّه» البقرة ٢٥٥ مسلسل ٧٧٠ قرئت وَسْع، قارئها مجهول، ولها مصدران فقط: الإملاء للعكبرى ١/ ٦٢، والبحر ٢/ ٢٧٩.

* ومن ذلك: «أُؤْتمن» ـ البقرة ٢٨٣ مسلسل ٨٩٢ قرئت: أوتُمِن قارئها مجهول، ومرجعها الإتحاف فقط/ ١٦٧.

* ومن ذلك «ذائقةُ الموت» آية ١٨٥ آل عمران مسلسل ١٣٢١ قرئت: ذائقةٌ الموتُ قارئها مجهول، ولها مرجع واحد، إملاء ما منّ به الرحمن للعكبرى ١/ ٩٤.

ب ـ وتحتاج القراءات القرآنية إلى معجم، لأن كثيرا من القواعد النحوية لها ارتباطات بالقراءات والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١ـ إن المخففة من الثقيلة تعمل النصب فى الاسم بقراءة من قرأ: ﴿وَإِنْ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾(١) فى قراءة من قرأ بالتخفيف، وهى قراءة نافع وابن كثير(٢).

٢ـ وقوع الفعل الماضى حالا. يذهب الكوفيون إلى أن الفعل الماضى يجوز أن يقع حالا، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾(٣)، فـ «حصرت» فعل ماض، وهو فى موضع الحال، وتقديره: حصرة صدورهم. والدليل عل صحة هذا التقدير قراءة من قرأ: أو جاؤكم حصرةً صدورهم، وهى قراءة الحسن البصرى، ويعقوب الحضرمى، والمفضل عن عاصم(٤).

٣ـ إعمال إن النافية. أجاز أعمالها الكسائى وأكثر الكوفيين لقراءة سعيد بن جبير: ﴿إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَالُكُمْ﴾(٥)(٦).

٤ـ قراءة: الحمد لُله بضم اللام. الكوفيون اجتهدوا فى تأييد هذه القراءة لمناسبة الإتباع. قال يوهان فك: «وعلى النقيض من ذلك البصريون الذين عابوا هذه القراءة بحجة أنها سقطت من الاستعمال تماما، وأنها مخالفة للقواعد، ومصطدمة بالإعراب(٧).

هذه طائفة من المسائل التى اختلف فيها البصريون والكوفيون فى مجال القراءات، وهى غيض من فيض، وقليل من كثير ذكرت بعضها لتكون دليلا يؤيد ما أقول من أن القراءات أثرت فى النحو العربى البصرى والكوفى تأثيرا كبيرا.

ج ـ والقراءات تحتاج إلى معجم، لأن كثيرا من هذه القراءات مرجعها إلى اللغات أو اللهجات، من ذلك:

١ـ قراءة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾(٨) «تخفيف «ودع» وهى قراءة عروة بن الزبير،

---

(١) هود/ ١١١.
(٢) الإنصاف ١/ ١٩٦.
(٣) النساء/ ٩٠.
(٤) الإنصاف جـ١ ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٥) الأعراف/ ١٩٤.
(٦) همع الهوامع ٢/ ١١٦ بتحقيقى.
(٧) العربية: يوهان فك ص٣٢.
(٨) الضحى/ ٣.

وأبو حيوة، وابن أبى عبلة. قال الإمام المرتضى الزبيدى مدافعا عن هذه القراءة الشاذة بقوله: «قد قرأها النبى ﷺ هكذا، وجاء الحديث: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين».

قال الزبيدى: قولهم: وقد أميت عبارة أئمة الصرف قاطبة: وأكثر أهل اللغة وينافيه ما يأتى بأثره من وقوعه فى الشعر، ووقوع القراءة به، فإذا ثبت ورود ولو قليلا، فكيف يدعى فيه الإماتة[1].

٢ـ النصب بـ «لم».

حكى اللحيانى عن بعض العرب أنه ينصب بـ «لم» قال ابن مالك فى «شرح الكافية» زعم بعض الناس أن النصب بـ «لم» لغة اغترارًا بقراءة بعض السلف: «ألم نشرحَ لك صدرك» بفتح الحاء، وقول الراجز:

فى أى يومى من الموت أفر أيوم لم يقدرَ أم يوم قدر

قال ابن مالك: وهو عند النحويين محمول على أن الفعل مؤكد بالنون الخفيفة، ففتح لها ما قبلها ثم حذفت ونويت.

وابن مالك فى قوله هذا لم يكن موفقا، فاحتمال التأويلات البعيدة، والتخريجات التى لا تقوم على سند، أمر يعسر النحو، ويضيق مسالكه.

والأمر فى هذه القراءة واضح، وهو أن بعض العرب ينصب بـ «لم» كما حكى اللحيانى، على أن الأشمونى نقد ابن مالك فى قوله هذا، فقال ناقدا تأويل ابن مالك وتخريجه، وفيه شذوذان:

أ ـ توكيد المنفى بـ «لم».

ب ـ حذف النون لغير وقف ولا ساكنين[2].

---

(١) تاج العروس جـ٥ ص٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) شرح الأشمونى ٤/٨.

د ـ والقراءات تحتاج إلى معجم، لأن كثيرامن الأساليب نـرميها بالبعد عن العربية ولها ما يسندها من القراءات القرآنية، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

١ ـ الفعل: «توفى» ففى اللسان؟ و«فى» يقال: تُوفِّى فلان، وتوفاه الله إذا قبض نفسه، ومن هنا كان الفعل «توفى» مبنيا للمجهول دائما فى اللغة الفصحى.

جاءت القراءة القرآنية مصححة النطق الحديث، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾[١] فقد قرأها الأعمش «ومنك من يَتوفىّ» بالبناء للمعلوم.

٢ ـ الفعل «هرع» فـى كتب اللغة مبنى للـمجهول دائما، ومضارعه «يـهرع» فإذا قيل: إن فلانا هرع بالبناء للمعلوم، قالوا: إن ذلك خطأ، ولكن من القراء من قرأ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾[٢] بالبناء للمعلوم.

ومن أجل هذه القراءة لا نخطىء من قال: «يهرعون» بفتح الياء للبناء المعلوم[٣].

إلى هنـا ننتهـى الحديث عن الحـاجة إلى معجـم القراءات، معـجم يلم شـتاتها، ويـجمع متفرّقها باستخراجها من بطون المصادر المخطوطة والمطبوعة.

ويعتبر بحقّ أول معجم فى القراءات القرآنية لم يسبـقنا إليه أحد، ولفائدته الكبيرة تلقفته الأيدى بعد صدوره فى الطبعات الثلاث.

ومن حق القارىء أو الباحث أن يعرف خطتنا ومنهجنا فى إعداد هذا المعجم، فنقول:

خطة إعداد المعجم فى إيجاز:

١ ـ قدمنا بين يدى المعجم دراسة تفصيلية للقرءات القرآنية، وأشهر القراء.

٢ ـ رتبنا القراءات على حسب ترتيب المصحف، متخذين قراءة حفص أساسا.

---

(١) الحج/ ٥ ـ معجم القراءات القرآنية رم ٥٥١٧.

(٢) هود/ ٧٨ وانظر معجم القراءات قراءة رقم ٣٦٣٧.

(٣) انظر بحث «القيمة اللغوية للقراءات القرآنيّة» فى كـتاب الموسـم الثقافى لجامعة الكويت ص٥٤ للدكتور أحمد مختار عمر.

٣ـ أعطينا رقما مسلسلا لكل موضع قراءة، ويستمر التسلسل حتى نهاية المعجم.

٤ـ أعطينا أرقاما داخلية للقراءات حين تتعدد فى الموضع الواحد.

٥ـ ذكرنا أمام كل قراءة اسم من قرأ بها، والمصدر الذى وردت فيه هذه القراءة.

٦ـ اعتمدنا فى جمع القراءات عى عشرين مصدرا أساسيا (أعددنا بها قائمة خاصة ورمزنا لكل منها برمز).

٧ـ إذا وجدنا قراءات فى غير هذه المصادر العشرين أثبتناه إما فى الحواشى أو فى موضعه من تسلسل المصحف دون إن تدخل هذه القراءة فى الترقيم وميزناها برمز نجمة * قبلها.

٨ـ حرصنا عند ذكر أسماء القراء أن نبدأ بأسماء القراء السبعة، ثم نذكر باقى القراء دون ترتيب.

٩ـ مراجع هذا المعجم تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى:

(١) مراجع المقدمة، وقد أعدت لها قائمة خاصة بها.

(٢) المصادر الأساسية، وهى الكتب التى وقع اختيارنا عليها لتفريغ مادتها تفريغا كاملا.

وقد راعينا فى هذه المصادر أن تحقق ما يأتى:

أـ أن تشتمل على المصادر الأساسية للقراءات، وشمل ذلك القراءات السبع والعشر، والأربع عشرة والشاذة.

ب ـ أن تشتمل على المصادر الأساسية فى التفسير وإعراب القرآن.

ت ـ أن تضم بعض مؤلفات الشيعة فى التفسير.

ث ـ أن تضم بعض المؤلفات التى اهتمت بجانب الأداء والنطق مثل غيث النفع للصفاقسى وإتحاف فضلاء البشر للدمياطى.

(٣) مراجع التوثيق والتدقيق، وقد ضمت مؤلفات أخرى فى القراءات والتفسير كما ضمت عددا كبيرا من المعاجم وكت الأدب، والنحو واللغة.

١٠ـ استخدمنا لفظ «القارىء» فى العمود الخامس من المعجم بمعناه العام الواسع، ولذا أدخلنا تحته كل من نسبت القراءة إليه، ويشمل ذلك القراء الأصليين، ومن حدثوا بالقراء وإن لم يقرءوا بها.

١١ـ ساوينا بين القراءات فى الذكر، ولم نميز بين المتواتر منها والشاذ.

١٢ـ إن معيارنا فى قبول القراءة أو رفضها معيار لغوى صرف.

١٣ـ كثير من القراءات التى رميت بالشذوذ منسوبة إلى أبى بن كعب، وعبدالله بن مسعود، فكيف نستبعدها لغويا مع ما رواه البخارى أن الرسول ﷺ قال: خذوا القرآن عن أربعة، ذكر من بينهم ابن مسعود، وأبى بن كعب.

١٤ـ إنه لا يصح تعميم الحكم على القراءات المسماة الشاذة، بعد أن ثبت خضوع كثير منها لشروط القراءة الثلاثة (موافقة المصاحف العثمانية ولو احتمالا ـ موافقة العربية ولو بوجه ـ صحة السند واتصال الرواية، بل أكثر من هذا يرى ابن جنى أن ما سمى بالشاذ «نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالرواية من أمامه وورائه، ولعله أو أكثر منه مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه»[1].

١٥ـ أعددنا جزدا خاصا بالفهارس الآتية:

فهرس الألفاظ وراعينا فيه القواعد الآتية:

أـ ذكرنا الألفاظ التى تعددت القراءة بها حسب ما جاء فى عمود النص المصحفى.

ب ـ أوردنا الألفاظ بالرسم الحديث، وليس برسم المصحف.

ت ـ وضعنا الألفاظ تحت جذورها، ورتبت الجذور ألفبائيا.

ج ـ الرقم الموجود بعد اللفظ يشير إلى الرقم المسلسل الموجود فى العمود الأول من المعجم.

١٦ـ فهرس الأعلام.

١٧ـ فهرس الظواهر اللغوية وتشمل ما يأتى:

ـ التحقيق ـ التسهيل ـ الحذف ـ الإبدال ـ القطع ـ الوصل ـ المد ـ القصر.

---

(١) انظر المحتسب جـ ١ ص٣٢.

١٨ـ أعددنا فهرسا لاختلاف الصيغ ويشمل ما يأتى:

الفعل المضارع ـ الإفراد والتثنية والجمع ـ الفتح ـ الكسر ـ الضم ـ السكون ـ المصدر ـ اسم المصدر ـ المشتق ـ المبنى للمعلوم ـ المبنى للمجهول.

١٩ـ فهرس الإدغام بنوعيه الصغير والكبير.

٢٠ـ فهرس: التضخيم ـ الترقيق ـ التغليظ.

٢١ـ فهرس المد والتوسط والقصر.

٢٢ـ فهرس الاختلاس.

٢٣ـ فهرس الإتمام.

٢٤ـ فهرس الروم.

٢٥ـ فهرس الإشمام.

٢٦ـ فهرس النقل.

٢٧ـ فهرس السكت.

٢٨ـ فهرس الإتباع.

٢٩ـ فهرس نونى التوكيد.

٣٠ـ فهرس الأسلوب الخبرى والاستفهامى.

٣١ـ ياءات الإضافة ـ ياءات الزوائد.

٣٢ـ الزيادة والنقص.

٣٣ـ الاختلاف فى الإعراب.

وقبل أن ننهى الحديث عن معجم القرادات يمكنى أن أقول: إن هذا المعجم من الممكن أن تشتق منه معاجم فرعية أخرى.

من ذلك على سبيل المثال:

١ـ معجم الظواهر النحوية:

وتشمل الكلمات التى اختلف إعرابها بين النحويين، ولو نظرت إلى ص٢٨٩ من جزء

الفهارس لوجدت أن هذه الظاهرة تكون معجما كبيرا فسورة البقرة وحدها تحتوى على ١٠٨ ظاهرة نحوية.

٢ـ معجم اختلاف الصيغ، وهو باب مهم فى اللغة يلقى الضوء على كثير من الصيغ العربية. ففى سورة البقرة وحدها ما يقرب من ٣٤٨ صيغة.

٣ـ معجم قراءة ابن مسعود، فقراءة عبدالله بن مسعود لها باع طويل فى التفسير وفى الأحكام الشرعية. والمتتبع لقراءة عبدالله بن مسعود يجد أنها شغلت صفحات متعددة من فهرس الأعلام، انظر ص١٤٩ ١٥٠ ـ ١٥١.

وإلى هنا نختم الحديث عن المعاجم القرآنية وأذكر أنّ الذين سبقونا فى هذا المضمار بذلوا كل ما فى وسعهم للحفاظ على لغة القرآن الكريم، وقدموا فى سبيلها كل ما يملكون من جهد وعرق وكفاح ونضال لتبقى للقرآن الكريم لغته صافية ومشرقة، وأذكر فى هذا الموقف نصاً قرأته فى مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة هزنى هزاً عنيفاً لأنه أثار إعجابى بعلمائنا الذين سبقونا وخلاصة هذا النصّ:

أن الخطيب التبريزى وهو من رجال القرن السادس الهجرى وجد نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة لأبى منصور الأزهرى فى عشرة مجلدات، وجدها فى سوق الوراقين بمدينة تبريز فاشتراها، ثم سأل عن شيخ قدير حتى يدرس عليه ذلك الكتاب القيم، فدلوه على العلامة أحمد بن سليمان المعرى فى معّرة النعمان، فشد إليه الرحال ووضع الكتاب فى مخلاة، وسافر فى صحبة القافلة من تبريز إلى معّرة النعمان، والكتاب كان محمولاً على ظهره فى تلك الرحلة الطويلة، وكان ذلك فى زمن الصيف مما سبب خروج العرق من جسم الخطيب التبريزى إلى أن نفذ على غلاف ذلك الكتاب وقد بقى أثر العرق على تلك النسخة إلى أن اطلع عليها شمس الدين أحمد بن خلكان: وقال عنها «ولقد رأيت نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة العربية، وعليها عرق الخطيب التبريزى»[١].

رحم الله هؤلاء العلماء الذين حافظوا على التراث العربى والإسلامى حتى وصل إلينا معافى من كل سوء، سليماً من كل تحريف، وهذا من فضل الله تعالى على لغة كتابه، الذى تكفل بحفظه إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر البحوث والمحاضرات، مؤتمر ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ الذى أقامه مجمع اللغة العربية ص٢٠٧.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن: جلال الدين السيوطى ـ مطبعة الحلبى.

٢ـ إتحاف فضلاء البشر للدمياطى ـ مخطوط رقم ٧٣ ـ قراءات ـ دار الكتب.

٣ـ الإنصاف فى مسائل الخلاف ـ ابن الأنبارى ـ تحقيق محيى الدين ـ مطبعة السعادة.

٤ـ بغية الوعاة ـ جلال الدين السيوطى ـ مطبعة السعادة ـ طبعة أولى.

٥ـ تاج العروس للزبيدى ـ المطبعة الوهبية.

٦ـ تفسير الألوسى ـ طبع دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان.

٧ـ تقييد العلم ـ الخطيب البغدادى تحقيق يوسف العش طبع دمشق ١٩٤٩م.

٨ـ الجمهرة ـ لابن دريد ـ طبعة بالأوفست ـ دار صادر ـ بيروت.

٩ـ الحجة لابن خالويه: تحقيق د/ عبدالعال سالم مكرم ـ عدة طبعات.

١٠ـ الحجة لأبى زرعة ـ تحقيق الأستاذ سعيد الأفغانى ـ نشر جامعة بنغازى ـ طبعة أولى.

١٣ـ شرح الأشمونى ـ مطبعة الحلبى.

١٤ـ صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ـ للسيوطى ـ مطبعة السعادة.

١٥ـ العربية ـ يوهان فك ـ ترجمة المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار ـ طبع دار الكتاب العربى.

١٦ـ العين للخليل بن أحمد ـ القسم المطبوع منه.

١٧ـ القراءات القرآنية وأثرها فى الدراسات النحوية ـ د/ عبدالعال سالم مكرم ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٨ـ الكشاف ـ الزمخشرى ـ مطبعة الاستقامة.

١٩ـ الكشف عن وجوه القراءات لأبى محمد مكى بن أبى طالب تحقيق د/ محيى الدين رمضان. مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق.

٢٠ـ المحتسب فى تبيين وجوه القراءات الشاذة ـ ابن جنى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢١ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطى ـ الحلبى.

٢٢ـ المعاجم العربية ـ الدكتور عبدالسميع محمد أحمد ـ نشر دار الفكر العربى.

٢٣ـ معجم القراءات ـ الدكتور أحمد مختار ـ والدكتور عبدالعال سالم مكرم ـ عدة طبعات.

٢٤ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ المرحوم فؤاد عبدالباقى.

٢٥ـ معجم هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن ـ منشورات ـ دار الأفاق الجديدة ـ بيروت.

٢٦ـ مقدمتان فى علوم القرآن ـ تحقيق أرثر جفرى ـ مطبعة السنة المحمدية.

٢٧ـ الموسم الثقافى ـ جامعة الكويت.

٢٨ـ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ـ نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٩ـ نظرة تاريخية فى حركة التأليف عند العرب د/ أمجد الطرابلسى ـ نشر دار الفتح ـ دمشق.

٣٠ـ النقد واللغة فى رسالة الغفران د/ أمجد الطرابلسى ـ مطبعة الجامعة السورية.

٣١ـ همع الهوامع ـ جلال الدين السيوطى ـ تحقيق د/ عبدالعال سالم مكرم فى سبعة أجزاء ـ مؤسسة الرسالة الجزء الأول ـ تحقيق المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارق، ود/ عبدالعال سالم مكرم وبقية الأجزاء ـ تحقيق الثانى.

الفهرس

الصفحة

تقديم ٣

١ - القراءات السبع والأحرف السبعة. ٥-١٧

٢- من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم. ١٨-٢٦

٣- جوانب من أخطاء المستشرقين فى الدراسات القرآنية. ٢٧-٣٧

٤ - تفسير الكشاف للزمخشرى : مصدره ومنهجه من خلال الدراسات النحوية. ٣٧-٥٢

٥- غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية. ٥٣-٦٦

٦- قضية الكلمات الأعجمية فى القرآن الكريم. ٦٧-٨٢

٧- الشواهد الشعرية وغريب القرآن الكريم. ٨٣-٩٥

٨- أدوات المفسر. ٩٦-١٠٦

٩- تفسير القرآن بالقرآن. ١٠٧-١١٨

١٠ - نظرات فى غريب القرآن الكريم. ١١٩-١٣٢

١١ - تفسير غريب القرآن الكريم في ضوء الحديث الشريف. ١٣٣ - ١٤٩

١٢ - القراءات فى ضوء الدراسة والبحث. ١٥٠-١٧٠

١٣ - أثر القرآن الكريم فى تطوّر اللغة العربية ونشرها بين المسلمين. ١٧١-١٨٢

١٤ - حول نسبة كتاب الحجة فى القراءات السبع لابن خالويه - نقد النقد. ١٨٣-٢٠١

١٥ ـ أضواء على المعاجم القرآنية ٢٠٢ - ٢٣٥

كتب أخرى للمؤلف

أولاً: المؤلفات:

أ- دراسات قرآنية:

١- معجم القراءات القرآنية بالاشتراك - تسعة أجزاء.

نشر جامعة الكويت - طبعة أولى ١٩٨٢ - طبعة ثانية ١٩٨٨ - طبعة ثالثة- عالم الكتب١٩٩٧ - طبعة مفهرسة.

٢- القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية:

طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ - طبعة ثانية مؤسسة الصباح بالكويت ١٩٧٨م طبعة ثالثة- المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٦م.

٣- القراءات القرآنية وأثرها فى الدراسات النحوية:

طبعة أولى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

طبعة ثانية - مؤسسة الصباح بالكويت - طبعة ثالثة - دار الرسالة - بيروت ١٩٩٦م.

٤- قضايا قرآنية فى ضوء الدراسات اللغوية - دار الرسالة - بيروت.

٥- من الدراسات القرآنية: مؤسسة الصباح بالكويت. تحت الطبع طبعة ثانية - عالم الكتب بالقاهرة.

٦- اللغة العربية فى رحاب القرآن الكريم - عالم الكتب -طبعة أولى ١٩٩٥م.

٧- غريب القرآن فى عصر الرسول والصحابة والتابعين - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٦م.

٨- الكلمات الإسلامية فى الحقل القرآنى . نشر مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٦م.

٩- المشترك ا للفظى فى ضوء غريب القرآن الكريم - طبعة أولى - جامعة الكويت ١٩٩٤. طبعة ثانية مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٩٦م.

١٠ الترادف فى ضوء غريب القرآن الكريم تحت الطبع - مؤسسة الرسالة - بيروت.

ب- دراسات إسلامية:

١١- الفكر الإسلامى بين العقل والوحى - طبعة أولى- دار الشروق بيروت والقاهرة - طبعة ثانية: مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٢- من الدراسات الإسلامية طبعة أولى - مؤسسة الصباح بالكويت. تحت الطبع طبعة ثانية - عالم الكتب بالقاهرة.

١٣- أثر العقيدة فى بناء الفرد والمجتمع - دار الرسالة - بيروت.

ج- دراسات نحوية ولغوية:

١٤- المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة. طبعة أولى- دار الشروق - بيروت والقاهرة - طبعة ثانية مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٥- الحلقة المفقودة فى تاريخ النحو العربى - طبعة أولى : مؤسسة الوحدة للنشر - الكويت. طبعة ثانية مزيدة ومنقحة - دار الرسالة - بيروت.

١٦- شواهد سيبويه من المعلقات فى ميزان النقد - دار الرسالة - بيروت.

١٧- التعريب فى التراث اللغوى: مقاييسه وعلاماته - طبعة أولى ذات السلاسل بالكريت تحت الطبع طبعة ثانية - عالم الكتب بالقاهرة.

١٨- ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للعربية قبل الإسلام - دار الرسالة - بيروت.

١٩- جلال الدين السيوطى وأثره فى الدراسات اللغوية - دار الرسالة - بيروت.

٢٠- تطبيقات نحوية وبلاغية: أربعة مجلدات - دار البحوث العلمية بالكويت. وعدة طبعات بمؤسسة الرسالة - بيروت.

٢١- تدريبات نحوية ولغوية فى ظلال النصوص القرآنية. مؤسسة الرسالة - بيروت - عدة طبعات.

***

ثانيا التحقيق:

٢٢- تحقيق همع الهوامع لجلال الدين السيوطى - سبعة مجلدات. نشر دار البحوث العلمية بالكويت - ومؤسسة الرسالة - بيروت - عدة طبعات.

٢٣- تحقيق الأشباه والنظائر فى النحو لجلال الدين السيوطى- تسعة مجلدات . دار الرسالة - بيروت.

٢٤- تحقيق الدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطى - سبعة مجلدات مؤسسة الرسالة - بيروت- عدة طبعات.

٢٥- الحجة فى القراءات السبع لابن خالويه: أربع طبعات بدار الشروق - بيروت والقاهرة، وطبعة خامسة - دار الرسالة - بيروت.

٢٦- شرح تصريف العزّى لمسعود بن عمر التفتازانى - طبعة أولى ذات السلاسل بالكويت طبعة ثانية ١٩٩٧ - المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة.

٢٧- شرح الرّضى على كافية ابن الحاجب فى سبعة أجزاء - نشر عالم الكتب القاهرة.

***

رقم الإيداع : ١٤٧١٧/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N

977 - 232 - 229- 3

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر هاتف :٤٣٠٧٥٢٦-٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة